مِن هُدى سورة الأنفال

تأليف

الدكتور محمد أمين المصري

الناشر : مكتبة دار الأرقم ــ الكويت ــ ص.ب . ٤٣٢٣

مِن هدي سورة الأنفال

تأليف

الدكتور محمد أمين المصري

الناشر : مكتبة دار الأرقم ــ الكويت ــ ص.ب . ٤٣٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم و بعد :

جاء في كتاب (جامع بيان العلم وفضله) لأبي عمر بن عبد البر ــ وأظن أن القول للمؤلف نفسه ــ : « ولم أر أضر على العلم من قول القائل : لم يترك الأول للآخر شيئا » . وصدق أبو عمر رحمه الله . فإن هذه الكلمة توصد باب الجهد والاجتهاد ، وتقفل باب التجديد والإبداع ، مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم مثّلَ هذه الأمة بالمطر لايدرى أوله خير أم آخره ، ولايزال في المسلمين من يشمر عن ساق الجد في فهم كتاب الله والغوص في بحاره يلتقط الدرر كما وصف عمر رضي الله عنه ابن عباس بقوله له : « غص ياغواص » ، وذلك لثاقب فهمه في كتاب الله ، ومن أعظم مامنَّ الله به على المسلمين في السنين الأخيرة من الفهم في كتاب الله تفسيران عظيمان أولهما : « في ظلال القرآن » لسيد قطب رحمه الله وثانيهما « أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن » للعلامة الفاضل الشيخ محمد الأمين الشنقيطي .

وكذلك كان الشيخ محمد أمين المصري رحمه الله ممن يدعو إلى (التربية القرآنية) والعيش في جو القرآن ، جو الجهد والاجتهاد والتربية والعتاب ، وهذا لايتحقق إلا بالجهاد الفعلي ، ولذلك كان يكثر من الحديث عن الجهاد وكيف تركه المسلمون حتى أصبحوا أمة خانعة ذليلة يستخف بها الطغاة ، ويخدعها أعداؤها وكان لايفتأ يشرح و يفسر سورة الأنفال التي تتحدث عن معركة (بدر) ومنها يتحدث عن التربية القرآنية للأصحاب الكرام ، وعن تربية الأمة بالجهاد . ومنها يعرج على الآيات التي تتكلم عن غزوة أحد في سورة آل عمران ، والآيات التي تتحدث عن غزوة الأحزاب . وكان يرى أن الأمة المسلمة تربت بالجهاد . وهذاهو سبب اهتمامه بسورة الأنفال .

و بعد وفاته رحمه الله قامت حركات جهادية في أنحاء من العالم الإسلامي تجاهد الشر والطواغيت ، الذين يتحكمون بالعباد و يفسدون في الأرض ، وأعتقد أنه كان يتمنى أن يرى هذا اليوم الذي يرى فيه الشباب وقد تقدموا للموت بصدور مفتوحة ، وأشواق إلى الجنة .

يقول رحمه الله عن المرحلة السابقة التي كان يحض فيها على الجهاد : « وإن كثير ين من أبناء هذا الجيل الذين أشرفوا على آخر العمر من أمثالي لايحبون أن يسمعوا كلمة القتال ،

ولايروق لهم أن يتحدث متحدث عن الجهاد ، ولقد سمعت اللوم من كثيرين من عامة الناس وخاصتهم ، سمعت كثيرين من الأماثل يقولون : « أليس هناك موضوع غير الجهاد ؟ » .

و يقول أيضا : « إن الجهاد اليوم حق على المسلمين جميعا في مشارق الأرض ومغاربها وهو موضوع الساعة » .

وكأنه ينظر بنور الله حين يقول : « والخلاصة إن الأمة لاينقذها في مثل هذه الأيام إلا طليعة تتصف بصفات المؤمنين والشهداء تجمع شمل المؤمنين وتكون مع الصادقين » .

والشيخ لايتكلم عن الجهاد وأثره في تفجير طاقات الأمة فحسب وإنما يحقق و يوازن و يرجح على طريقة العلماء المحققين الذين يحبون الحقيقة و ينقون التراث الإسلامي مما علق به من روايات غير صحيحة ، أو آراء فاسدة من تأثير الفلسفات المترجمة . ولذلك نراه يحقق بجرأة ورصانة علمية موضع سورة الأنفال ، حيث يذهب بعض العلماء إلى أن اقتران الأنفال وبراءة هو من اجتهاد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه ، و ينقد هذه الرواية متناً وسنداً : متناً لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قبل وفاته عارض القرآن على جبريل مرتين ، فأين كان موضع سورة الأنفال و براءة ؟ وسنداً لأنه في سنده مجهول و ينقل كلام الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على هذه الرواية : « ولاعبرة بعد هذا في هذا الموضع بتحسين الترمذي ولابتصحيح الحاكم ولابموافقة الذهبي وإنما العبرة للحجة والدليل » . وهذا البحث نموذج حسن لما للأحاديث الضعيفة والواهية من أثر سيىء في أساس الدين ومعانيه .

كما يحقق في موضوع اختلاف الصحابة في الغنائم و ينقد الرواية التي تقول بانقسام الصحابة إلى ثلاثة أقسام ، وأن القسم الذي حواها هو الذي استأثر بها ، هذه الرواية ينقدها متناً وسنداً : متناً لأن هذا ليس من أخلاق الصحابة ، وسنداً لأن هناك رواية أقوى وهي أن الصحابة انقسموا قسمين : الشيوخ والشباب وهذا نموذج لتنقية التفسير مما علق به .

ولما فسر الآية الثانية وتطرق إلى موضوع الإيمان أفاض في التعليق على موضوع الإيمان : زيادته ونقصه وأثره في النفس وحقق ذلك وربطه بأقوال المعاصرين ، وأقوال أساتذة علم النفس والتربية من الغربيين ، وأيد رأي شيخ الإسلام ابن تيمية في بحثه وتعريفه للإيمان ؛

لأنه هو الرأي الصحيح الموافق للعقيدة الاسلامية العملية البسيطة ، وليس للعقيدة الذهنية المعقدة بعقد المرجئة والاعتزال وغيرهما من الفرق الشاذة .

هذه بعض التحقيقات القيمة ، ولكن صلب الموضوع هو الجهاد وكيف تربت الأمة من خلاله على الصبر والمصابرة ، وكيف أن الله سبحانه وتعالى كان يرفعها من خلال المعارك والتعب والنصب ، وليس من خلال القراءة والحلقات فقط ، وهكذا يريدها الشيخ (تربية قرآنية) ولعلها قد ظهرت الآن بوادر لهذا الفهم القرآني ، ورحم الله الشيخ رحمة واسعة وجزاه الله خيرا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

محمد العبدة

بسم الله الرحمن الرحيم

من هدي سورة الأنفال

تقدمة للسورة الكريمة

في موقعة القادسية قبل أن يأذن سعد بالقتال أرسل ذوي الرأي والعقل والنجدة إلى الناس وقال لهم : انطلقوا فقوموا في الناس بما يحق عليكم ويحق عليهم في مواطن البأس فإنكم من العرب بالمكان الذى أنتم به وأنتم شعراء العرب وخطباؤهم وذوو رأيهم ونجدتهم وسادتهم فسيروا في الناس فذكروهم وحرضوهم على القتال (الطبري ٣/٤٥) .

وأمر سعد الناس بقراءة سورة الجهاد وهى سورة الأنفال فلما قرئت هشت قلوب الناس وعيونهم وعرفوا السكينة مع قراءتها (ابن الأثير ٢/١٨١ــ ١٨٢) (الطبري ٣/٤٧) . وعند فراغ القراء من قراءة هذه السورة كَبّر سعد فكَبّر الذين يلونه وكَبّر بعض الناس بتكبير بعض فاستعد الناس للقتال ثم ثنى سعد فأكمل الناس استعداداتهم ثم ثلّث فبرز أهل النجدة وأنشبوا القتال ... ثم كَبّر سعد التكبيرة الرابعة إشارة لبدء الزحف العام (الطبرى ٣/٤٧) .

وإنه ليجدر التأمل في صفات هؤلاء الذين أرسلهم سعد إلى الناس قبل أن يأذن بالقتال ــ الرأى والعقل والنجدة ــ وإن هذا ليوضح جلياً مكانة ذوي الرأي والنجدة في ساعات البأس ، يدفعون الحذر و يقطعون التردد و يدفعون بالناس إلى الموت وإلى الشهادة ومن المؤسف أن أمثال هؤلاء الدعاة قد فقدوا وإن وجد عدد يسير منهم فما يقومون بحق الله عليهم .

إن ألوف الألوف من المسلمين اليوم رغم هذه الظلمة الحالكة والحيرة الغالبة لو أتيح لهم من يدعوهم دعوة صادقة يتقدم بها صاحبها ليستقبل الموت بصدره ونحره ، الوف الألوف مستعدة لتلبية النداء والسعي وراء الشهادة ولو تم ذلك لتم معه نصر الله .

إن الحروب الصليبية التي استمرت مائتي عام بضلالها وشرورها مدينة لرجل واحد عجوز قميء هو بطرس الراهب الذي أخذ يسير من عاصمة إلى عاصمة في بلاد أوربة يدعو

لانتزاع المسجد الأقصى من أيدي المسلمين . أفلا يوجد في المسلمين اليوم من يدعو صادقا إلى الاستجابة لله ولرسول الله لتخليص المسجد الأقصى من اليهود ؟

إن النصوص السابقة تشير إلى مكانة سورة الأنفال من كتاب الله في الدعوة إلى الجهاد ولاغرو فلقد نزلت على إثر بدر الكبرى التي فرق الله بها بين الحق والباطل وأراد الله بها نصرة دينه واعزاز جنده .

روى البخاري في صحيحه في كتاب التفسير عن ابن عباس أن سورة الأنفال نزلت في بدر وفي روايات أخرى عن ابن عباس « تلك سورة بدر » .

نظرة اجمالية في اغراض السورة الكريمة

المحور الذي تدور عليه آيات السورة الكريمة موضوع الجهاد والغرض الأساسي الذي تدعو اليه الثبات في مواطن البأس وعدم الفرار من وجه العدو .

والموضوعات التي تدور حولها السورة الكريمة تتلخص فيما يلي :

(عتاب للأصحاب رضوان الله عليهم اولا) (وتذكيرهم بما تم لهم في المعركة ثانيا) (وتذكيرهم بالحال التى كانوا عليها من قبل وبما كان عليه المشركون من مكر وكيد وعناد ثالثا) (ونداءات للأصحاب رضوان الله عليهم متكررة متتالية رابعا) (ثم توجيه للأصحاب يتصل بشئون الحرب وأمور القتال خامسا) .

ولقد افتتحت السورة الكريمة بموضوع الأنفال وأشارت الى نوع من النزاع وقع بين بعض الأصحاب في موضوع الأنفال وضعته الآيات الكريمة في صيغة سؤال أجابت عنه ثم خلصت إلى ذكر صفات المؤمنين مشيرة إلى أن هذه الصفات هي التي يجب ان يتصف بها الأصحاب ، وانتهى هـهنا موضوع العتاب الأول ووجدت الآيات الكريمة سبيلها لتسلكه إلى العتاب الثاني بتشبيه الموقف الأول بالموقف الثاني ذلك لأن الدافع واحد والضعف البشري هو العامل في الموقفين .

وامتزج العتاب في الموضوع الثاني بالتذكير بما وقع قبيل المعركة كراهة فريق للخروج وخوف فريق من الموت حتى أنهم كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون وجدال فريق مع الرسول عليه صلوات الله وسلامه في موضوع القتال .

وهنا تقارن الآيات الكريمة بين ما يريده هذا الانسان اذا خلي وضعفه وما يريده الله

منه يريد شهوات نفسه و يريد الله منه ان يرابط في سبيل دعوة الحق .

وبعد هذا التوجيه الكريم والعتاب الرحيم تأخذ الآيات الكريمة بالتذكير بالمنن التي تمت في معركة بدر، الاستغاثة والاستجابة بالامداد بالملائكة ، والآيات من عند الله تترى ، والاستجابة تبدأ بذكر الامداد بالملائكة وتختم بأمرهم بتثبيت الذين آمنوا وضرب البنان ويختم هذا كله بأن هذا هو شأن الكافرين أن يذوقوا العذاب في الدنيا بيد المؤمنين ولهم في الآخرة عذاب النار.

النداءات الخمسه

كل هذا يتم فى اربع عشرة آية وتطلع الآية الخامسة عشرة بنداء حاسم جازم للمؤمنين هو النتيجة الحتمية لكل ما سبق عدم التولي يوم الزحف .

و يعقب النداء الأول نداءات اربعة تؤكد مضمونه وتؤيده .

النداء الثانى امر بطاعة الله ورسوله وتحذير من الاعراض عنه.

النداء الثالث امر بالاستجابه لله ورسوله .

والنداء الرابع نهي عن خيانة الله ورسوله .

والنداء الخامس تحريض على التقوى وذكر ثمرة من أعظم ثمراتها الفرقان و يتصل بكل نداء معانٍ تناسبه :

فالأمر بعدم الفرار من الزحف يناسبه أن يعلم المؤمن أن الأمر كله لله وان كل ما يتم فى ملكه جل شأنه بتقديره وتدبيره فلم الخوف إذن ولم الفرار؟ قال تعالى « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم » و يتصل بالموضوع ان يستيقن المؤمن بأن الله موهن كيد الكافرين .

والأمر بطاعة الله ورسوله يناسبه التنفير من حال الكافرين الذين غلفت قلوبهم الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون الذين هم شر الدواب الصم البكم الذين لا يعقلون .

والاستجابه لله ورسوله يناسبه التحذير من أمرين يحولان بين المرء والاستجابه لنداء الحق أحدهما داخلي حين يحال بين المرء وقلبه وثانيهما خارجي حين تعم الفتنة في الأمة و يعظم شرها فلا يستطيع أن يقف أمامها ذو رأى أو يكبح جماحها ذو عزيمة . و يناسب

الاستجابه لله ورسوله لما فيها من الحياة تذكير المؤمنين بحالهم من قبل إذ هم قليل مستضعفون في الأرض فآواهم الله جل شأنه بعد استجابتهم وأيدهم بنصره ورزقهم من الطيبات .

و يناسب الأمر بعد الخيانة التذكير بفتنة الأموال والأولاد

و يناسب ذكر الفرقان الذى يكون للمؤمنين بسبب تقواهم تذكيرهم بما كانوا عليه من قبل وبما كان عليه المشركون من كيد ومكر وعناد :
أ ــ ائتمارهم برسول الله عليه صلوات الله وسلامه ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه.

ب ــ استهزاؤهم بآيات الله وقولهم « إن هذا إلا أساطير الأولين »

جـ ــ عنادهم بأبشع صورة (واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء)

و يتصل بالأمر الثالث أنهم يستحقون العذاب ولكن الله لا يعذبهم مادام الرسول عليه الصلاة والسلام فيهم .

و يناسب ذكر الكافر ين وعنادهم العود الى تطمين المؤمنين ، بأن الله محبط كيد الكافر ين و بأن الأموال التي ينفقونها ليصدوا عن سبيل الله ستكون حسرة عليه م ثم يغلبون .

وهنا مكان بيان سنة من سنن الله في خلقه لعباده وابتلائه إياهم فما الحياة الا فرصة تتاح للخبيث ليقدم أسوأ ما عنده وللطيب ليبدي أكرم خصاله وهذا الابتلاء « ليميز الله الخبيث من الطيب »

على أن باب الخير مفتوح غير مؤصد وليس بينه و بين هذا الانسان الا أن يستيقظ ضمير هذا الانسان وهنالك تفتح له صفحة جديدة و يولد ولادة جديدة (ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف)

فاذا كانت الحياة صراعا بين الحق والباطل وإذا كان الشر دائباً على مغالبة الخير عاملاً على إخفاء آثاره وطمس معالمه فليس البيان وحده كافيا في دفع الشر واجتثاث

اصله بل لابد من قتال يواجه القتال ومناجزة تسبق المد وليس الغرض من القتال التشفي ولا الانتقام ولكن الغرض كف الفتنة ودفع الأذى « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة »

وهكذا كانت هذه الآية الكريمة مسوغة للقتال وهكذا كان بعد دفع المؤمنين الى الثبات وتحر يضهم على الوقوف أمام الأعداء كالأطواد بيان لمعنى القتال لدى المسلمين والغرض الدافع اليه . ومفهوم الآية الكريمة أن غير المسلمين اذا انكسرت شوكتهم وقطعت فتنتهم فلا مسوغ لقتالهم .

و يتصل بالقتال أمر هام جدا هو إحلال الغنيمة للمسلمين يقوون بها على الاستمرار في قتال المشركين وقطع دابرهم .

و يتصل بأمر الغنيمة تشر يع هام جدا هو أخذ الخمس من الغنيمة ليكون لحاجات المسلمين العامة ولأقر باء الرسول عليه صلوات الله وسلامه الذين لايجوز لهم أن يتناولوا شيئا من مال الصدقة وليتامى المسلمين ومساكينهم وأبناء السبيل منهم .

والآية التي شرعت هذا التشر يع تستحث المسلمين للامتثال وتعود بهم الى التذكير بالموقعة التي كتب لهم فيها النصر وبحال أعدائهم من قبل وذكر الفرقان هنا كما ذكر من قبل تحر يض المؤمنين على القتال ودعوتهم الى الثبات في ميادينه و يتبع القتال الانفاق في سبيل الله . وصورة الانفاق هنا التنازل عن خمس ماغنمه المسلمون من أعدائهم وكلا الأمر ين القتال والانفاق من احكام الله وتشر يعاته الهامة وقد وضع الحكم الأول في نداء اختفت به الممهدات من قبله والمؤكدات من بعده واعتمد التمهيد والتأكيد على تذكير المؤمنين بما تم لهم في التجر بة التي مروا بها وعرفوا فيها لطف الله ولمسوا عنايته بهم وهنا في الآية الحادية والأر بعين يفرض على المؤمنين قدر ليس باليسير يدعونه من الغنيمة لله ولرسوله .

وهنا ايضا تستثار معاني الايمان ثانية وتعود الآيات الكريمة الى التذكير بالموقعة وبحال الكافر ين .

يُذَكَّر المؤمنون بموقعهم في المعركة وبموقع اعدائهم ومكان الركب الذين نجوا بالقافلة ، واهتمام الآية الكريمة بذكر المكان فيه إشارة الى أنه كان للمكان الذى نزل فيه المسلمون والذى نزل فيه أعداؤهم دور في كسب المعركة وقد دخلت العناية الالهية فنزل المطر فوطأ

للأقدام في أرض المسلمين وكان شرا على الكافرين .

وكان الاجتماع بين المؤمنين وقريش على غير ميعاد ، كان مفاجأة قدرتها رحمة الله لتكون عبرة وليقضي الله امرا كان مفعولا .

وكان مما رتبت لهذا اللقاء رؤيا رسول الله عليه صلوات الله وسلامه في منامه اذ رآهم قلة وتقليل المشركين في أعين المؤمنين قبل القتال وتقليل المؤمنين في اعين المشركين . يقول الزمخشري : « قد قللهم (المؤمنين) في اعينهم (المشركين) قبل اللقاء ثم كثّرهم بعده ليجترئوا عليهم ثم تفجؤهم الكثرة فيبهتوا ويهابوا وتفل شوكتهم حين يرون ما لم يكن في حسابهم وتقديرهم وذلك قوله تعالى « يرونهم مثليهم رأى العين » .

وهنا يستيقن المؤمنون ان الموقعة قد تمت بتدبير الله وأن نصرهم قد سَدَّدت خطواته قدرةُ الله فليزدادوا إيمانا بالله وتوكلا عليه وهنا يأتي النداء في الآية الخامسة والأربعين شبيها بالنداء الأول يدعو المؤمنين إلى الثبات أمام المشركين « ياأيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » .

ويلي النداء دعوة إلى الطاعة لله ورسوله كما كان الحال في النداء الأول اقترن النداء هنا بالأمر بالطاعه وبالنهي عن التنازع كما كان النهى في النداء الأول عن إعراض كإعراض المشركين « الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون » .

واعقب النداء والأمر والنهي تحذير وتنفير من الوقوع في حال المشركين « الذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس يصدون عن سبيل الله » .

ويناسب حال بطر المشركين وكبرهم التذكير بتزيين الشيطان لهم أعمالهم فاذا جد الجد تبرأ منهم وتركهم فى الميدان يذوقون الموت بسيوف المسلمين .

ويناسب ذكر عون الله لأوليائه ونصرته للذين اتبعوا دينه التذكير بقول المنافقين «غر هؤلاء دينهم » واجابة هؤلاء الموجزة الحاسمة قوله تعالى « ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم » .

ذكرت الآيات الكريمة قبل النداء الأول ضرب الملائكة للاعناق وللبنان وهنا تذكر الآيات الكريمة بالملائكة تتوفى الذين كفروا تضرب وجوههم وأدبارهم وتقول لهم ذوقوا

عذاب الحريق وكان السبب هناك مشاقة الله ورسوله والسبب هنا ما قدمت أيديهم .

وعقدت الآيات الكريمة شبها بين مشركي قريش وآل فرعون والذين من قبلهم ووجه الشبه انهم « كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنبهم »وخلصت الآيات بعد هذه النتيجة الواقعة إلى قانون اجتماعي ومبدأ إنساني هام جدا مآله أن ما يعتري المجتمعات من ارتفاع وهبوط منوط بما يطرأ على نفوسهم من تغيير وتبديل ونموذج لهذه القاعدة ماحل بآل فرعون حين كذبوا بآيات الله أهلكوا واغرقوا.وتخلص الآيات الكريمة بعد كل هذا إلى مبدأ اجتماعي آخر يتمم المبدأ الأول و يفصل مجمله ذلك أن شر تغير يطرأ على النفوس هو ذاك التغير الذي ينقل النفوس من الايمان الى الكفر وتصبح تلك النفوس التي ملئت كفرا شر مخلوق يدب على وجه الأرض .

ولما كان محور الموضوع قتال هؤلاء اختارت الآيات الكريمة من صفات هؤلاء الذين هم شر الدواب صفة نقض العهد فوصفتهم بأنهم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون ثم وضعت لأمثال هؤلاء علاجا شبيها بمعالجة الجرح بالكي قال تعالى « فأما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون » .

ووضعت في الوقت نفسه حكما شرعيا وقاعدة من قواعد الحرب « واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء » وعادت الآية تطمئن المؤمنين وتسخر بقوى الكافرين ومكرهم وانواع جهودهم وتطمئنهم بانهم المغلوبون

« ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا ، إنهم لا يعجزون »

وهذه الآية قد تحمل بعض الناس على فهم الأمور فهما منحرفا جانبيا ومثل هؤلاء هم الكثرة الغالبة اليوم يحسبون أن المسلمين ينصرون ولو لم يعدوا أكبر عدة يستطيعونها ليرهبوا أعداء الله وليس معنى الآية الكريمة إلا أن تكون قوة المسلمين الحربية أعظم قوة في العالم كله الى جانب كل اعداد يدخل في معنى القوة .

قال تعالى «واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل »

وهنا اذا انتهى المسلمون في اعداهم وقوتهم الى الذروة وخاف اعداؤهم بطشهم فمالوا الى المهادنة وجنحوا الى المسالمة فحكم الله في مثل هذه الحال ان يقبل المسلمون مصالحتهم و يرضوا بمسالمتهم . يفعل ذلك المسلمون رغبة في الصلح وحقن الدماء و برهانا للناس

أجمعين بـأنهـم لا يحملون في قلوبهم حقدا ولا غيظا ولا حنقا على أهل الشر ودعاة الباطل بـل كـل مـا يـرمونه أن يكف هؤلاء عن فتنتهم فاذا ألقوا السلاح وأعلنوا الاستسلام ألقى المسلمون سلاحهم ورضوا بصلحهم وهم يفعلون ذلك بعيون مفتحة وقلوب يقظة يعلمون أن دعـاة الشر لا عـهـود لهـم ، يضع المسلمون أسلحتهم و يرقبون ما يجيء من هؤلاء فان كانوا يـر يـدون خدعة فالله من ورائهم « وإن ير يدوا أن يخدعوك فان حسبك الله » وكأن الآية الـكـريمـة تطلب من المؤمنين الحذر ولكنها فى الوقت نفسه تطلب من المؤمن أن يكون موقفه مـوقـف المطـمئن إلـى ر بـه الواثق بنصره أما المغالاة في الحذر التي تؤدي الى المبالغة في الـظـلـم بـقـتل الجماعات و بث الذعر في النفوس وذلك مما يعانيه الظالم من شدة الخوف والامـتـلاء بـالـرعب كل ذلك يأباه الاسلام ولا يرضاه بل على القائد أن يطمئن دون أن يكون غافلا الى معونة الله وتأييده بنصره و بالمؤمنين الذين ألف الإيمان بين قلوبهم .

وتؤكد الآية هذه الطمأنينة فتنادي النبي مطمئنة له ثانيا بان الله كافيه (يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) .

كـانـت الـدعـوة إلى الطمأنينة إلى نصر الله عند ذكر جنوح الأعداء الى السلم وأنهم ربمـا أرادوا بـذلـك خـدعـة . وهـذه الـدعـوة إلـى الطمأنينة في مثل هذه الحال تفيد معنى كـريمـاً أن المـؤمـن يـقـدم عـلـى مـعـانـي النـجدة والمروءة غير هياب ولا وجل مطمئناً إلى نصر الله واثـقـاً بـعـونه كل ذلك يتم حين يبدو من العدو انكسار وحين يظهر بمظهر الخاضع المـسـتسلم وإن كان يضمر الغدر و ير يد الشر فيظهر أمره وتبدو خيانته و ينبذ اليه عهده ، أمـا فـي الحـال التي يرفع فيها الكفر عقيرته و يبدي من ناجذيه فليس له إلا السيف وهنا تعود الآيات إلى الحض على القتال .

« يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال »

والـتـحـر يـض هـنـا يقترن بحكم يتصل بالحكم الذي كان في مطلع السورة وهو النهي عن الـفـرار فـي سـاعة الزحف والحكم هنا يفصل الاجمال هناك فعدم الفرار في ساعة الزحف مـقـيد بمقابلة عدد من المسلمين الصابر ين لعدد من المشركين يعدل عشرة أضعافهم ولكن شـرط الـصبر مـفـقـود عـلـى الغالب فكان الحكم مقابلة المسلمين لمثليهم من المشركين هو المشروع .

يتصل بالموضوع كله قاعدة في القتال هامة : لقد كان من هدي الآيات السابقة أن يقبل المسلمون من المشركين ميلهم إلى المهادنة وجنوحهم الى المسالمة وذلك يدل على أن شوكتهم قد خضدت وعزتهم قد كسرت فاذا كان هذا حكم الله في مثل هذه الحال فما الحكم حين يكون المشركون في عزة ومنعة وقوة . الحكم في مثل هذه الحال الا يجدوا لذى المسلمين هوادة في أمرهم فلا يقبلون فداء من أسراهم بل تضرب أعناقهم .

« ما كان لنبي ان يكون له اسرى حتى يثخن في الأرض »

والاثخان في الأرض المبالغة في القتل حتى يذل الكفر و يقل حزبه و يعز الاسلام و يستولي أهله .

وجه العتاب الى الرسول عليه الصلاة والسلام وذكرت القاعدة التي يجب أن تتبع واقترن العتاب بالعفو وجاء الحكم بأن ما أخذ من الأسرى حلال طيب مندرج في الآية التي أباحت الغنائم للمسلمين .

ولا يفوت الآيات الكريمة في مثل هذه الحال تطييب قلوب بعض الأسرى ورواية ابن اسحاق تجعل الآية الكريمة فى العباس عم رسول الله عليه صلوات الله وسلامه اذ قال يارسول الله قد كنت مسلما فقال عليه الصلاةوالسلام :الله أعلم باسلامك فان يكن كما تقول فإن الله يجزيك .

قال تعالى « يا أيها النبي قل لمن في ايديكم من الأسرى ان يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما اخذ منكم و يغفر لكم »

قال تعالى « وان يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم » والذى يؤخذ من الآيات الكريمة انه كان في الأسرى من هو مؤمن كالعباس وكان فيهم قوم تكلموا بالاسلام ولم يمضوا فيه عزيمة ولا اعترفوا به اعترافا جازما . قال ابن العربي « و يشبه انهم ارادوا أن يقربوا من المسلمين ولا يبعدوا من المشركين وقد بين الله الحقيقة لرسوله فقال « وان يريدوا خيانتك » .

سارت السورة الكريمة أشواطا في دعوة المؤمنين الى الثبات في ميادين القتال وتحريضهم على ملاقاة الأعداء بقلوب غير هيابة وحطت الرحال عند آيات تبين موالاة

المؤمنين بعضهم لبعض فالمهاجرون والأنصار بعضهم أولياء بعض اما الذين آمنوا ولم يهاجروا فليس على المؤمنين من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا . ولقد كان يدعو عليه الصلاة والسلام الذين يدخلون في الاسلام من القبائل ان يتحولوا من دارهم الى دار المهاجرين فان فعلوا ذلك كان لهم ما للمهاجرين وعليهم ما عليهم وان ابوا واختاروا دارهم كانوا كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ولا يكون لهم في الفيء والغنيمة نصيب الا ان يجاهدوا مع المسلمين .

فالآية دعوة للمسلمين الى الهجرة ليكثر سواد المسلمين و يظهر اجتماعهم واعانة بعضهم لبعض ولم يزل طلب الهجرة مطلوباً إلى أن انتهت بفتح مكة لقوله صلى الله عليه وسلم لا هجرة بعد فتح مكة .

واعادت الآيات الكريمة ذكر الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا فهؤلاء في الآية الأولى بعضهم أولياء بعض وفي الآية التي تليها (اولئك هم المؤمنون حقا)

و يتبع هؤلاء في فصلهم الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا من بعد .

وهكذا ختمت السورة الكريمة بذكر الهجرة والموالاة بين المهاجرين والأنصار وموالاة المسلمين بعضهم لبعض .

وذيلت آخر آية بذكر أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم .

وخلاصة ما سبق كله أن الموقعة ذكرت فى السورة مرتين مهد للمرة الأولى بعتاب المؤمنين في موضوعين اولها الأنفال ، وثانيها تردد من بعض المؤمنين في القتال ، ثم ذكر المؤمنين بالمنن التي تمت في المعركة ثم كان نتيجة ذلك كله خمس نداءات تطلب الثبات في مواطن القتال وتؤكده وذُكّر المؤمنون بعد ذلك بحال المشركين من قبل ثم ذكر الغرض من الابتلاء في الدنيا والغاية من قتال المشركين كف الفتنة ودفع الأذى .

وعرضت الآيات الكريمة للغنيمة ثانية وأن خمسها لله ولرسوله وكان الأمر بتقديم خمس الغنيمة تمهيداً لذكر الموقعة ثانية ولنداء يعقب ذكر الموقعة شبيه بالنداءات الأولى وكان

ذكر المشركين ثانية وذكر من صفاتهم الخروج بطراً وتز يين الشيطان لهم أعمالهم وأن شأنهم كشأن آل فرعون وان عاقبتهم الى العذاب وذكر من صفاتهم نقض العهد ووضع للمؤمنين عدة قواعد حر بية .

١ ــ متى ينبذ المؤمنون عهود المشركين ، وامروا هنا امرا جازما باعداد العدة .
٢ ــ متى يجنح المسلمون للسلم وكيف ؟
٣ ــ تفصيل قاعدة الثبات وعدم الفرار .
٤ ــ ارهاب العدو والاثخان في الأرض .
وختمت السورة الكريمة بموالاة المؤمنين بعضهم لبعض .

موضع السورة من كتاب الله

قال الألوسي (١) :
« والظاهر أن وضعها هنا (يعني وضع سورة الأنفال في مكانها من المصحف) توفيقي وكذا وضع براءة بعدها وهما من هذه الحيثية كسائر السور والى ذلك ذهب غير واحد .

وذكر الجلال السيوطي ان ذكر هذه السورة هنا ليس بتوقيف من الرسول صلى الله عليه وسلم للصحابة رضي الله تعالى عنهم ، كما هو المرجّح في سائر السور بل باجتهاد من عثمان رضي الله تعالى عنه ، وقد كان يظهر في رأي السيوطي باديء الرأى ان المناسب ايلاء الأعراف بيونس وهود لاشتراك كل في اشتمالها على قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأنها مكية النزول خصوصا أن الحديث ورد في فصل السبع الطوال وعدوا السابعة يونس وكانت تسمى بذلك كما أخرجه البيهقي في الدلائل ففي فصلها من الأعراف بسورتين فصل للنظير من سائر نظائره هذا مع قصر سورة الأنفال بالنسبة الى الأعراف و براءة »

وهكذا تورط السيوطي ووقع في هذا الذي وقع فيه كله كون السورة ليست بتوقيف من رسول الله عليه صلوات الله وسلامه وانتقاده لوضعها في مكانها ، ثم يعود فيبين بان وضعها وان كان في الظاهر في غير مكانها ولكنه الصواب ، و بيانه مما فتح الله به عليه

تورط في كل هذا بسبب الحديث التالي :

يقول السيوطي وقد استشكل ذلك قديما حبر الأمة رضي الله عنه و يروى السيوطي حديثا عن ابن عباس اخرجه الترمذى واخرجه ابن حنبل في المسند عن ابن عباس قال قلت لعثمان : ما حملكم على ان عمدتم الى الأنفال وهي من المثاني والى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ، ولم تكتبوا سطر البسملة ، ووضعتموها في السبع الطوال ما حملكم على هذا ؟ فقال عثمان : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد ، وكان اذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب فيقول ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا واذا نزلت عليه الآية يقول : ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا .

وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة ، وكانت(براءة) من آخر القرآن نزولا ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها وظننت أنها منها وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا انها منها أو من غيرها ومن اجل ذلك قرنت بينهما ولم اكتب البسملة ووضعتها في السبع الطوال . اخرجه ابو داود والترمذي وقال حديث حسن ورواه الامام احمد والنسائي وابن حبان في صحيحه والحاكم وصححه .

و يقول الأستاذ احمد محمد شاكر في تعليقه على هذا الحديث في مسند احمد : (١) « في اسناد هذا الحديث نظر كثير بل هو عندى ضعيف جدا ، بل هو حديث لا اصل له يدور اسناده في كل الروايات على « يز يد الفارسي » الذي رواه عن ابن عباس ، تفرد به عنه عوف ابن ابي جميلة الأعرابي ، وهو ثقة ، فقد رواه ابو داود (٢) والترمذي (٣) وقال : هذا حديث حسن لا نعرفه الا من حديث عوف عن يز يد الفارسي عن ابن عباس ، رواه ايضا ابن ابي داود في كتاب المصاحف (٤) بثلاثة اسانيد والحاكم في المستدرك (٥) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ، ورواه البيهقي في السنن الكبرى (٦) كلهم من طر يق عوف عن يز يد الفارسي .

و يز يد الفارسي هذا اختلف فيه أهو يز يد بن هرمز ام غيره قال البخاري في

---

(١) ١ / ٣٩٩ (٢) ١ : ٢٨٧ — ٢٨٨ (٣) ٤ — ١١٣ (٤) ٣١ — ٣٢ (٥) ٢ — ٢٢١ ، ٣٣٠
(٦) ٢ : ٤٢

التاريخ الكبير([1]) قال لي علي: «قال عبد الرحمن يزيد الفارسي هو ابن هرمز قال فذكرته ليحيى فلم يعرفه قال وكان يكون مع الأمراء»

وفي تهذيب التهذيب([2]): «قال ابن ابي حاتم: اختلفوا هل هو ـ يعني ابن هرمز ـ يزيد الفارسي أو غيره فقال ابن مهدى وأحمد هو ابن هرمز وأنكر يحيى ابن سعيد القطان أن يكونا واحداً وسمعت أبي يقول: يزيد ابن هرمز هذا ليس بيزيد الفارسي هو سواه»

يقول احمد محمد شاكر عليه رحمة الله «فهذا يّزيد الفارسي الذى انفرد برواية هذا الحديث يكاد يكون مجهولا حتى شبّه على مثل ابن مهدى واحمد والبخاري أن يكون هو ابن هرمز أو غيره و يذكره البخاري في الضعفاء.

يقول احمد محمد شاكر فلا يقبل منه مثل هذا الحديث ينفرد به وفي الحديث تشكيك في معرفة سور القرآن، والثابتة بالتواتر القطعي قراءة وسماعا وكتابة في المصاحف وفيه تشكيك في إثبات البسملة في أوائل السور، كأن عثمان كان يثبتها برأيه و ينفيها برأيه وحاشاه من ذلك.

فلا علينا اذا قلنا انه حديث (لا اصل له) تطبيقا للقواعد الصحيحة التي لا خلاف فيها بين ائمة الحديث:

قال السيوطي في تدريب الراوي في الكلام على امارات الحديث الموضوع «ان يكون منافيا لدلالة الكتاب القطعية، او السنة المتواترة او الاجماع القطعي»

وقال الحافظ بن حجر في النخبة: «ومنها ما يؤخذ من حال المروى كأن يكون مناقضا لنص القرآن او السنة المتواترة او الاجماع القطعي»

وقال الخطيب([3]) «ولا يقبل خبر الواحد في منافاة حكم العقل، وحكم القرآن الثابت المحكم والسنة المعلومة، والفعل الجاري مجرى السنة، وكل دليل مقطوع به.

يقول احمد محمد شاكر: وكثيرا ما يضعف ائمة الحديث راويا لانفراده برواية حديث منكر يخالف المعلوم من الدين بالضرورة أو يخالف المشهور من الروايات فأولى ان نضعف يزيد بن فارس هذا بروايته هذا الحديث منفردا الى ان البخاري ذكره في الضعفاء،

(١) ٢/ ٤/ ٣٦٧ (٢) ١١: ٣٦٩ (٣) فى الكفاية ٤٣٢

و ينقل عن يحيى القطان أنه كان يكون مع الأمراء ا . هـ

و يؤيد ما ذهب اليه الأستاذ احمد محمد شاكر عليه رحمة الله ما ذكره ابن حجر في التهذيب قال : يزيد بن هرمز قيل إنه يزيد الفارسي والصحيح أنه غيره .

و يقول في التقريب يزيد بن هرمز المدني مولى بني ليث وهو غير زيد الفارسي على الصحيح وهو والد عبد الله ثقة من الثالثة .

و يترجم ابن حجر ليزيد الفارسي البصري في التقريب أيضا و يقول عنه مقبول من الرابعة . (د ــ ت ــ س)

و يقول ابن حجر في تهذيب التهذيب :

يزيد الفارسي البصري روى عن ابن عباس وحكى عن عبيد الله بن زياد والحجاج ابن يوسف في أمر المصاحف وعنه مالك بن دينار وعبد الله بن فيروز وعون بن ربيعة الثقفي وعوف الأعرابي .

قال بعضهم إنه هو يزيد بن هرمز والصحيح أنه غيره قال علي بن المديني ذكرت ليحيى بن سعيد قول بن مهدى ابن يزيد الفارسي هو ابن هرمز فلم يعرفه وقال كان يقول عن الامرء قال ابن حجر وقال أبو هلال ثنا مالك بن دينار عن يزيد الفارسي كاتب عبيد الله بن زياد .

وقال ابو حاتم لا بأس به . وعبارة ابي حاتم في كتاب الجرح والتعديل هي ما يلي : وكذلك صاحب ابن عباس (و يعني به يزيد الفارسي لا بأس به)

و ينقل الأستاذ أحمد شاكر ما ذكره السيد محمد رشيد رضا في تفسيره موجزا ونحن نجد من الفائدة ان ننقل كل ما نستطيع نقله عن هذا الحديث . قال السيد رشيد رضا في تفسيره [1] : ولأجل هذه الرواية (يعني الحديث الذي سبق ذكر ما ذهب البيهقي إلى أن ترتيب جميع السور توقيفي عن النبي صلى الله عليه وسلم الا الأنفال و براءة و وافقه السيوطي)

---

(١) : ٩ ص ٥٨٥

و يرد السيد رشيد رضا هذا القول بأنه لا يعقل أن يرتب النبي صلى الله عليه وسلم جميع السور إلا الأنفال و براءة .

وقد صح عنه أنه صلى الله عليه وسلم كان يتلو القرآن كله في رمضان على جبر يل عليه السلام مرة واحدة من كل عام فلما كان العام الذى توفي فيه عارضه بالقرآن مرتين فأين كان يضع هاتين السورتين في قرآته ؟

يقول « وهذا الحديث قال الترمذي حسن لا نعرفه الا من حديث عوف عن يز يد الفارسي عن ابن عباس و يز يد الفارسي هذا غير مشهور اختلفوا فيه هل هو يزيد بن هرمز أو غيره والصحيح انه غيره روى عن ابن عباس وحكي عن عبيد الله بن ز ياد وكان كاتبه وعن الحجاج بن يوسف في أمر المصاحف وسئل عنه يحيى بن معين فلم يعرفه (١) وقال أبو حاتم لا بأس به . ا . هـ ملخصا من تهذيب التهذيب .

يقول السيد رشيد رضا فمثل هذا الرجل لا يصح أن تكون روايته التي انفرد بها مما يؤخذ به في ترتيب القرآن المتواتر .

و يقول الأستاذ محمد علي سلامة رحمه الله من افاضل علماء الأزهر في كتابه (٢) : « ان هذا الحديث غير صحيح لأن الترمذي الذي هو أحد من خرجه قال فيه انه حسن غر يب لا نعرفه إلا من حديث يز يد الفارسي عن ابن عباس و يز يد هذا مجهول الحال فلا يصح الاعتماد على حديث الذي انفرد به في ترتيب القرآن .

يقول الشيخ احمد محمد شاكر بعد ان نقل عن السيد رشيد رضا ما سبق : وهذا يكاد يوافق ما ذهبنا اليه فلا عبرة بعد هذا كله في هذا الموضوع بتحسين الترمذي ولا بتصحيح الحاكم ولا بموافقة الذهبي وإنما العبرة للحجة والدليل ، والحمد لله على التوفيق .

و بعد هذا البحث الذى لا ندعي له الكمال والاستيفاء نر يد أن نخلص الى ان الذي نؤمن به من غير ريب أن الذي بين دفتي المصحف كتاب الله جل شأنه أنزله على

(١) : الذى جاء في تهذيب التهذيب انه لا يعرفه هو يحيى بن سعيد القطان كما نقلنا وليس يحيى بن معين و يبدو ان السيد رشيد قد سهل في هذا .

(٢) : منهج الفرقان في علوم القرآن ص ١٣٦

نبيه لا مدخل للبشر في صفة من أوصافه ولا في حرف من حروفه ولا مجال للاجتهاد في ترتيب آياته ولا في ترتيب سوره بحيث أثبتت البسملة فانما أثبتت بأمر الله وحيث حذفت فانما وقع ذلك بأمر الله . وإنما الريب في مثل الرواية التي سبق ذكرها التي تحيط بها الشكوك وتحفها الأوهام ومن عجب أن ينطلي آخر مثل هذه الرواية على بعض العلماء كما مر لدى البيهقي والسيوطي ولعلهما أخذا بتحسين من حسنها وتصحيح من صححها والعصمة من الخطأ لله وحده . والذي حسنها هو الترمذي ولكنه يشير الى ضعفها بقوله ، لا نعرفه الا من حديث يزيد الفارسي . والذى صححها هو الحاكم والذهبي .

والبحث نموذج حسن لما للأحاديث الضعيفة والواهية من أثر سيء في اسس الدين ومعانيه .

قال تعالى : « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول »
بدأت السورة الكريمة بقوله تعالى يسألونك وجاء ما بعدها جوابا عن السؤال الذي توجه به الأصحاب رضوانه الله عليهم الى النبي صلى الله عليه وسلم بشأن الأنفال .

والأسئلة التي وجهت الى الرسول عليه صلوات الله وسلامه في القرآن مختلفة الأساليب حدد في بعضها المسئول عنه وحددت جهة السؤال ولم يحدد شيء من ذلك في بعضها الآخر فالسؤال عن الشهر الحرام قتال فيه حدد فيه المسئول عنه و بينت وجهته اما قوله تعالى يسألونك عن الخمر ، يسألونك عن اليتامى ، يسألونك عن المحيض فالمسئول عنه في كل هذه الأسئلة غير محدد ولكن الجواب يحدده و يبينه من هذا النوع السؤال الذي نحن بصدده « يسألونك عن الأنفال » اذ يحتمل أن يكون سؤالا عن الأنفال من جهة حل أكلها وجواز الانتفاع بها ويحتمل أن يكون سؤالا عن كيفية قسمتها ومن ترجع اليه قسمتها ، ولكن الجواب الذي أتى من بعد يدل على المقصود و يوضح ان السؤال عنها من الجهة الثانية لا من الجهة الأولى وذلك لأن الجواب بكونها لله والرسول لا يدل على حلها ولا على حرمتها ولا يستفاد منه الحكم عليها بشيء من ذلك فلا يصلح أن يكون هذا القول جوابا لسؤال ما هو حكمها .

ثم ان قوله تعالى بعد ما سبق « فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم واطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين » يشعر بانه قد وقع منهم ما احتاجوا معه الى التنبيه إلى اصلاح ذات

بينهم والى تذكيرهم بتقوى الله وطاعته . وليس من شك في أن السؤال عن حل الأنفال أو حرمتها ليس مما ينافي التقوى ولا يؤدي السؤال عن ذلك الى الخروج من صلاح ذات البين أو الخروج من طاعة الله ورسوله بل لعله على عكس ذلك يؤكد التقوى وجمع الكلمة والحرص على الطاعة .

فالأمر بالتقوى واصلاح ذات البين واطاعة الله ورسوله لا يصلح ان يقع جوابا عن سؤال الحل والحرمة .

و يؤيد ما ذهبنا اليه الروايات التي تشير الى الاختلاف الذى وقع بين المسلمين في غنائم بدر.

قال تعالى : « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول»
قال ابو جعفر محمد بن جرير الطبري : اختلف أهل التأويل في معنى الأنفال التي ذكرها الله في هذا الموضوع فقال بعضهم : هي الغنائم ، وقالوا معنى الكلام : يسألك أصحابك يا محمد عن الغنائم التي غنمتها انت واصحابك يوم بدر، لمن هي ؟ فقل هي لله ورسوله . و يسرد ابن جرير الطبري أسانيده الى عكرمة ومجاهد والضحاك وابن عباس وقتادة وعطاء بأن الأنفال هي الغنائم .

يقول الطبري :
وقال آخرون هي أنفال السرايا و يذكر سندا بذلك عن صالح بن حي انه قال بلغني أن الأنفال هي السرايا ثم يقول : وقال آخرون : ما شذ من المشركين الى المسلمين من عبد أو دابة وما أشبه ذلك و يروى هذا المعنى باسناد . وقال آخرون : النفل الخمس الذى جعله الله لأهل الخمس و يروى هذا القول باسناده الى مجاهد .

ثم يقول الطبري :
وأولى هذه الأقوال بالصواب في معنى الأنفال قول من قال : هي زيادات يزيدها الامام بعض الجيش أو جميعهم إما من سهمه على حقوقهم من القسمة واما مما وصل اليه بالنفل او ببعض أسبابه ، ترغيبا له وتحريضا لمن معه من جيشه على ما فيه صلاحهم وصلاح المسلمين ، أو صلاح أحد الفريقين وقد يدخل في ذلك ما قال ابن عباس من انه

الفرس والدرع ونحو ذلك و يدخل فيه ما قاله عطاء من ان ذلك ما عاد من المشركين الى المسلمين من عبد او فرس لأن ذلك امره الى الامام اذا لم يكن ما وصلوا اليه بغلبة وقهر، يفعل ما فيه اصلاح اهل الإسلام وقد يدخل فيه ما غلب عليه الجيش بقهر.

وانما قلنا اولى الأقوال بالصواب لأن النفل في كلام العرب انما هو الزيادة على الشيء يقال عنه نفلك كذا وانفلتك اذا زدتك. والأنفال جمع نفل ومنه قول لبيد ربيعة

ان تقوى ربنا خير نفل و باذن الله ريثي وعجل

الى أن يقول.

الغنيمة هي ما أفاء الله على المسلمين من أموال المشركين بغلبة وقهر نفل منه منفل أو لم ينفل.

والنفل هو ما أعطيه المرء على البلاء والغناء عن الجيش على غيرقسمة

و ينقل ابن كثير الأقوال التي ذكرها ابن جرير:

قول ابن كثيرفي النفل: —

١ ــ فيقول: الأنفال: المغانم أو الغنائم.

٢ ــ يذكر اسنادا و يقول: هذا إسناد صحيح إلى ابن عباس أنه فسر النفل بما ينفله الامام لبعض الأشخاص من سلب أو نحوه بعد قسم أصل المغنم وهو المتبادر الى فهم كثير من الفقهاء من لفظ النفل.

٣ ــ القول الثالث يرويه ابن كثيرعن مجاهد انهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخمس بعد الأربعة من الأخماس فنزلت يسألونك عن الأنفال.

٤ ــ القول الرابع عن عطاء بن أبي رباح(يسألونك عن الأنفال) قال يسألونك فيما شذ من المشركين إلى المسلمين من غيرقتال من دابة او عبد او أمة أو متاع فهونفل للنبي صلى الله عليه وسلم يصنع به مايشاء.

وهذا يقتضي أنه فسر الأنفال بالفيء وهوما أخذ من الكفار من غيرقتال.

٥ ــ وقال آخرون هي انفال السرايا عن علي بن صالح بن حيي قال بلغني في قوله تعالى«يسألونك عن الأنفال» قال السرايا ومعنى هذا ما ينفله الامام لبعض السرايا زيادة على قسمهم مع بقية الجيش.

قول ابي عبيد في الأنفال : ـ

و يقول ابن كثير: قال أبوعبيد : والأنفال أصلها جماع الغنائم إلا ان الخمس منها مخصوص لأهله على ما نزل به الكتاب وجرت به السنة ومعنى الأنفال في كلام العرب كل احسان فعله فاعل تفضيلا من غير أن يجب ذلك عليه فذلك النفل الذى أحله الله للمؤمنين من أموال عدوهم وإنما هو شيء خصهم الله به تطولاً منه عليهم بعد أن كانت المغانم محرمة على الأمم قبلهم فنفلها الله تعالى هذه الأمة فهذا أصل النفل .

يقول ابن كثير: قلت شاهد هذا ما في الصحيحين عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أعطيت خمسا لم يعطهن احد قبلي الحديث الى ان يقول : وأحلت لي الغنائم ولم يحل لأحد قبلي » .

ثم قال ابوعبيد : ولهذا سمي ما جعل الامام للمقاتلة نفلا وهو تفضيله بعض الجيش على بعض بشيء سوى سهامهم يفعل ذلك بهم على قدر الغناء عن الاسلام والنكاية في العدو . (١) .

قول الراغب

وقال الراغب : النفل هو الغنيمة بعينها لكن اختلفت العبادة عنه لاختلاف الاعتبار فإنه اذا اعتبر بكونه مظفورا به يقال غنيمة ، واذا اعتبر بكونه منحة من الله ابتداء من غير وجوب يقال له نفل ، ومنهم من فرق بينهما من حيث العموم والخصوص فقال الغنيمة كل ما حصل مستغنما بتعب كان او بغير تعب و باستحقاق او بغير استحقاق وقبل الظفر كان او بعده والنفل ما يحصل للانسان قبل القسمة من جملة الغنيمة ، وقيل هو ما يحصل للمسلمين بغير قتال وهو الفيء، وقيل ما يحصل من المتاع قبل ان تقسم الغنائم . وعلى هذا حملوا قوله(يسألونك عن الأنفال) .

---

(١) جاء في الأعلام : القاسم بن سلام المروى الأزدي الخزاعي ابوعبيد (١٥٧ ـ ٢٢٤) هـ من كبار العلماء بالحديث والأدب والفقه ، من أهل هراة ولد وتعلم بها ، وكان مؤدبا ورحل الي بغداد ، فولي القضاء بطرسوس ثماني عشرة سنة ـ ٠٠٠ وحج فتوفي بمكة .

خلاصة الأقوال

من كل ما سبق يتلخص أن العلماء ذهبوا في معنى الأنفال التي وردت في هذه السورة مذاهب شتى يمكن ردها إلى أقوال ثلاثة :

القول الأول:الأنفال الغنائم وقد روي هذا عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وطائفة من الصحابة وهو قول جمهور العلماء ، قال البخاري في صحيحه قال ابن عباس الأنفال المغانم و يؤيده ما ورد في سبب نزول الآية من اختلاف الصحابة رضوان الله عليهم في غنائم بدر و يؤيد هذا اللغة كما ذكر الراغب أن النفل هو الغنيمة بعينها .

والقول الثاني:هو الذي اختاره ابن جرير زيادة يزيدها الامام لفرد من أفراد الجيش أو لفرقة من الجيش لحسن بلائهم ولعظم غنائهم وهذه الزيادة إضافة الى نصيب كل من الغنيمة العامة ، وهذه الزيادة أهي من الخمس الذى لرسول الله عليه صلوات الله أم هي من اصل الغنيمة قبل أن تخمس ام بعدها في كل هذا اختلاف العلماء سنعرض لهذه المباحث فيما يلي ان شاء الله .

و يدخل في هذا النوع ما يسموه بأنفال السرايا وهي ما ذكرها ابن كثير في القسم الخامس في تقسيمه .

و يؤيد هذا القول ، كما ذكر ابن كثير ، رواية سعد رضي الله عنه وسيأتي ذكرها .

القول الثالث : المراد بالأنفال في الآية الكريمة ما شذ من المشركين الى المسلمين من غير قتال وهذا هو الفيء كما ذكر ابن كثير . و يبدو أن هذا القول بعيد لأن حكم الفيء مخالف لحكم الغنيمة ومدار الحديث ههنا على الغنائم وتوزيعها أما حكم الفيء فقد جاء في سورة الحشر في قوله تعالى « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب » .

قال الأستاذ الشنقيطي[1] اكثر العلماء فرقوا بين الفيء والغنيمة فقالوا الفيء ما يسره الله للمسلمين من أموال الكفار من غير انتزاعه منهم بالقهر كفيء بني النضير الذين نزلوا

---

[1] : في اضواء البيان(جـ ٢ صـ ٣٥٢) .

علـى حكم النبي صلى الله عليه وسلم لشدة الرعب الذى ألقاه الله في قلوبهم ورضي لهم صلى الله عليه وسلم أن يرتحلوا بما يحملون على الابل غير السلاح .

وأما الغنيمة فهي ما انتزعه المسلمون من الكفار بالغلبة والقهر.

وهـذا الـتـفـر يـق يـفـهـم من قوله « واعلموا انما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولـذى الـقـر بـى والـيتامى والمساكين وابن السبيل »مع قوله فما اوجفتم عليه من خيل ولا ركـاب فإن قوله تعالى « فما اوجفتم عليه » الآية ظاهر في أنه يراد به الفرق بين ما أوجفوا عليه وما لم يوجفوا عليه . . .

وآيـة(واعلموا انما غنمتم) ذكر فيها حكم الغنيمة وآية(وما أفاء الله على رسوله) ذكر فيها حكم الفيء واشير لوجه الفرق بين المسألتين بقوله :

« فـمـا اوجـفتم عليه من خيل ولا ركاب » اى فكيف يكون غنيمة لكم وأنتم لم تتعبوا فيه ولم تنتزعوه بالقوة من مالكيه » .

يقول الاستاذ الشنقيطي : و بعض العلماء يسوى بين الغنيمة والفيء و يعزو هذا القول إلـى قـتادة ، و يقع قتادة رحمه الله بناء على تسو يته هذه في إشكال الجمع بين الآيتين آية الأنفال وآية الحشر فلا يجد مخلصا مما وقع فيه الا قوله إن آية الأنفال ناسخة لآية (وما أفاء الله على رسوله) .

يـقـول الـشـيـخ الـشـنـقـيـطـي وهـذا الـقـول الـذي ذهـب إلـيـه رحـمـه الله بـاطل بلا شك ... ا.هـ

مـمـا سبـق يـبـدو جـلياً استبعاد كون الأنفال ههنا بمعنى الفيء و يؤ يد ذلك كون آية الـفـيء نزلت بعد وقعة بدر بشأن غنائم حصل عليها المسلمون بلا قتال وليس موضوع الفيء وارداً هـهـنـا بحال ولذلك لا نجد شيئا من الروايات التى تتعلق بسبب نزول الآية الكريمة يذكر هذا المعنى .

وعلى هذا فالمراد بالأنفال دائر بين أمرين إما الغنائم مطلقا وإما الزيادات التي تعطى لمن لهم غناء كبير وبلاء حسن في الموقعة والأمران وإن بدا انهما موضوعان ولكن الواقع انهما متداخلان يؤثر كل منهما في الآخر فالزيادة هي في الأصل جزء من الغنيمة فإذا عظم مقدارها صغر نصيب كل فرد مما بقي منها إلا أن تكون الزيادة من الخمس وهو رأى مرجوح في نظرها .

روى مسلم في صحيحه في كتاب الجهاد والسير باب الأنفال قال :

١ ـ حدثنا قتيبة بن سعيد (١) حدثنا أبو عوانة (٢) عن سماك عن مصعب (٣) ابن سعد عن أبيه قال أخذ أبي من الخمس سيفا فأتى به النبي صلى الله عليه وسلم فقال هب لي هذا فأبى فأنزل الله عز وجل « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول » .

٢ ـ حدثنا محمد بن المثنى وابن بشار (واللفظ لابن المثنى) قالا حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن سماك بن حرب عن مصعب بن سعد عن ابيه قال : نزلت فيّ اربع آيات (٤) أصبت سيفا فأتى به النبي صلى الله عليه وسلم « ضعه من حيث أخذته » ثم قام فقال : نفلنيه يا رسول الله فقال ضعه فقام فقال يا رسول الله نفلنيه أأجعل كمن لا غناء له فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « ضعه من حيث أخذته » قال فنزلت هذه الآية (يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول) .

٣ ـ حدثنا أبو بكر بن ابي شيبة وزهير بن حرب ، قالا : حدثنا الحسن بن موسى ، حدثنا زهير حدثنا سماك بن حرب حدثني مصعب بن سعد عن أبيه أنه نزلت فيه آيات من القرآن قال : حلفت أمُّ سعد أن لا تكلمه أبداً حتى يكفر بدينه ولا تأكل ولا تشرب قالت : زعمت أن الله وصّاك بوالديك وأنا أمك وأنا آمرك بهذا .

قال : مكثت ثلاثا حتى غشي عليها من الجهد فقام ابن لها يقال له عمارة فسقاها

(١) : ثقة ثبت من العاشرة

(٢) : ثقة ثبت من السابعة

(٣) : كوفي صدوق وروايته عن عكرمة خاصة مضطربة وقد تغير بأخرة فكان يلقن (من الرابع)

(٤) : قال الشارح : لم يذكر هنا من الأربع الا هذه الواحدة . وقد ذكر مسلم الأربع بعد هذا في كتاب الفضائل وهي : بر الوالدين ، وتحريم الخمر ، ولا تطرد الذين يدعون ربهم ، وآية الأنفال .

فجعلت تدعو على سعد فأنزل الله عز وجل في القرآن هذه الآية : ووصينا الانسان بوالديه حسنا وإن جاهدك على أن تشرك بي (٣١ لقمان ١٥) وفيها : وصاحبهما في الدنيا معروفا .

قال : وأصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم غنيمة عظيمة فاذا فيها سيف فأخذته فأتيت به الرسول عليه الصلاة والسلام فقلت : نفلني هذا السيف فأنا من قد علمت حاله فقال « رده من حيث أخذته » فانطلقت حتى إذا أردت أن ألقيه في القبض لامتني نفسي فرجعت اليه فقلت : أعطنيه قال : فأنزل الله عز وجل : يسألونك عن الأنفال ... الحديث (١)

والحديث قد رواه الترمذي قال (ج ٨ ص ٤٦٦) :

حدثنا أبو كريب (٢) ، أخبرنا أبوبكر بن عياش (٣) (مات سنة ١٩٤ وقد قارب المائة) عن عاصم بن بهدلة (٤) عن مصعب بن سعد (٥) عن أبيه قال : « لما كان يوم بدر جئت بسيف فقلت يا رسول الله ان الله قد شفى صدري من المشركين أو نحو هذا هب لي هذا السيف ، فقال هذا ليس لي ولا لك فقلت عسى ان يعطى هذا من لا يبلي بلائي فجاءني الرسول فقال إنك سألتني وليس لي وانه قد صار لي وهو لك قال فنزلت يسألونك عن الأنفال .. الآية » .

وفي هذه الرواية عاصم بن بهدلة يروي عن مصعب بن سعد فهي رواية تقوي الرواية السابقة رواية سماك . والحديث رواه أيضا أبو داود في سننه عن أبي بكر عن عاصم عن مصعب بن سعد عن أبيه .

يقول ابن كثير: رواه ابو داود والترمذي والنسائي من طرق عن أبي بكر بن عياش

---

(١) : صحيح مسلم ج ٤ ص ١٨٧٧

(٢) : محمد بن العلاء بن كريب ابو كريب ثقة حافظ من العاشرة

(٣) : ثقة عابد الا انه لما كبر ساء حفظه وكتابه صحيح (من السابعة)

(٤) : عاصم بن بهدلة : قال عنه الحافظ بن حجر في التقريب : عاصم بن بهدلة الكوفي من السادسة صدوق له أوهام ، حجة في القراءة وحديثه في الصحيحين مقرون (ع)

(٥) : ابو زرارة المدني ثقة من الثالثة ارسل عن عكرمة ابن أبي جهل (ع)

به وقال الترمذي حسن صحيح وهكذا رواه ابو داود الطيالسي اخبرنا شعبة اخبرنا سماك بن حرب قال سمعت مصعب بن سعد يحدث عن سعد قال نزلت فيّ أربع آيات ... الحديث .

سبب آخر في نزول الآية :

يقول ابن كثير « سبب آخر في نزول الآية »

قال الامام احمد حدثنا محمد بن سلمة عن ابن اسحاق (١) عن عبد الرحمن (٢) عن سليمان بن موسى (٣) عن مكحول (٤) عن أبي أمامة قال سألت عبادة عن الأنفال فقال فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا فانتزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين عن بواء يقول عن سواء .

وقال الامام احمد أيضا حدثنا معاوية عن عمر (٥) واخبرنا أبو اسحاق (٦) عن عبد الرحمن بن الحارث بن عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة عن سليمان بن موسى عن أبي سلام عن أبي أمامة عن عبادة بن الصامت قال :

خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فشهدت معه بدراً فالتقى الناس فهزم الله تعالى العدو فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون و يقتلون وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه واحدقت طائفة برسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصيب العدو منه غرة حتى اذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض قال الذين جمعوا الغنائم نحن حويناها

---

(١) : محمد بن اسحاق : صدوق يدلس ، امام المغازى ورمي بالتشيع والقدر(مات سنة خمسين ومائة خت ٤ من صغار الخامسة)

(٢) : عبد الرحمن بن الحارث بن عبدالله بن عياش : ابو الحارث المدنى ، صدوق له اوهام من السابعة مات سنة ثلاث واربعين / بخ ٤

(٣) : سليمان بن موسى : الأموى الدمشقي الأشدق صدوق ، فقيه في حديثه بعض لين وخلط قبل موته بقليل من الخامسة / م ٤

(٤) : مكحول الشامي : ابو عبد الله ثقة فقيه كثير الارسال مشهور من الخامسة مات سنة بضع عشرة ومائة / م ٤

(٥) : ثقة من صغار التاسعة

(٦) : ابو اسحاق الفزارى ابراهيم بن محمد بن الحارث ثقة حافظ من الثامنة

فليس لأحد فيها نصيب ، وقال الذين خرجوا في طلب العدو لستم بأحق به منا نحن منعنا عنه العدو وهزمناهم وقال الذين أحدقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم خفنا ان يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به فنزلت (يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم) فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أغار في العدو نفل الربع فاذا أقبل راجعا نفل الثلث وكان يكره الأنفال وروى الترمذي وابن ماجة من حديث سفيان الثوري عن عبد الرحمن بن الحارث به نحوه قال الترمذي هذا حديث صحيح ، ورواه ابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه من حديث عبد الرحمن بن الحارث وقال الحاكم صحيح الاسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه .

وقال صاحب مجمع الزوائد رجال الطريقين ثقات هكذا قال صاحب مجمع الزوائد ولكنا نجد في كلا السندين رجلين وُصفا بالضعف أولهما سليمان بن موسى وقد قال عنه ابن حجر صدوق فقيه في حديثه بعض لين وخلط قبل موته بقليل .

والثاني عبد الرحمن بن الحارث بن عبد الله بن عياش وقد قال فيه ابن حجر صدوق له أوهام وهذا التعبير أول درجات الجرح وهو يجعل الحديث ضعيفا .

والذى لا يطمئن اليه القلب في الرواية الثانية ما جاء فيها : (قال الذين جمعوا الغنائم نحن حويناها فليس لأحد فيها نصيب) فكيف يمكن أن يقول بعض أصحاب رسول الله مثل هذا القول : الغنيمة لنا لايشركنا فيها مشارك وكيف يعقل أن يرى الذين جمعوا الغنائم أنهم أحق بالغنائم من الذين انطلقوا في أثر العدو يهزمون و يقتلون وكيف يرى أحد من هذين الفريقين بأنه أحق بالغنيمة من الذين أحدقوا برسول الله كيلا يصيب العدو منه غرة.الواقع أن المتأمل يرى في الرواية فجاجة في الرأي لا تنسب إلى اصحاب رسول الله ولكنها تنسب إلى أحد الرواة الذي أراد أن يروي بالمعنى فأخطأ وعرض القصة على مستواه الذهني .

يقول المفسر جمال الدين القاسمي وقع عند الزمخشري ان المسلمين اختلفوا في غنائم بدر، لمن الحكم فيها للمهاجرين أم للأنصار أم هم جميعا ؟ فأجيبوا بأن الحاكم فيها

الرسول ، وليس لأحد فيها حكم . وتأثر بالزمخشري أبو السعود ، في سوقه لما ذكر ، وزاد عليه اعتماده له ، بتطويل مملّ .

ولاأدرى من أين سرت لهم هذه الرواية . فإن رواة الآثار لم يخرجوها في صحاحهم ولا سننهم ، بل ولا أصحاب السير ،كابن اسحق وابن هشام . وهل يمكن للمسلمين ان يختلفوا للحكم على الغنائم ، و يتنازعوا ولايتها ، والرسول بين أظهرهم ؟ ومتى عهد ذلك من سيرتهم ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم . ولكن هو الرأي (قاتله الله) ونبذ كتب السنة ، والتقليد البحت ، الذي لا يهتم صاحبه بحقائق الأشياء ، ولا يريد معرفتها ، ولا فحصها بالعقل . يضع قدمه على القدم ، حيث يكون مطواعاً لآراء غيره ، منقادا لها ، مصدقا ما ينطق به فم غثّا كان أو سمينا . اللهم نوّر بصيرتنا بفضلك .

والقاسمي يبدأ تفسيره الآية الكريمة بالروايتين السابقتين ولا يعلق عليهما بشيء وقد جاء في الرواية قال الذين جمعوا الغنائم نحن حويناها وجمعناها فليس لأحد فيها نصيب . ومن عجب أن ينكر القاسمي على الزمخشري قوله إن المسلمين اختلفوا في غنائم بدر لمن الحكم فيها و يقول هل يمكن للمسلمين أن يختلفوا للحكم على الغنائم و يتنازعوا ولايتها والرسول بين أظهرهم ولا ينكر على ما جاء في الرواية السابقة شيئا ونحن نستبعد جدا هذا التصوير الذى صورته الرواية السابقة ونذهب كما ذكرنا إلى أن الراوي قد أخطأه التصوير الدقيق والوصف الصادق كما نلاحظ على الرواية التي ذكرها الحاكم الأمور التالية :

١ ــ اللفظ الذي ذكره الحاكم في المستدرك « كان الناس على ثلاث منازل ثلث يقاتل العدو وثلث يجمع المتاع و يأخذ الأسارى وثلث عند الخيمة يحرس رسول الله عليه الصلاة والسلام وهذه الصورة توهم أن رسول الله عليه صلوات الله وسلامه كان ملازما لخيمته والرجال محدقون به يخافون أن يصيب القوم منه غرة ولقد جاء في الروايات الصحيحة أنه عليه الصلاة والسلام كان يسوّي الصفوف بيده الشريفة ويحرض المسلمين على القتال و يقول لهم : قوموا إلى جنة عرضها السماوات والارض و يقول : والذي نفسي بيده لا يقاتلهم اليوم رجل مقبل غير مدبر إلا كانت له الجنة وعند البخاري فخرج وهو يقول سيهزم الجمع و يولون الدبر . يقول ابن حجر « وفي رواية أيوب عن عكرمة عن

ابن عباس قال عمر فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يثب في الدروع و يقول سيهزم الجمع » وقول علي رضي الله عنه « كنا اذا اشتد البأس واحمر الحدق اتقينا برسول الله عليه صلوات الله وسلامه فما يكون رجل اقرب إلى العدو منه » .

٢ ــ واللفظ الذي عند الحاكم في المستدرك :

« فأنتزعها الله من ايدينا فجعله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقسمه على السواء لم يكن فيه يومئذ خمس فكان فيه تقوى الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وصلاح ذات البين » وقوله لم يكن فيه يومئذ خمس يعارض ما جاء في مسلم يقول ابن كثير: وفيما تقدم من كلامه (كلام ابي عبيد الله القاسم بن سلام) وهو قوله ان غنائم بدر لم تخمس نظر و يرد عليه حديث علي بن أبي طالب في شارفيه اللذين حصلا له من الخمس يوم بدر.

٣ ــ وقوله : فقسمه على السواء فيه نظر أيضا ففي الرواية الثانية (عن فواق) ولها تفسيران ذكرهما ابن الأثير وصاحب لسان العرب قال في اللسان عن فواق أن قسمها في قدر فواق ناقة وهو قدر ما بين الحلبتين من الراحة تضم فاؤه وتفتح وقيل أراد التفضيل في القسمة كأنه جعل بعضهم أفوق من بعض على قدر غنائهم يومئذ .

الرواية الراجحة في نظرنا :

وللحاكم في مستدركه والنسائي وابن جر ير وابن مردو يه من طرق وأبي داود واسناد ابي داود (١) حدثنا وهب بن بقية قال انا خالد عن داود عن عكرمة عن ابن عباس واسناد الحاكم حدثنا ابو بكر احمد بن اسحاق ثنا ابو المثنى ثنا مسدد ثنا المعتمر بن سليمان قال سمعت داود بن أبي هند يحدث عن عكرمة عن ابن عباس قال : « لما كان يوم بدر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا فتسارع في ذلك شبان القوم و بقي الشيوخ تحت الرايات فلما كانت المغانم جاؤوا يطلبون الذي جعل لهم فقال الشيوخ لا تستأثروا علينا فانا كنا ردءاً لكم لو انكشفتم لفئتم الينا فتنازعوا فأنزل الله تعالى (يسألونك عن الأنفال إلى قوله واطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين) .

هذه الرواية ترجح على الرواية السابقة لنقاء سندها وخلو رجاله من كل مطعن فرجال أبي داود أولهم وهب بن بقية و يقول عنه ابن حجر ثقة من العاشرة وهو من رجال

(١) : جـ ٣ ص ١٠٢

مسلم وابي داود والنسائي ، مات سنة ٢٣٩ وثانيهم خالد وهو خالد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن يزيد الطحان الواسطي قال بشأنه عبد الله بن أحمد بن حنبل كان خالد الطحان ثقة وقال ابو حاتم ثقة صحيح الحديث (مات سنة اثنتين وثمانين ومائة وكان مولده سنة عشر ومائة) وهو من رجال الكتب الستة وداود ابن أبي هند القشيري البصري يقول عنه ابن حجر ثقة متقن (كان يهم بأخره من الخامسة مات سنة اربعين ومائة) وروى عنه البخاري تعليقا وروى عنه مسلم وأصحاب الكتب الأربعة وقد قال عبد الله بن احمد بن حنبل عن أبيه هو ثقة ثقة وسئل عنه مرة أخرى فقال مثل داود يسأل عنه وعكرمة ابن عبد الله مولى ابن عباس أصله بربري ثقة ثبت عالم بالتفسير (لم يثبت تكذيبه عن ابن عمر ولا يثبت عنه بدعة) روى له أصحاب الكتب الستة ورجال الحاكم مسدد بن فرهد ثقة حافظ روى له البخاري ومسلم وابو داود والنسائي والمعتمر بن سليمان ثقة روى له أصحاب الكتب الستة جميعا .

وهذا الحديث صحيح كما قال الحاكم وكما قال الذهبي وإسناده على شرط البخاري وإسناد ابي داود نقي خال من الشوائب أيضا وعلى هذا فالحديث على غاية من الصحة . ثم إن الصورة التي تعطيها هذه الرواية للخلاف الذي وقع بين الصحابة رضوان الله عليهم لا مطعن عليها إذ تذكر الرواية أن الرسول عليه صلوات الله دفع الشبان إلى الإقدام وقال من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا وعند الحاكم من فعل كذا وكذا أو أتى مكان كذا وكذا فله كذا وكذا وهذا دفع للشبان معقول مألوف يجدون فيه منطلقا لطاقتهم ومجالا للتعبير عن الحيوية التي تشتمل عليها أجسامهم الفتية القوية والأريحية التي تؤججها حماسة الشباب في نفوسهم .

بل إن إهمال الشبان في مثل هذه المواطن وعدم الاستفادة من قوتهم ورشاقتهم واستعدادهم للمغامرة يفوت غرضين أولهما فردي والثاني جماعي و يضيع فرصتين هامتين أولهما الانتفاع بما وهب الشباب مما يعود على غرض القتال نفسه ، فقد يكون سببا للنصر إقدام شاب كأن يقترب من جيش العدو و يكتشف ثغرة من الثغرات لديهم أو يقترب فينسف حصنا أو بارجة حربية ، وما تزال هذه الروح في الحروب الحديثة لها مكانتها وأثرها في إحراز النصر ، والثانية الدربة التي يكسبها هؤلاء في أعمالهم هذه وروح

المغامرة التي تنمو لديهم في سبيل نصرة جيشهم .

والمؤلم إيلاما شديدا أن هذه الروح في هذه الأيام قد انتقلت الى اعدائنا وضمرت ضمورا شديدا في أبناء المسلمين .

وهذا المعنى هو الذي أيقظه محمد عليه الصلاة والسلام في نفوس شبان الصحابة ، دفعهم صلوات الله وسلامه عليه الى المغامرة وإلى القيام بأعمال قد تكون سبيل الفوز والغلبة وليس من شك بأن مثل هذه الأعمال يجب أن تكافأ ، ولابد من أن يشعر الفدائي بانه قد حاز رضا القائد وإعجابه وكانت علامة الرضا ما منحهم القائد عليه صلوات الله من ز يادات ليست لأحد غيرهم ، إن الز يادة ههنا ليست ذات قيمة مادية فحسب ولكنها لها معنى أكبر من قيمتها المادية فالسيف الذي أخذه سعد بإذن رسول الله عليه صلوات الله ليس سيفاً فحسب ولكنه سيف له تاريخه وله ما يحيط به من معان .

إن الرواية تجمل ذكر الأفعال التي قام بها الشبان ولا تذكر تفصيلا لها ويمكن أن يقدر الذهن نوع تلك الأعمال وخطرها في فوز الجيش الإسلامي أُنها لم تكن أموراً اعتباطية ولا قيمة لها ولكنها كانت من وضع القائد الحكيم عليه صلوات الله واكتفى الرواة بأن يقولوا من فعل كذا وكذا أو أتى مكان كذا وكذا فله كذا وكذا وإني لأقدر أنها كانت أعمالا لها وزنها ولها ثقلها وربما كانت عاملا هاما من عوامل النصر .

وتقول الرواية فتسارع في ذلك شبان القوم و بقي الشيوخ تحت الرايات والرواية على إجمالها تتحدث عن طبيعة الشبان وطبيعة الشيوخ،طبيعة الشبان الخفة والنفرة والإسراع وطبيعة الشيوخ التثاقل والثبات وقد قام كل بواجبه .

ثم كان التنافس بين الشيوخ والشبان وهو أمر من واقع الحياة أن ينفس الشيوخ على الشبان بما وعدهم رسول الله صلوات الله عليه جزاءً على مقدرتهم الفائقة على الإقدام على أمور يعجز عنها الشيوخ وهنالك رواية يذكرها ابن كثير يأتي فيها على ذكر سعد بن عبادة أنه قال : يا رسول الله إنك لو أعطيت هؤلاء لم يبق لأصحابك شيء وانه لم يمنعنا من هذا زهادة في الأجر ولا جبن عن العدو ، وانما قمنا هذا المقام محافظة عليه مخافة أن يأتوك من ورائك فتشاجروا ونزل القرآن .

لعل الذي نفس على الشبان بمكافأتهم هو سعد بن عبادة رضي الله عنه وحده ولعل معه ثان وثالث ولعل مناقشة هادئة وقعت بين اثنين أحدهما يمثل الشيوخ وآخر يمثل الشبان أما ما تصوره الرواية الأولى من أن الأصحاب رضوان الله عليهم انقسموا إلى ثلاث فرق فذلك ما يأباه الفهم الصحيح والذوق السليم .

لقد كان الشبان على حق في مطالبتهم بما وعدهم رسول الله عليه صلوات الله ولا تثريب عليهم في أن يدركوا ثمرة ما قدموا من جهد فائق لا يقوى عليه كثيرون ولعل دافعهم المعنى قبل المادة كما ذكرنا وللشيوخ بعض العذر في طلبهم المساواة بالشبان فلقد كانوا الردء وكانوا الذين حموا ظهور الشبان وفي مثل هذه الحالة يحق للذين حموا الظهر أن يكونوا شركاء في الغنيمة .

قال صاحب كتاب عون المعبود عند شرح الرواية التي جاء فيها (قسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسواء) : « فيه دليل على أنه اذا انفردت من الجيش قطعة فغنمت شيئا كانت الغنيمة للجميع قال ابن عبد البر لا يختلف الفقهاء في ذلك إذا خرج الجيش جميعه ثم انفردت منه قطعة » . انتهى قول ابن عبد البر، وليس المراد الجيش القاعد في بلاد الاسلام فإنه لا يشارك الجيش الخارج إلى بلاد العدو . وقال ابن دقيق العيد إنَّ المنقطع عن الجيش الذي فيه الإمام ينفرد بما يغنمه قال وإنما قالوا هو بمشاركة الجيش لهم إذا كانوا قريبا منهم يلحقهم عونهم وغوثهم لو احتاجوا .

وإنما ذكرنا هذا لنتخلص منه إلى أن للشيوخ بعض العذر فيما قالوا (كنا ردءاً لكم لو انهزمتم لفئتم إلينا) .

والحق أن المواقف تختلف والأعمال الفدائية تتفاوت فقد يكون في بعضها ما يقوم به الفدائي وحده لا يجدي في عمله معونة من وراءه كمنْ يدخل منفردا في جيش العدو وليس من شك في أن من يقوم بعمل كهذا يستحق أن ينفرد بزيادة لا يشاركه فيها غيره . وهنا نقول إن الرسول الحكيم وضع الأمر موضعه وأعطى كل ذي حق حقه ، وقد سبق أن ذكرنا أن بعض الشراح جنحوا إلى تفسير قول الراوي على فواق إلى التفضيل في القسمة فجعل بعضهم أفوق من بعض على قدر غنائهم وبلائهم . قال صاحب عون المعبود (لإيفاء الوعد وهذا أقرب) وهذا الذي نجده إلى الحق أن يفي عليه الصلاة والسلام بما وعد.

هذه هي الخصومة التي وقعت بين بعض أفراد الصحابة في غزوة بدر وما ذكرنا يوضح أنها كانت تمثل وجهات في النظر ليس فيها مجافاة للحق ولكنها أمر يمكن أن يقع ومع ذلك فإن الآيات الكريمة لم ترض بشيء من النزاع بين الأصحاب وإن تضاءل أمر وتنزلت لترفع هذه النفوس إلى مكانتها ولتعيد إليها سكينتها ، لتعيد إليها الطمأنينة بإيمانها والرضا بما يقسم لها من غير جشع ولا طمع فلتنزع هذه النفوس عن التفكير بقسمة الغنائم ولتدع أمر ذلك إلى الله ربها ورسوله نبيها ، ولتعلم ان ذلك هو الذي يورث الخصومة و ينبت الشقاق في جماعتها فلتحذر ذلك ولتحرص تلك النفوس على وحدة الكلمة وصلاح ذات البين فليس شيء أشد خطرا على الجماعة من تنازع أفرادها و وقوع التنافر بينهم ، ولهذه الجماعة شأن كبير، ستصل راياتها بعد قليل إلى أقصى المسافات في مشارق الدنيا ومغاربها .

وليس من شك ان الرسول الحكيم عليه صلوات الله قد انهى الخصومة بأسرع حين وقسم الغنائم بأسرع وقت ورضي كل بنصيبه وخرج المسلمون من هذه المعركة الهامة اليسيرة معركة التنازع فيما بينهم إخواناً متحابين .

يروي ابو داود في سننه عن عبد الله بن عمرو ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يوم بدر في ثلثمائة وخمسة عشر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم إنهم حفاة فاحملهم اللهم انهم عراة فاكسهم اللهم انهم جياع فأشبعهم ففتح الله له يوم بدر فانقلبوا حين انقلبوا وما منهم رجل الا وقد رجع بجمل أو جملين واكتسوا وشبعوا .

خلاصة القول في الروايات .

يتلخص مما سبق أن بعض الروايات التي ذكرنا فيها سبب نزول الآية الكريمة تذكر خصومة و بعضها تبالغ في ذكر الخصومة و بعضها لا تذكر خصومة ابدا .

فرواية ابي داود جاء فيها ما يلي:

« فلما فتح الله عليهم قالت المشيخة كنا ردءاً لكم لو انهزمتم فئتم الينا فلا تذهبوا بالمغنم ونبقى فأبى الفتيان وقالوا جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم لنا فأنزل الله تعالى يسألونك عن الأنفال ، قل الأنفال لله والرسول الى قوله تعالى كما اخرجك ربك » .

وهكذا لم تزد الرواية على ذكر إباء الفتيان .

ورواية الحاكم لا تذكر خصومة ولا اباء ولفظها كما يلي: «فلما فتح الله عليهم جاء الشبان يطلبون ما جعل لهم وقال الشيوخ انا كنا ردءاً لكم وكنا تحت الرايات فأنزل الله عز وجل يسألونك عن الأنفال الآية.

وقد تبين مما سبق ان هاتين الروايتين هما اعدل الروايات واقربها الى تصوير الواقع وقد رأينا أن رجال الروايتين من رجال الطبقة الأولى.

واما رواية احمد والترمذي فقد جاء فيها قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها وجمعناها فليس لأحد فيها نصيب والرواية الثانية تجمل فتقول: فينا اصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل وساءت فيه اخلاقنا فنزعه الله من ايدينا فجعله الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين على السواء.

وقد ذكرنا بشأن هاتين الروايتين ما ذكرنا.

اما الآية الكريمة فتمس الموضوع مسا رقيقا ولا تزيد ان تصف الذي وقع كله بأكثر من سؤال توجه به المسلمون الى رسول الله عليه صلوات الله، وليس في السؤال حرج وليس فيه كبير إثم، نعم قد يلجأ المتخاصمان الى السؤال لفك النزاع وانهاء الخصام وهما في هذا يحمدان لأنه نوع من التحكيم وطن فيه كل جانب من المتخاصمين نفسه على الرضا بقبول الحكم فالقضية كما عرضها القرآن الكريم سؤال أقصى ما يكون فيه أنه أريد به فض النزاع وإنهاء الجدال وهو خير كل الخير ولا يمكن أن تتصور أن الخصومة التي وقعت خصومة عنيفة ولكنها كما ذكرنا لا تزيد عما صورته رواية ابي داود ولو كانت اعنف من ذلك لما فات الآيات القرآنية ذكر ذلك والتعليق عليه فلقد عودتنا الآيات الكريمة ان ترعى هذه النفوس رعاية تامة فلا تدع دقائق الأمور تمر دون ذكرها والتنبيه اليها.

كان ما وقع بين المسلمين من خلاف مصوراً في القرآن الكريم بسؤال ولكنه وإن كان سؤالا فقد وقع في الجو الذي امتزج فيه وحي السماء والإمداد بالملائكة بالاستغاثة والخوف وتم النصر وبلغت النفوس أوجها من الايمان، في مثل هذا الجو ما كان ينبغي أن يكون سؤال عن الأموال ولا نزاع ولو كان يسيراً في موضوع الأنفال ولذلك كانت التربية حازمة واللفتات قوية والمعاني التي طلبت إلى الفئة القليلة في منتهى السمو.

«قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم واطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون اولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » .

انها دفعة قوية جدا الى الصعود الى مراتب سامية جدا .

لقد لمست فريقا من المسلمين لمسة خفيفة من معاني الحرص على الجمع ذلك المعنى الغريزي لدى كل انسان فكانت الآيات الكريمة في مواطن الغيرة على هذه النفوس أن تصيبها مثل هذه اللمسة فاثابت بها تنتزعها وتصعد بها إلى جو سامق عال رفيع يتنزه عن الدنيا وكل مافيها .

لقد اخذنا برواية ابن عباس الواردة لدى ابي داود والحاكم في سبب نزول الآية الكريمة والسؤال الذي يرد بعد هذا انا قدمنا في اول الموضوع رواية مسلم وفيها قصة سعد رضي الله عنه والسيف الذي رغب ان يكون له خاصة دون غيره وقد جاء في تلك الرواية ان الآية نزلت في سعد رضي الله عنه كما نزلت فيه آيات اخرى .

فكيف يمكن الجمع بين الروايتين:رواية ابي داود تذكر ان السبب في نزول الآية طلب الشيوخ الا يستأثر الشبان بالغنيمة وإباء هؤلاء ورواية مسلم تذكر ان السبب في نزول الآية طلب سعد السيف من رسول الله وامتناعه عليه الصلاة والسلام من اعطائه اياه حتى نزلت الآية .

والجواب الذي نأخذ به في مثل هذا التعارض ما قاله ابن تيمية رحمه الله(١) .
قال ابن تيمية رحمه الله :
قولهم انزلت هذه الآية في كذا يراد به تارة سبب النزول و يراد به تارة ان تلك داخل في الآية وإن لم يكن السبب كما نقول عني بهذه الآية كذا .
وقال الزركشي في البرهان : قد عرف من عادة الصحابة والتابعين ان احدهم اذا قال نزلت هذه الآية في كذا ، فانه يريد بذلك انها تتضمن هذا الحكم لا ان هذا كان

(١) : انظر تفسير القاسمي ج ١ ص ٢٦ .

السبب في نزولها ، فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية ، لا من جنس النقل لما وقع أ. هـ .

وهكذا نرجح ان سياق الآيات الكريمة في جانب الرواية التي ذكرت ما وقع بين الشيوخ والشبان وطلب سعد للسيف قد وقع في غزوة بدر وقوله رضي الله عنه ان الآية الكريمة نزلت في شأنه يعني انه داخل في حكمها وليس بمستبعد ان تكون الآيات الكريمة قد نزلت أصالة لمشكلة الخلاف ولمشكلات اخرى كطلب سعد رضي الله عنه والله الموفق للصواب .

هل الآية منسوخة

أ ـ القائلون بأنها منسوخة .
ب ـ ما الذي دعا الى القول بالنسخ .
ج ـ القائلون بأنها محكمة .
د ـ القول الذي نرجحه .

أ ـ القول بأنها منسوخة :
يقول القرطبي :(١) .

هذه الآية (يعني قوله تعالى : « واعلموا ان ماغنمتم ») ناسخة لأول السورة عند الجمهور. وقد ادعى ابن عبد البر الإجماع على ان هذه الآية نزلت بعد قوله يسألونك عن الأنفال ، وان قوله يسألونك عن الأنفال نزلت في حين تشاجر اهل بدر في غنائم بدر على ما تقدم اول السورة قلت (القرطبي) ومما يدل على صحة هذا ما ذكره اسماعيل بن اسحاق و يذكر سنده الى ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال النبي صلى الله عليه وسلم « من قتل قتيلا فله كذا ومن اسر أسيراً فله كذا ، وكانوا قتلوا سبعين واسروا سبعين فجاء ابو اليسر بن عمرو بأسيرين فقال يارسول الله انك وعدتنا من قتل قتيلا فله كذا وقد جئت بأسيرين فقام سعد فقال يارسول الله إنا لم يمنعنا زهادة في الاجر ولا جبن عن العدو ولكننا قمنا هذا المقام خشية ان يعطف المشركون فإنك إنْ تعط هؤلاء فلا يبقى لاصحابك شيء قال وجعل هؤلاء يقولون وهؤلاء يقولون فنزلت « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول » فسلموا الغنيمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نزلت

(١) : ٢/ ٨ .

« واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه » . (١)

وقال ابن جرير : (٢)

واختلفوا فيها : أمنسوخة هي ام غير منسوخة ؟ فقال بعضهم هي منسوخة وقالوا نسخها قوله « واعلموا ان ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول » وروى ابن جرير بسنده القول بالنسخ عن مجاهد وعكرمه والسدي .

قال الشيخ الشنقيطي حفظه الله : (٣)

« قال مقيده عفا الله عنه : جمهور العلماء على ان الآية نزلت في غنائم بدر لما اختلف الصحابة فيها » و يشير الى الروايات التي ذكرت الخلاف بين الأصحاب رضوان الله عليهم ثم يقول : « وعلى هذا القول الذى هو قول الجمهور ، فالآية مشكلة مع قوله تعالى واعلموا ان ما غنمتم من شيء الآية » .

واظهر الأقوال التي يزول بها الإشكال في الآية هو ما ذكره ابو عبيد ونسبه القرطبي في تفسيره لجمهور العلماء ان قوله تعالى : « واعلموا أن ما غنمتم » . ناسخ لقوله « يسألونك عن الأنفال » ولايشير الاستاذ الى وجه الإشكال ولعل الإشكال ماجاء في الرواية كما ذكرنا « فسلموا الغنيمة الى رسول الله » اى انهم فهموا من الآية أن الغنيمة اصبحت ملكاً لرسول الله عليه صلوات الله وسلامه يتصرف بها كيف يشاء ، ثم نسخ هذا الحكم بقوله تعالى « واعلموا أن ماغنتم .... »

يدل على ذلك قوله : (٤) فالحاصل ان آية « واعلموا ان ما غنمتم ....» بينت ان ليس المراد قصر الغنائم على الرسول المذكور في أول السورة .

---

(١): النسخ هو رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي و يذكرون لوقوع النسخ شروطا اربعة اولها وجود التعارض بين الحكمين تعارضا حقيقيا بحيث لا يمكن الجمع بينها واعمالها معا والثاني كون الناسخ هو الله جل شأنه فلا بد من دليل شرعي يثبت معه النسخ والثالث ان المنسوخ لابد وان يكون حكما شرعيا والرابع أنه لابد ان يكون الناسخ متراخياً في الزمن عن المنسوخ غير متصل به كاتصال القيد بالمقيد .

وهنا على قول القائلين ان الغنيمة سلمت لرسول الله ليتصرف بها بما يشاء ذلك معنى قوله الأنفال لله في رأيهم تتم هذه الشروط .

(٢) : ٣٨٠/ ١٣ . (٣) : ٣٤٥/ ٢ . (٤) : ٣٤٦/ ٢ .

والأستاذ الشنقيطي يرى ان قوله تعالى « واعلموا ان ماغنمتم ....» نزل قبل قسمة الغنائم وقد خمست الغنائم بدليل ما ثبت في صحيح مسلم من حديث علي بن ابي طالب رضي الله عنه « كان لي شارف من نصيبي من المغنم » ومؤدى هذا إلى أن الزمن الذي سلمت الغنائم فيه الى رسول الله عليه صلوات الله وسلامه وأذن له بالتصرف فيها كان بين نزول الآيتين الكريمتين : (يسألونك عن الأنفال) ، (واعلموا أن ما غنمتم) وكان نزولها قبل قسمة الغنائم فالزمن بينهما قصير جدا .

ب ـــ ما الذي دعا الى القول بالنسخ ؟

يبدو ان الذى دعا الى القول بالنسخ امران اولها الروايات التي ذكرت ان الأصحاب سلموا الغنيمة لرسول الله عليه صلوات الله وسلامه وهذا ما اشار اليه القرطبي والثاني تفسير الانفال بالغنائم كلها وقوله تعالى : « لله ....وللرسول » أي ملك للرسول يتصرف بها كما يشاء .

وقد حمل هذا الفهمُ كثيرين على القول بالنسخ للتخلص من التعارض بين الآية الأولى حين تفهم هذا الفهم و بين قوله تعالى واعلموا انّ ما غنمتم لا سيا وقد استخلص في ان الغنائم للرسول عليه صلوات الله وسلامه وليس قسمها بين الغانمين بواجب .

قال القرطبي (١) : وقد قيل : انها محكمة غير منسوخة وان الغنيمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليست مقسومة بين الغانمين ، وكذلك لمن بعده من الأئمة .

كذا حكاه المازرى عن كثير من اصحابنا رضي الله عنهم ، وأن للامام ان يخرجها عنهم .

واحتجوا بفتح مكة وقصة حنين ، وكان ابو عبيد يقول : افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عنوة ومنّ على اهلها فردها عليهم ولم يقسمها ولم يجعلها عليهم فيئا ، ورأى بعض الناس ان هذا جائز للائمة بعده .

قلت (القرطبي) وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى « واعلموا ان ماغنمتم من شيء فان لله خمسه » والأربعة اخماس للامام ان شاء حبسها وان شاء قسمها بين الغانمين وهذا

(١) : ٢/ ٨ .

ليس بشيء لما ذكرنا ولأن الله سبحانه اضاف الغنيمة للغانمين فقال « واعلموا ان ما غنمتم من شيء » ثم عين الخمس لمن سمى في كتابه ، وسكت عن اربعة الأخماس ، كما سكت عن الثلثين في قوله : وورثه أبواه فلأمه الثلث فكان للاب الثلثان اتفاقا وكذا الأربعة الأخماس للغانمين وإجماعاً ، على ما ذكره ابن المنذر وابن عبد البر والداودى والمازرى ايضا والقاضي عياض وابن العربي . والأخبار بهذا المعنى متظاهرة، وسيأتي بعضها . ويكون معنى قوله « يسألونك عن الأنفال ....» ما ينفله الامام لمن شاء ولما يراه من المصلحة قبل القسمة(١) » .

وقال الشيخ الشنقيطي حفظه الله(٢) :

« جماهير علماء المسلمين على أن أربعة أخماس الغنيمة للفقراء الذين غنموها ، وليس للامام ان يجعل تلك الغنيمة لغيرهم ...

وخالف في ذلك بعض اهل العلم وهو قول كثير من المالكية ونقله عنهم المازرى رحمه الله ايضا قالوا للامام ان يصرف الغنيمة فيما يشاء من مصالح المسلمين ويمنع منها الغزاة الغانمين .

واحتجوا لذلك بأدلة منها قوله تعالى « يسألونك عن الأنفال ...» قالوا الأنفال الغنائم كلها والآية محكمة لا منسوخة .

واحتجوا لذلك ايضا بما وقع في فتح مكة وقصة حنين قالوا : انه صلى الله عليه وسلم فتح مكة عنوة بعشرة آلاف مقاتل ومنّ على اهلها فردها عليهم ولم يجعلها غنيمة ولم يقسمها على الجيش ، فلو كان قسم الأخماس الأربعة على الجيش واجبا لفعله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة . قالوا وكذلك غنائم هوازن في غزوة حنين اعطى منها عطايا عظيمة جدا ولم يعط الأنصار منها مع انهم من خيار المجاهدين الغازين معه صلى الله عليه وسلم .» .

يقول الشيخ الشنقيطي حفظه الله :

« وأجيب من جهة الجمهور عن هذه الاحتجاجات : فالجواب عن آية «يسألونك عن

---

(١) : فسر القرطبي الآية الكريمة في مطلع السورة (٧/٣٦١) بقوله « اي الى الله والى الرسول الحكم فيها والعمل بها بما يقرب من الله تعالى » وهذا التفسير هو الأرجح في رأينا .

(٢): ٢/٣٥٤ .

الأنفال » هو ما قدمنا من انها منسوخة بقوله « واعلموا ان ما غنمتم ..» ونسبه القرطبي لجمهور العلماء والجواب عما وقع في فتح مكة ان مكة ليست كغيرها من البلاد لأنها حرام بحرمة الله من يوم خلق السماوات والأرض الى يوم القيامة وانما احلت له صلى الله عليه وسلم ساعة من نهار، ولم تحل لأحد قبله ولا بعده، وما كان بهذه المثابة فليس كغيره من البلاد التي ليست لها هذه الحرمة العظيمة.

واما ما وقع في قصة حنين فالجواب عنه ظاهر، وهو ان النبي صلى الله عليه وسلم استطاب نفوس الغزاة عن الغنيمة ليؤلف بها قلوب المؤلفة قلوبهم لأجل المصلحة العامة للاسلام والمسلمين ومن جملة ما قال لهم عليه الصلاة والسلام: « الا ترضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله صلى الله عليه وسلم الى رحالكم، الى آخر كلامه فرضي القوم وطابت نفوسهم وقالوا رضينا برسول الله صلى الله عليه وسلم قسما وحظا وهذا ثابت في الصحيح(١).

ج ـ القائلون بأن الآية محكمة مجملة.

قال ابن جرير الطبري (٢) وقال آخرون هي محكمة وليست منسوخة وانما معنى ذلك: « قل الأنفال لله » وهي لا شك لله مع الدنيا بما فيها والآخرة ـ وللرسول يضعها في مواضعها التي أمره الله بوضعها فيه ».

وقال صاحب الفتوحات الإلهية في شرحه على تفسير الجلالين: (٣).

« قوله لله والرسول » هذا فيه نوع إجمال بينه ما سيأتي في قوله واعلموا أن ما غنمتم من شيء الآية فهذه الآية محكمة على التحقيق لا منسوخة غاية الأمر أنها مبينة بما يأتي أ هـ. فعلى هذا معنى قوله لله والرسول أنها لهما من حيث القسمة وليس المراد أنها للرسول من حيث الاستقلال بالملك وعبارة أبي السعود قل الأنفال لله والرسول أي حكمها مختص به تعالى يقسمها الرسول عليه الصلاة والسلام كيفما أمر به من غير ان يدخل فيه رأي احد

(١): يقول القرطبي ههنا « وليس لغيره ان يقول هذا القول، مع ان ذلك خاص به على ما قاله بعض علمائنا والله اعلم ».

(٢): ١٣/٣٨١.

(٣): ٢/٢٢٥.

أ هـــ . والقول بأنها منسوخة مبني على ان المراد من قوله هنا لله والرسول أن الرسول يختص بملكها يتصرف فيها كيف يشاء » .

وقال السيد رشيد رضا في تفسيره :

« قل الأنفال لله والرسول أي قل لهم الأنفال لله يحكم فيها بحكمه وللرسول يقسمها بحسب حكم الله تعالى وقد قسمها صلى الله عليه وسلم بالسواء وهذا لا ينافي التفصيل الذي سيأتي في قوله تعالى واعلموا أن ما غنمتم ... فيكون التفصيل ناسخا للإجمال كما قال مجاهد وعكرمة والسدي فالصواب قول ابن زيد ان الآية محكمة وقد بين الله مصارفها في آية الخمس .

وقال الدكتور مصطفى زيد : (١) .

والصحيح أن الآية الأولى أجملت الجواب عن سؤالهم فقلت الأنفال لله والرسول بمعنى حكم الأنفال لله يحكم فيها بما يشاء و يقسمها الرسول على ما حكم به الله ثم جاءت الآية الثانية ففصلت هذا الاجمال .

قول ابن جرير الطبري :

قال أبو جعفر : (٢) والصواب من القول في ذلك ان الله جل ثناؤه أخبر أنه جعل الأنفال لنبيه صلى الله عليه وسلم ينفل من شاء فنفل القاتل السلب وجعل للجيش في البدأة الربع وفي الرجعة الثلث بعد الخمس ونفل قوما بعد سهمانهم بعيرا بعيرا في بعض المغازي فجعل الله تعالى ذكره حكم الأنفال إلى نبيه صلى الله عليه وسلم ينفل على ما يرى مما فيه صلاح المسلمين وعلى من بعده من الأئمة أن يستنوا لسنته في ذلك .

وليس في الآية دليل على أن حكمها منسوخ لا حتما لها مما ذكرت من المعنى الذي وصفت . وغير جائز أن يحكم بحكم قد نزل به القرآن أنه منسوخ بحجة يجب التسليم لها ، فقد دللنا في غير موضع من كتبنا على أن لا منسوخ إلا ما أبطل حكمه حادث حكم بخلافه ينفيه من كل معانيه ، أو يأتي خبر يوجب الحجة أن أحدهما ناسخ الآخر» .

---

(١): النسخ في القرآن الكريم ٦١٨ / ٢ .

(٢): ٣٨١ / ١٣ .

ولقد فسر هذا ابن جرير الأنفال بالزيادات التي يزيدها الإمام بعض الجيش وهو المعنى الذي اختاره في معنى الأنفال .

ـ الخلاصة :

والذي نرجحه أن الانفال هي الغنائم وأن الآية محكمة مجملة جاء بيانها وتفصيلها في الآية الثانية وهي قوله تعالى : واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه .

متى شرع الخمس ؟ أخمست غنائم بدر؟

جاء في كتاب فرض الخمس عند البخاري (١)أن علياقال« كانت لي شارف من نصيبي من المغنم يوم بدر وكان النبي صلى الله عليه وسلم أعطاني شارفا من الخمس » . وقال ابن حجر في شرح الحديث : « قال ابن بطال : ظاهره أن الخمس شرع يوم بدر ولم يختلف أهل السير أن الخمس لم يكن يوم بدر، وقد ذكر اسماعيل القاضي في غزوة بني قريظة أنه أول يوم فرض فيه الخمس.قال وقيل نزل بعد ذلك قال ولم يأت فيه بيان شاف وإنما جاء صريحا في غنائم حنين . قال ابن بطال : إذا كان ذلك فيحتاج قول علي إلى تأويل . قال ويمكن ان يكون ما ذكر ابن اسحاق في سرية عبد الله بن جحش التي كانت في رجب قبل بدر بشهرين ، وإن ابن اسحاق قال : ذكر لي بعض آل جحش أن عبد الله قال لأصحابه إن لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما غنمنا الخمس وذلك قبل أن يفرض الله الخمس ، فعزل له الخمس وقسم سائر الغنيمة بين أصحابه قال فوقع رضا الله بذلك قال فيحمل قول علي « وكان قد أعطاني شارفا من الخمس » أي من الذي حصل من سرية عبد الله بن جحش .

قلت (ابن حجر) و يعكر عليه ان في الرواية الآتية في المغازي « وكان النبي صلى الله عليه وسلم أعطاني مما أفاء الله عليه من الخمس يومئذ » والعجب أن ابن بطال عزا هذه الرواية لأبي داود وجعلها شاهدة لما تأوله وغفل عن كونها في البخاري الذي شرحه وعن كون ظاهرها شاهدا عليه لا له ، ولم أقف على ما نقله عن السير صريحا في أنه لم يكن في غنائم بدر خمس . والعجب أن يثبت في غنيمة السرية التي قبل بدر الخمس و يقول إن الله رضي بذلك و ينفيه في يوم بدر مع أن الانفال التي فيها التصريح

(١) : فتح الباري ١٩٦ / ٦

بفرض الخمس نزل غالبها في قصة بدر وقد جزم الداودي الشارح بأن آية الخمس نزلت يوم بدر. وقال السبكي نزلت الأنفال في بدر وغنائمها . والذي يظهر أن آيةقسمة الغنيمة نزلت بعد تفرقة الغنائم لأن اهل السير نقلوا انه قسمها على السواء واعطاها لمن شهد الموقعة او غاب لعذر تكرما منه لأن الغنيمة كانت اولا بنص سورة الأنفال للنبي صلى الله عليه وسلم قال : ولكن يعكر على ما قال أهل السير حديث علي يعني حديث الباب حيث قال . وأعطاني شارفا من الخمس يومئذ فانه ظاهر في أنه كان فيها خمس » .

قلت (ابن حجر) ويحتمل أن تكون قسمة غنائم بدر على السواء بعد أن أخرج الخمس للنبي صلى الله عليه وسلم على ما تقدم من سر ية عبد الله بن جحش وأفادت آية الأنفال وهي قوله تعالى (واعلموا ان ما غنمتم) الى آخرها بيان مصرف الخمس لا مشروعية أصل الخمس والله أعلم وأما ما نقله عن أهل السير فأخرجه ابن اسحاق بإسناد حسن يحتج بمثله عن عبادة بن الصامت قال « فلما اختلفنا في الغنيمة وساءت أخلاقنا انتزعها الله منا فجعلها لرسوله فقسمها على الناس عن سواء » أي على سواء ساقه مطولا وأخرجه أحمد والحاكم من طر يقه وصححه ابن حيان من وجه ليس فيه ابن اسحاق » .

وهكذا يرى ابن بطال أن الغنائم في بدر لم تخمس ليساير في ذلك ما نقله عن أصحاب السير « ان الخمس لم يكن يوم بدر» وهو يرى أن سر ية عبد الله بن جحش التي سبقت بدرا بشهر ين خمست غنائمها ، وهنا يعجب ابن حجر لصنيعه هذا يثبت الخمس في غنمية السر ية التي قبل بدر و ينفيه فيها ، و ينفي ابن حجر أن يكون ما نقله ابن بطال عن أهل السير صريحا في أنه لم يكن في غنائم بدر خمس .

و يرى ابن حجر سبيلاً أخرى للتوفيق هي أن غنائم بدر خمست على ما تقدم في سر ية عبد الله بن جحش وأن نزول الآية الكريمة لم يكن لبيان الحكم بل لبيان مصارف الخمس .

وخبر تخميس غنائم سر ية عبد الله بن جحش يرو يه ابن إسحاق عن الزهري و يز يد ابن رومان عن عروة قال وقد ذكر بعض آل عبد الله بن جحش أن عبد الله بن جحش قال لأصحابه إن لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما غنمتم الخمس وذلك قبل أن يفرض الله من الغنائم الخمس فعزل لرسول الله صلى الله عليه وسلم خمس الغنيمة وقسم سائرها

بين أصحابه وقال ابن القيم (١) : « قد عزلوا من ذلك الخمس وهو أول خمس كان في الإسلام » .

والذي يبدو أن الآية الكريمة نزلت يوم بدر كما ذهب إلى ذلك كثيرون سواء كان نزولها لإنشاء الحكم أم لتوثيقه و بيان مصارف الخمس من الغنائم والراجح أن غنائم بدر قد خمست تبعاً لما جاء في رواية البخاري .

هل النفل من أصل الغنيمة ؟

قال الشوكاني (١) : « وقد اختلف العلماء هل هو (يعني النفل) من اصل الغنيمة أو من الخمس أو من خمس الخمس أو مما عدا الخمس على أقوال ، واختلفت الرواية عن الشافعي في ذلك فروى عنه أنه من أصل الغنيمة وروي عنه أنه من الخمس وروي عنه أنه من خمس الخمس والأصح عند الشافعية أنه من خمس الخمس .

وقال الاوزاعي (٢) وأحمد وأبو ثور وغيرهم النفل من أصل الغنيمة وإلى ذلك ذهبت الهادية (٣) .

وقال مالك وطائفة لا نفل الا من الخمس .

قال الخطابي أكثر ما روي من الأخبار يدل على ان النفل من أصل الغنيمة » .

وجاء في كتاب الروض النضير (٤) : .
قال علي عليه السلام « وإنما النفل قبل الغنيمة ، ولا نفل بعد الغنيمة » .

وقال الشارح (٥) : « وقوله : إنما النفل قبل الغنيمة أي قبل تسميتها وهو المختار

---

(١) : نيل الأوطار ٢٧٤/٧ .

(٢) : جاء هذا النقل الى آخر قول الخطابي في الفتح ٦/٢٤ .

(٣) : قال ابو عبيد في كتاب الأموال (٣٢٠) : واما الاوزاعي فان المعروف من رأيه انه كان لا يرى النفل من الخمس و يقول انما الخمس للاصناف التي سمى الله تبارك وتعالى في كتابه قال ابو عبيد ومما يقوى قول الاوزاعي حديث عمر (في سواد العراق) قال ابو عبيد (واما عظم الآثار والسنن فعلى ان الخمس مفوض الى الامام ينفل منه من شاء .

(٤) : ٤/٦٤٨ .

(٥) : المصدر السابق ٤/٦٥٠

لمذهب الهادية ، وقال به الحسن البصري والأوزاعي وأحمد وأبو ثور وآخرون .

قال الخطابي (١) : أكثر ما روي من الأخبار في هذا الباب يدل على أن التنفيل من أصل الغنيمة و يؤيده ما رواه محمد بن اسحاق عن نافع عن ابن عمر قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سر ية إلى نجد ، فخرجت معها فأصبنا نعما كثيرا فنفلنا أميرنا بعيرا بعيرا لكل إنسان ثم قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقسم بيننا غنيمتنا فأصاب كل رجل منا اثني عشر بعيرا بعد الخمس ، وما حاسبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي أعطانا أميرنا ولا عاب عليه ما صنع فكان لكل رجل منا ثلاثة عشر بعيرا ينفله فهو نص صر يح على أن التنفيل كان من رأس الغنيمة وكذلك حديث حبيب بن مسلمة المتقدم وظاهره أنه كان ينفل بعد إخراج الخمس أي ينفل من أر بعة اخماس ما يأتون به(٢) .

وذهب مالك وأبو حنيفة ، وهو قول سعيد بن المسيب وهو المختار عند اصحاب الشافعي أنه ينفل من خمس الخمس (٣) واحتجوا بما أخرجه مسلم عن ابن عمر قال نفلنا رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى نصيبنا من الخمس . فأصابني شارف(٤)، ولما

---

(١) : حمد بن محمد بن ابراهيم بن الخطاب البستي ابو سليمان فقيه محدث من اهل بست (من بلاد كابل) من نسل زيد بن الخطاب (اخي عمر بن الخطاب) له معالم السنن في شرع سنن ابي داود وكتب اخرى (٣١٤ـ ٣٨٨) .

(٢) : قال الخطابي في معالم السنن ٥٥ / ١٤ «وقال غيرهم كان النبي صلى الله عليه وسلم ينفلهم من الغنيمة التي يغنمونها كما نفل القاتل السلب من جملة الغنيمة «قال الخطابي» وعلى هذا دل اكثر ما روى من الأخبار في هذا الباب ، و بعد ذكر حديث ابن عمر يقول «قلت : افي هذا بيان واضح ان النفل انما اعطاهم اياهم من جملة الغنيمة لا من الخمس الذى هو سهمه ونصيبه» و بعد الحديث الذى جاء انه عليه الصلاة والسلام ينفل الثلث بعد الخمس قال : «فيشبه والله اعلم ان يكون الامران معا جائز ين» .

(٣) : قال بدر الدين العيني في عمدة القارى ١٦٤ / ٧ والأصح عندنا انه يعني النفل من خمس الخمس و به قال ابن المسيب ومالك وابو حنيفة وآخرون وممن قال انه من اصل الغنيمة الحسن البصرى والأوزاعي واحمد وابو ثور وآخرون .

(٤): صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير ص ١٣٦٩ / ٣ .

روي عن مالك بن اوس بن الحدثان(١) أنه قال: ما ادركت الناس ينفلون إلا من الخمس. قال الشافعي أخبرنا مالك عن ابي الزناد أنه سمع سعيد بن المسيب يقول كان الناس يعطون النفل من الخمس(٢) قال الشافعي وقول سعيد كما قال ان شاء الله «أ.هـ ما جاء في الروض النضير.

نقل الشوكاني عن ابن حجر ونقل صاحب الروض النضير أن قول أحمد النفل من أصل الغنيمة وكذا نقلا عن الأوزاعي مثل هذا وابن قدامه ينقل عنهما قولا ربما كان أدق يقول(٣):

قال أحمد: والنفل من أربعة أخماس الغنيمة، هذا قول أنس بن مالك وفقهاء الشام منهم رجاء بن حيوة وعبادة بن نسي وعدي بن عدي ومكحول والقاسم بن عبد الرحمن و يزيد بن أبي مالك ويحيى بن جابر والاوزاعي و به قال اسحاق وابوعبيد وقال أبوعبيد والناس اليوم على هذا «قال احمد وكان سعيد بن المسيب ومالك بن انس يقولان« لا نفل من الخمس». فكيف خفي عليهما هذا مع علمهما.

قال ابن قدامة: «وقال أبوثور وإنما النفل قبل الخمس، واحتج من ذهب الى هذا بحديث ابن عمر الذي اوردناه».

قال ابن قدامة (٤):

ولنا ما روى معن بن يزيد السلمي قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «لا نفل إلا بعد الخمس» رواه أبوداود وابن عبد البر وهذا صريح وحديث حبيب بن سلمة «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينفل الربع بعد الخمس والثلث بعد الخمس» وحديث جرير قال له عمر «ولك الثلث بعد الخمس» ولأن النبي صلى الله

---

(١): مالك بن اوس بن الحدثان مختلف في صحبته، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا ذكره ابن سعد في طبقة من ادرك النبي صلى الله عليه وسلم ورآه ولم يحفظ عنه شيئا قال و يقولون انه ركب الخيل في الجاهلية قال وكان قديما ولكنه تأخر اسلامه وقال البخارى قال بعضهم له صحبة ولا تصح وقال ابوحاتم وابن معين لا تصح له صحبة.

(٢): ذكر ابن حجر في الفتح ٦/٢٤١ ثم قال «وظاهره اتفاق الصحابة على ذلك».

(٣): المغني ٩/٢١٥.

(٤): المغني ٩/٢١٦.

عليه وسلم نفل الثلث ولا يتصور إخراجه من الخمس (١) ولان الله تعالى قال (واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه) يقتضي أن يكون الخمس خارجا من الغنيمة كلها » (٢) .

يقول ابن قدامة : « وأما حديث ابن عمر ــ بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في جيش قبل نجد واتبعت سرية من الجيش فكان سهمان الجيش اثني عشر بعيرا ونفل أهل السرية بعيراً بعيراً فكانت سهمانهم ثلاثة عشر بعيرا » فهذا يمكن أن يكون نفلهم من أربعة أخماس الغنيمة دون بقية الجيش كما ينفل السرايا و يتعين حمل الخبر على هذا لأنه لو أعطى جميع الجيش لم يكن ذلك نفلا وكان قد قسم لهم أكثر من اربعة الأخماس وهو خلاف الآية والأخبار» .

أقول الحديث رواه البخاري (٣) بعنوان باب السرية التي قبل نجد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال بعث النبي صلى الله عليه وسلم سرية قبل نجد فكنت فيها فبلغت سهامنا اثني عشر بعيراً ونفلنا بعيراً بعيراً فرجعنا بثلاثة عشر بعيراً والظاهر في هذه الرواية أن أفراد السرية جميعا كان نصيب كل منهم ثلاثة عشر بعيراً وليس في هذه الرواية ذكر لجيش انفصلت منه سرية يقول ابن حجر في شرح الحديث : قالوا : وكان أبو قتادة أميرها وكانوا خمسة وعشرين ويمكن أن نتصور الواقعة بأن أفراد السرية نفلهم أميرهم قبل أن يرجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبل أن تخمس الغنيمة ثم كان لهم بعد التخميس لكل اثنا عشر بعيراً و يستأنس لهذا بما جاء في بعض الروايات وما حاسبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي أعطانا صاحبنا ولا عاب عليه ما صنع فكان لكل

---

(١) : هذا رد على القائلين بأن النفل من الخمس .

(٢) : يقول الشيخ الشنقيطي (٢/٣٩٨) والذى يسبق الى الذهن ان ماثبت في صحيح مسلم من حديث ابن عمر بلفظ « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان ينفل بعض ما يبعث من السرايا لانفسهم خاصة سوى قسم عامة الجيش ، والخمس في ذلك واجب كله » يدل على ان ذلك التنفيل من الغنيمة بعد اخراج الخمس وهو ما دل عليه حديث حبيب بن مسلمة المتقدم ، وهو الظاهر المتبادر خلافا لما قاله ابن حجر في الفتح من انه محتمل لكل الأقوال المذكورة . و يقول ابو عبيد في (الاموال) والناس اليوم في المغنم على هذا : انه لا نفل من جملة الغنيمة حتى تخمس .

(٣) : فتح البارى ٨/٥٦ .

رجل منا ثلاثة عشر بعيراً ينفله (رواه أبو داود) و يكون معنى النفل ما اخذه كل فرد زائدا على سهمه الذي يستحقه وهذا هو الفهم الذي فهمه الذين قالوا بجواز التنفيل من أصل الغنيمة أي قبل تخميسها ومنهم الخطابى كما ذكرنا .

على أن أبا عبيد يحتج بالحديث نفسه على أن النفل من الخمس فهو يذكر الحديث ثم يقول (١) :

« فهذا النفل الذي ذكره بعد السهام ليس له وجه إلا أن يكون من الخمس « وكذلك يقول القرطبى (٢) » فاحتج بهذا من يقول : ان النفل انما يكون من جملة الخمس ، و بيانه أن هذه السرية لو نزلت على أن اهلها كانوا عشرة مثلاً أصابوا في غنيمتهم مائة وخمسين أخرج منها خمسها ثلاثين وصار لهم مائة وعشرون قسمت على عشرة وجب لكل واحد اثنا عشر بعيرا ، اثنا عشر بعيرا ثم أعطى القوم من الخمس بعيرا بعيرا ، لأن خمس الثلاثين لا يكون فيه عشرة أبعرة ، فاذا عرفت ما للعشرة عرفت ما للمائة والألف وأزيد » .

أقول : وهذا الذي يذكره القرطبي دليل يذكره ابن حجر عن ابن المنير أنه واقع وأنه جاء في بعض الروايات أن عدد السرية عشرة يقول ابن حجر(٣) : قال ابن المنير « وقد جاء أنهم كانوا عشرة ، وانهم غنموا مائة وخمسين بعيرا فخرج منها الخمس وهو ثلاثون وقسم عليهم البقية فحصل لكل واحد منهم اثنا عشر بعيرا ثم نفلوا بعيرا بعيرا فعلى هذا فقد نفلوا ثلث الخمس » ويحرص ابن حجر بعد إيراد هذا على نصر مذهبه القائل بأن النفل من خمس الخمس فيقول : «قلت : إن ثبت هذا لم يكن فيه رد للاحتمال الأخير (يعني خمس الخمس) لانه يحتمل ان يكون الذين نفلوا ستة من العشرة والله اعلم » أقول : وهذا من ركوب متن الشطط في سبيل نصرة المذهب .

وابن حجر قد نقل في الصفحة نفسها قبل أسطر قول ابن بطال بان حديث ابن عمر يرد على القائلين بأن النفل من خمس الخمس . قال ابن بطال « لأنهم نفلوا نصف السدس وهو أكثر من خمس الخمس وهذا واضح » .

---

(١) : الأموال باب النفل من الخمس خاصة بعد ما يصير الى الامام ص ٣٢١

(٢) : الجامع لاحكام القرآن ٣٦٢ ـ ٣٦٣ / ٧ (٣) : فتح البارى ٢٤٠ / ٦

وقد اخذ الشيخ الشنقيطي بقول ابن بطال قال : « واعلم أن حديث عبد الله بن عمر المتفق عليه أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث سرية قبل نجد ... دليل واضح على بطلان قول من قال : « لا تنفيل إلا من خمس الخمس » لأن الحديث صريح في أنه نفلهم نصف السدس ، ولا شك أن نصف السدس اكثر من خمس الخمس فكيف يصح تنفيل الأكثر من الأقل ، وهو واضح كما ترى وأما غير ذلك من الأقوال ، فالحديث محتمل له .

يعني أن الأقوال أربعة في النفل فهو إما من أصل الغنيمة أو من الخمس أو من خمس الخمس أو من أربعة الأخماس والحديث في رأي الشنقيطي يدل دلالة قطعية على نفي كون النفل من خمس الخمس للغنيمة كلها وهو محتمل لكونه من أصل الغنيمة قبل أن تخمس كاحتمال كونه من الغنيمة بعد ان خمست أي من أربعة الأخماس كاحتمال كونه من الخمس ، ثم يرجح الشيخ أنه من أربعة الأخماس بدلالة أحاديث أخرى سبق ذكرها .

ولنا ملاحظة يسيرة على الحساب الذي أورده ابن بطال وأقره الشنقيطي عليه تتلخص فيما يلي :

اذا اخذنا بقول القائلين إن النفل من خمس الخمس فالغنيمة قد خمست قبل أي توزيع وكان سهم كل فرد من افرادها ١٢ بعيرا فاذا كان عددهم عشرة (نفرض هذا فرضا لتسهيل الحساب) كان سهمانهم جميعا ١٢٠ بعيرا وهذا ٥/٤ الغنيمة فالغنيمة كلها (١٥٠) بعيرا والنفل من خمس خمس الغنيمة كلها وهو هنا (٦) وقد فرضنا ان عدد أفراد السرية (١٠) فقد نفلت (١٠) ابعرة وهذا العدد اكبر من خمس الخمس فكيف تعطى العشرة من الستة ؟ و يلاحظ ان العشرة هي ١٥/١ من الغنيمة كلها لا ١٢/١ كما قال ابن بطال .

وقد اوضح هذا ابن المنير قال ابن حجر (١) :

«وقد زاده ابن المنير إيضاحا فقال : لو فرضنا انهم كانوا مائة لكان قد حصل لهم ألف ومائتا بعير و يكون الخمس من الأصل ثلاثمائة بعير وخمسها ستون وقد نطق الحديث بأنهم نفلوا بعيرا بعيرا فتكون جملة ما نفلوا مائة بعير ، واذا كان خمس الخمس ستين لم يف

---

(١) : ٦/٢٤٠ (فتح الباري) (٢) : ٢/٣٤٤ (٣) : ٤/١٣٢ (٤) : ٩/٢١٦

كله ببعير بعير لكل من المائة وهكذا كيفما فرضت العدد و يكون الحديث دليلا واضحا في الرد على من قالوا إن النفل من خمس الخمس قال الشيخ الشنقيطي (١) : « ومذهب أبي حنيفة أن للامام قبل احراز الغنيمة أن ينفل الر بع أو الثلث أو اكثر أو أقل بعد الخمس و بعد احراز الغنيمة لا يجوز له التنفيل إلا من الخمس » .

وجاء في كتاب الاختيار(٢) (من كتب الحنفية) : « ويجوز التنفيل قبل احراز الغنيمة وقبل ان تضع الحرب أوزارها فيقول الامام : من قتل قتيلا فله سلبه أو من أصاب شيئا فله ر بعه و بعد الاحراز ينفل من الخمس ... »

قال محمد : « وما روي أنه عليه الصلاة والسلام نفل بعد الاحراز انما كان من الخمس أو من الصفي ، فغلط بقوم فظنوا أن النفل يجوز بعد احراز الغنيمة وما قاله محمد صحيح لأنه لا يجوز تصرف الامام بعد الاحراز إلا في الخمس لما بينا ، ويجوز من الخمس لأنه لا حق للغانمين فيه » .

قال صاحب المغني (٣): « وكلام أحمد في أن النفل من أر بعة الأخماس عام لعموم الخبر فيه ويحتمل أن يحمل على القسمين الأولين من النفل ، فأما القسم الثالث وهو أن يقول من جاء بشيء فله كذا أو من جاء بعشرة رؤوس فله رأس منها فيحتمل أن يستحق ذلك من الغنيمة كلها لأنه ينزل منزلة الجُعل فأشبه السلب فانه غير مخموس ، ويحتمل في القسم الثاني وهو ز يادة بعض الغانمين على سهمه لغنائه أن يكون من خمس الخمس المعد للمصالح ، لأن عطية سلمة بن الأكوع سهم للفارس ز يادة على سهمه انما كانت من ار بعة الأخماس والله اعلم » .

و يقول ابن تيمية رحمه الله (٤) : وهذا النفل قال العلماء : إنه يكون الخمس لئلا يفضل بعض الغانمين على بعض والصحيح انه يجوز من أر بعة الأخماس وإن كان فيه تفضيل بعضهم على بعض لمصلحةً دينية لا لهوى النفس كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا قول فقهاء الشام وأبي حنيفة واحمد وغيرهم .

الخلاصة رأي مالك أن النفل من الخمس وأصح الأقوال عن الشافعي أن الامام لا

---

(١) : ٢٤٠ / ٦ (فتح البارى) (٢) : ٣٤٤ / ٢ (٣) : ١٣٢ / ٤ (٤) : ٢١٦ / ٩
(٥) :الفتاوى ٢٨/٢٧١

ينفل إلا من خمس الخمس ورأى الامام أحمد للامام ان ينفل الربع بعد الخمس في بدأته والثلث بعد الخمس في رجعته ومذهب ابي حنيفة ان للامام قبل احراز الغنيمة أن ينفل الربع أو الثلث أو أكثر أوأقل بعد الخمس و بعد احراز الغنيمة لا يجوز له التنفيل الا من الخمس .

و يرجع الشيخ الشنقيطي أن النفل من الغنيمة بعد إخراج الخمس فهو من أربعة الأخماس كما صحح ذلك ابن تيمية عليه رحمة الله اخذ بالظاهر المتبادر من حديث ابن عمر في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينفل بعض من يبعث من السرايا لأنفسهم خاصة سوى قسم عامة الجيش وزاد مسلم والخمس في ذلك واجب كله .

والذى نميل اليه ما ذهب إليه الشنقيطي حفظه الله ان الغالب على فعله عليه الصلاة والسلام التنفيل من الغنيمة بعد اخراج الخمس منها وقد تسامح عليه الصلاة والسلام فنفل بعض السرايا من أصل الغنيمة قبل ان تخمس وذلك هو الظاهر المتبادر في السرية التي كان فيها ابن عمر رضي الله عنه التي بعثت قبل نجد ومنها اخذ الخطابي الحكم فيما يبدو فقال اكثر ما روي من الأخبار يدل على ان النفل من أصل الغنيمة ، على انه قال « فيشبه ان يكون الأمران معا جائزين » يعني من أصل الغنيمة ومن أربعة أخماسها » ولما كانت الروايات متضافرة على انه لا نفل الا بعد الخمس كما تدل عليه الآية الكريمة « واعلموا ان ما غنمتم من شئ فإن لله خمسه » كان الأحوط ان يقال ان التنفيل لا يكون الا بعد الخمس وحملت رواية ابن عمر في سريته قبل نجد على انها حالة استثنائية رضي فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بفعل الأمير واقره وجاء في الرواية « وما حاسبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي اعطانا اميرنا » ولم نجد رواية اخرى فيما ذكرنا من الروايات تبيح اعطاء النفل من أصل الغنيمة قبل أن تخمس [1] ولعله يؤخذ من رواية ابن عمر ان للامام ان يفعل ذلك اذا رأى فيه مصلحة كبرى وضرورة قصوى ، اما ان يعطي الامام من الخمس زيادة لبعض المقاتلين فأي حرج في ذلك والخمس للامام له ان يتصرف فيه ولا ينافي هذا أن الأصل في النفل أن يعطى من أربعة الأخماس ولكننا لا

---

(١) : قال ابوعبيد في كتاب الأموال (ص ٣٢١) حدثنا عبد الرحمن عن سفيان عن منصور قال سألت ابراهيم عن الامام يبعث السرية قال ان شاء خمس وان شاء نفّلهم اياه كله .

(٢) : كتاب الأموال ص ٣٢١

نقول لا نفل الا من الخمس ولا نقول ايضا « بعد احراز الغنيمة لا يجوز للامام التنفيل الا من الخمس » .

قال ابو عبيد (١) : وانما تكلمت العلماء في الخمس واستجازوا صرفه عن الأصناف المسماة في التنزيل الى غيرهم ، اذا كان هذاخيراًللاسلام واهله وارداً عليهم وكانت عامتهم الى ذلك الوجه أفقر ولهم اصلح من ان يفرق في الأصناف الخمسة فعند ذلك تكون الرخصة في النفل من الخمس و يكون حكمه الى الامام لأنه الناظر في مصلحتهم والقائم بأمرهم ، فأما على محاباة أو ميل إلى هوى فلا .

وهكذا يرى ابو عبيد أن الخمس لتحقيق مصالح المسلمين فحيثما وجدت المصلحة كان هنالك سبيل صرفه . وتقدير المصلحة يرجع الى نظر ثاقب وميزان دقيق . وهذا تحقيق معنى قوله عليه الصلاة والسلام « ما لي مما افاء الله عليكم الا الخمس . والخمس مردود فيكم » وليس الخمس هنا خمس رسول الله عليه صلوات الله وسلامه ولكنه الخمس الذي يخص بيت مال المسلمين .

و يتلخص من كل هذا أن التنفيل أمره الى الامام يتصرف فيه بما يريه الله مما يستقيم به امر المسلمين و يصلح به حالهم فإذا وعد وفّى بما وعد وان لم يعد ورأى ان يخص بعض المقاتلين بزيادة فله ان يفعل ذلك من اربعة اخماس الغنيمة او من خمس الخمس الذى جعله الله لله وللرسول .

في تربية الآيات الكريمة

النفوس الكريمة اذا اصابها مس الخطأ او ما يشبه الخطأ كان ذلك عاملا في دفعها الى الخير ذلك ان النفوس التي ارهف احساسها وشحذ وجدانها ونما اعتبارها لذاتها في جانب الحق يؤلمها ايلاما شديدا ان يبدو منها في ساعة من ساعات انفعالها ما ينزل بها عن المستوى الرفيع الذي وضعت نفسها فيه ومثل هذه النفوس لا تنسى خطأها أبداً ولكنه يؤرقها و يسهدها ويجعلها تتقلب على عتاب الضمير وتتلظى بنار حسابه وكل ذلك ينشىء لديها يقظة غريبة و يباعد بينها و بين الفتور الذي تشعر به النفوس عادة إذا رضيت عن سعيها .

---

(١) : قال ابو عبيد في كتاب الأموال (صـ ٣٢١) حدثنا عبد الرحمن عن سفيان عن منصور قال سألت ابراهيم عن الامام يبعث السرية قال ان خمس وان شاء نفلهم اياه كله .

(٢) : كتاب الأموال صـ ٣٢١

ومن الأمثلة السامية التي توضح هذا المعنى الصحابي الجليل ابو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، لقد قال كلمة وكانت كلمته موجهة الى رسول الله عليه صلوات الله وسلامه وكان في الكلمة جرأة وصراحة نسي معهما مقام رسول الله عليه صلوات الله ونسي معها انه بشر لا كسائر البشر ولكنه بشر يوحى اليه ونسي معها أنه قائد أمين خبير يعلم من الأمور مالا يعلمه وما لا يجب أن يعلمه كل فرد من افراد جماعته .

لقد قال رسول الله عليه صلوات الله في غزوة بدر من لقي منكم العباس فلا يقتله والرسول لا يعرف محاباة عليه الصلاة والسلام ولكنه يقدرها و يضعها في موضعها .

كان العباس مسلماً ولكنه كان يكتم ايمانه فقد روى ابو رافع مولى رسول الله عليه صلوات الله وسلامه قال : كنت غلاما للعباس بن عبد المطلب وكان الاسلام قد دخلنا أهل البيت فأسلم العباس وأسلمت أم الفضل وأسلمت فكان العباس يهاب قومه و يكره خلافهم فكان يكتم إسلامه وكان ذا مال متفرق في قومه فخرج معهم إلى بدر وهو على ذلك (طبقات ابن سعد) (ج ٤ ص ١٠) . فلما كانت المعركة قال عليه الصلاة والسلام من لقي العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم فلا يقتله فإنما أخرج مستكرها .

كانت كلمة النبي صلى الله عليه وسلم استثناء وكل استثناء في الميزان الظاهر خرق لقاعدة العدالة العامة التي لا تعرف ترجيحا ولا تعرف تفريقا . وما كان اصحاب رسول الله عليه صلوات الله يمسكوا ألسنتهم عن حق يرونه وقلوبهم تنطوي على زغل او دخل ولكن الذي في قلوبهم كان يبدو على السنتهم وهكذا كانت اجابة ابي حذيفة رضي الله عنه لرسول الله اجابة الذي لا يعرف نفاقا ولا يحسن مداراة ولا موار بة ولا يخفي ما في نفسه قال : نقتل آباءنا وابناءنا واخواننا وعشائرنا ونترك العباس ؟ والله لئن لقيته لألجمنه بالسيف فوالله لقد نافق فَهَدَّأ رسول الله من حدة عمر وكلّم أبا حذيفة الثائر بما أقنعه وندم أبو حذيفة على مقالته فكان يقول والله ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ ولا أزال منها خائفا إلا أن يكفرها الله عز وجل عني بالشهادة فقتل يوم اليمامة شهيدا (طبقات ابن سعيد ج ٤ ص ١١) .

طلب أبو حذيفة الشهادة في كل مكان في أحد وفي حنين كما يثبت ثبات الراغبين

بالموت وفي المغازي كلها ، وفي اليمامة انكشف المسلمون أول الأمر وخرج خالد من معسكره وصاح بالمسلمين يا لَلأنْصار والمهاجرين وثبت المسلمون واستشهد زيد بن الخطاب وحمل اللواء أبوحذيفة لواء المسلمين وصاح في اخوانه « ياأهل القرآن زينوا القرآن بالفعال » واستشهد ابو حذيفة وغلب المسلمون وقتل مسيلمة الكذاب .

لقد عاش ابو حذيفة وهو يقول ما انا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ ولا أُزال منها خائفا الا ان يكفرها الله عز وجل عني بالشهادة حتى قتل يوم اليمامة شهيدا .

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه من النماذج المرهفة شديدة الاحساس قال ابن عباس : قلت لعمر : مصّر الله بك الأمصار وفتح بك الفتوح ، وفعل بك وفعل ، فقال لوددت أني أنجو منه لا أجر ولا وزر ولما حضرته الوفاة قال : بالامارة تغبطوني ؟ فوالله لوددت أني أنجو كفافا لا عليّ ولا لي (طبقات ابن سعد ج ٣ ص ٣٥١) .

ولما أسلم رضي الله عنه كان همه أن يكفر المواقف الشديدة التي وقفها في إيذاء اصحاب رسول الله . اخرج ابن اسحاق عن ابن عمر رضي الله عنهما قال لما أسلم عمر رضي الله عنه قال : أيّ قريش أنْقَلُ للحديث ؟ فقيل له جميع بن معمر الجمحي فغدا عليه ، قال عبد الله وعدوت أتبع أثره وانظر ما يفعل — وانا غلام اعقل كل ما رأيت — حتى جاءه فقال له : أعلمت ياجميل أني أسلمت ودخلت في دين محمد صلى الله عليه وسلم قال فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه واتبعه عمر واتبعته انا حتى قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته : يامعشر قريش وهم في أنديتهم حول الكعبة ألا إن ابن الخطاب قد صبأ قال يقول عمر من خلفه كذب ولكني أسلمت وشهدت أن لا إله الا الله وان محمدا رسول الله ، وثاروا اليه فما برحوا يقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم قال وطلح (أى أعيا) وقاموا على رأسه وهو يقول افعلوا ما بدا لكم فأحلف بالله ان لو كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا قال فبينما هم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش عليه حلة حِبَرة (ضرب من برود اليمن) وقميص موشّى حتى وقف عليهم فقال ما شأنكم فقالوا : صبأ عمر قال : فمه رجل اختار لنفسه أمرا فما ذا تريدون أترون بني عدي يسلمون لكم صاحبهم هكذا خلوا عن الرجل قال فوالله لكأنما كان ثوبا كشط عنه قال عبد الله فقلت لأبي بعد أن هاجر إلى المدينة يا أُبت من الذي زجر القوم

عنك بمكة يوم أسلمت وهم يقاتلونك ؟ قال ذاك أيْ بني العاص بن وائل السهمي . يقول ابن كثير في البداية (ج ٣ ص ٨٢) وهذا إسناد جيد قوي .

ومن اولئك الذين أرهف احساسهم فلا ينسون أيامهم الماضية وإن عفا الله عنها عكرمة بن أبي جهل :

وقف في اليرموك يقول : قاتلت رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل موطن وأفر منكم اليوم ... ثم نادى من يبايعني على الموت فبايعه عمه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور وابنه عمر بن عكرمة في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا أمام فسطاط خالد ، وكان عكرمة يواجه الأسنة والرماح حتى جرحت صدره و وجهه فقيل له اتق الله وارفق بنفسك فقال كنت أجاهد بنفسي عن اللات والعزى فأبذلها لها وأنا أستبقيها الآن عن الله ورسوله لا والله لا افعل ابدا .

يقول الدكتور علي سامي النشار[1] لقد كان في حياة عكرمة آية للناس آية الضمير المعذب المرهف فحين انكشفت له الحقائق العليا وآمن بالله أدرك بروحه التي تفيض إحساساً مقدار أخطائه فأراد أن يعفي على آثارها ما استطاع فصلى وصام وأنفق وجاهد ثم بعث نهرا من دمه ودم قومه كالأتي (السيل) ونام آخر الأمر مطمئنا طمأنينة الشهداء والصديقين . هكذا كان يخطىء اصحاب رسول الله وهكذا كانت خطيئاتهم تأتي بالمعجزات وهكذا كانت خطيئة اصحاب رسول الله حين تنازعوا على غنائم بدر إن كان هنالك خطيئة .

قيمة التجارب في حياة الأمة

التجارب أثمن ما في الحياة لأنها تكون رصيد الفرد من الخبرة وذخيرته النفسية التي يقابل بها الشدائد و ينازل بها الخطوب .

ومن الخير أن تتلوّن التجارب وتتنوع الحوادث و يتقلب المرء في احضان النعيم تارة و يذوق مرارة العناء وشظف العيش تارة اخرى .

وتاريخ الأمة شبيه بتاريخ الفرد من حيث ان الأمة تقابل الساعات الحاسمة

---

(١) : شهدا الاسلام

بالرصيد الذى تكَوّن لديها في أيامها الماضية وخبراتها السابقة وكلما تعددت تجارب الأمة وتنوعت كان ذلك أدعى إلى صلابة عود أبنائها وقوة شكيمتهم .

يوضح هذا المعنى أتم توضيح قوله تعالى « وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا و يتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين » .

ولقد تنوعت التجارب التي مرت بها الأمة الناشئة في عاصمة الدولة التي انشأها محمد بن عبد الله عليه صلوات الله : مّر فريق المهاجرين بتجربة ترك الديار وهجر الأوطان وخروج الواحد منهم عن داره وماله في سبيل اللحاق برسول الله في دار هجرته ومر فريق الأنصار باستقبال إخوانهم ومشاطرتهم ديارهم وأموالهم واشترك هؤلاء وهؤلاء طعم الأخوة والتعاون في الصبر على البأساء واللأواء .

ولم يمر عام و بعض عام على الجماعة الناشئة حتى مرت بتجربة حاسمة في يوم عظيم سماه القرآن الكريم يوم الفرقان وفي ذلك اليوم عرف المؤمنون نصر الله ومعونته معرفة لم يسبق لها مثيل من قبل وغلبت الفئة الكثيرة و بعد عام آخر مرت الجماعة بتجربة من نوع آخر وكانت التجربة الثانية تجربة شديدة مريرة فوّت المسلمون فيها النصر بعد أن أدركوا النصر ووقعوا في شدائد تتقطع فيها الأعناق و ينوء بحملها الأبطال وخرجوا وقد صهرت التجربة نفوسهم بأثر عميق وعظة بالغة ، وتتابعت الدروس وتنوعت التجارب وانقضت عشر سنوات بقيادة محمد عليه الصلاة والسلام ما تعادل في عمر الأمم بمئات السنين ولا آلافها ذلك انها حقبة من الزمن لامعة مضيئة فذّة في عمر التاريخ لا يمكن أن يقاس بها الحقب ولا يمكن أن تشبهها الأيام .

ولا نستطيع ان ندرك تلك العبر بكاملها ولا نستطيع ان نصل الى غاية شأوها ولكنا نجد لتدركنا نفحة من نفحات معانيها ، ولقد سجلت الآيات الكريمة هذه المعاني فامتزجت هذه الحياة التي قضاها اصحاب رسول الله عليه صلوات الله معاني الخلود إذ سجلت و بقيت آيات تتلى تتصل بسيرة محمد عليه صلوات الله وسلامه واصحاب محمد عليهم رضوان الله .

كانت التجربة الأولى التي مر بها الصحب الكرام تجربة النصر يدركه اصحاب بدر وهم قلة جياع عراة حفاة وكانت تجربة وطدت معاني الايمان في القلوب وادرك المؤمنون معها إدراكا عميقا قوة الحق وشدة وطأته وأيقنوا أن الله معهم وأن القوة بأيديهم باذن الله وان المشركين مهما عظم بأسهم لا قِبَلَ لهم بمن يؤيده الله بملائكته وجنده .

كل ذلك قد تم لثلاثمائة نفر يزيدون قليلا لو وزنوا بأهل الأرض جميعا لرجحوا عليهم هؤلاء هم اصحاب بدر الذين هم خير اصحاب رسول الله جميعا الذين قال فيهم رسول الله ما يدريك ياعمر لعل الله قد اطلَع على اصحاب بدر فقال افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم .

وليس هؤلاء الثلاثمائة على درجة واحدة من الايمان وليسوا على درجة واحدة من فهم الأمور .

قاعدة عامة في التربية القرآنية الحرص على سلامة الجماعة

ومن الطبيعي جدا ان يقع من بعضهم بعض هنات تتنزل بهم عن المستوى الايماني العالي الرفيع ونزول افراد قلة يؤثر في مستوى الجماعة كله ذلك أن الجماعة كلها جسم واحد ، قلت مرة لطبيب انكليزي في انكلترا انكم تعالجون غير الانكليز المقيمين بين أظهركم مجانا وتقدمون لهم العلاج مجانا وتعنون بهم كما تعنون بالمواطنين تماما فما حملكم على ذلك ؟ قال : إنا نفعل ذلك لنحفظ انفسنا وابناءنا .

كانت كلمة ذات وقع عميق في نفسي ، لقد كان الاسلام أحرص من هؤلاء بمئات المرات منذ ١٤ قرنا على سلامة الجماعة وحفظها من الأفراد الذين يمكن أن يهبطوا بمستوى الجماعة ولو هبوطا يسيرا .

كانت تربية هؤلاء تربية تجمع بين القوة والحزم والبراعة التامة والأسلوب الهادئ الرصين الرفيق الحكيم وكان الغرض من هذه التربية شحن النفوس جميعا بشحنة ايمانية وجدانية ينجذب فيها الضعيف في الجو الذي ملئت ارجاؤه بالمعاني السامية وعبق فيه شذى الإيمان الرفيع فإذا بالجميع يحملون وجدانا واحدا و يشعرون شعورا واحدا ،وإذا بالضعيف يسير مع الركب تغشيه موجة الايمان الضافية .

لايخاطب القرآن الكريم فردا من المؤمنين بخطيئته أو ضعفه ولكنه يخاطب المؤمنين جميعا حين تقع الهفوة من فرد أو جماعة يسيرة وهذا أسلوب من أروع الأساليب وأبلغها في التربية وأحكمها ، وفي هذا الاسلوب إشارة واضحة إلى أن الجماعة جسم واحد وكون الجماعة جسما واحدا له نتيجتان هامتان متقابلتان : فلدى وجود خلية واحدة مريضة إما أن يغفل الجسم عن الخلية المريضة فإذا بمرضها يمتد الى جاراتها و يسري و يستفحل أمره وإما ان يكون الجسم يقظا يقظة تامة حساسا أشد الحساسية يدرك مرض الخلية فيمدها بالحال بالاسعاف والأعوان فتبرأ وتلحق بالركب .

حين تقول الآيات الكريمة يسألونك فليس المعنى ان السؤال وقع من الاصحاب الثلاثمائة ولكن الغالب أن السائل واحد يمثل نفسه أو يمثل جماعة يسيرة وحين تقول الآيات الكريمة يجادلونك فالأمر كذلك وقد صرحت ههنا الآيات ان الذين جادلوا كانوا فريقا من المؤمنين قال تعالى : « كما اخرجك ربك من بيتك بالحق وان فريقا من المؤمنين لكارهون يجادلونك في الحق » الى آخر الآية الكريمة .

وكانت التجربة الأولى التي مر بها أصحاب رسول الله عليه صلوات الله وعليهم رضوان الله تجربة النصر يدركه أصحاب بدر وهم قلة وهم كما وصفهم القرآن ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة .

ولقد تنزلت سورة الأنفال أو سورة بدر على أثر غزوة بدر تربي أصحاب رسول الله عليه صلوات الله وسلامه التربية التي يحتاجها موقف النصر والتربية في هذا الموقف تختلف عن التربية في مواقف أخرى كأحد وحنين والأحزاب ذلك أن كل مشهد من هذه المشاهد كان له طابعه وكانت له ميزاته .

وهناك ملاحظتان عامتان تنطبقان على المشاهد جميعها الأولى ما سبق ان ذكرناه من أن القرآن الكريم لا يخاطب فردا من المؤمنين بخطيئته أو ضعفه لكنه يوجه الخطاب الى الجماعة كلها وهي نظرة في منتهى السمو في الناحية الاجتماعية تؤكد وحدة الجماعة وكتلتها وتماسكها .

قال تعالى « و يوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم » وجه الخطاب للجماعة كلها وقال

تعالى في احد « حتى اذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون »

وقال تعالى في تبوك : « يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم الى الأرض » وفي هذه الآيات كان الذين أعجبتهم الكثرة نفر يسير والذين فشلوا وتنازعوا كذلك والذين اثاقلوا الى الأرض فريق من المؤمنين بدليل قوله تعالى (من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم) .

التربية عملية ميدانية :

والملاحظة الثانية ان التربية القرآنية كانت تربية علمية في ميدان الجهاد لم تتنزل الآيات والأصحاب في قاعة محاضرات يستمعون كما يستمع شبابنا وقلوبهم لاهية يحتل سويداءها شغلها ومهامها خارج القاعات ، ولم تكن تتنزل الآيات الكريمة والأصحاب في خلواتهم مشغولون بجهاد نفوسهم وتربيتها تربية سلبية انعزالية ولكن الآيات الكريمة تنزلت وقلوبهم منصهرة بحوادث المعركة وهي معركة موت واستشهاد ونصر وغلبة و بيع للأنفس في سبيل الله .

ان ساعة في مثل هذه المواقف تعدل عشرات السنين ومئات السنين في مواقف أخرى لا يطل فيها شبح الموت ولا يخيم سلطانه .

إن التربية الحديثة تنادي بالتربية العملية ولكنها هذه التربية التي نتحدث عنها ليست تربية عملية فحسب ولكنها تربية والنفوس فيها قد بلغت ذروتها في بذل أقصى طاقاتها وأكبر استعداداتها .

ولقد انحرفت هذه الروح الأولى بعد القرون الأولى التي هي خير القرون ونمت لدى المسلمين مجاهدات ورياضات داخلها زيف كبير ومازجها انحراف غير يسير وفارقت المعاني الأولى التي رُبِّيَ فيها أصحاب رسول الله على حمل الرسالة و بث الدعوة والتأسي برسول الله عليه صلوات الله .

إن التربية الحقيقية هي تربية الجهاد في ميادين القتال ومنذ فارقت الأمة هذه التربية وعوضت عنها معاني أخرى فارقت الهدى الصحيح وفارقت قوتها وعزتها .

وبعد الملاحظتين السابقتين نقول : بدئت السورة الكريمة التي نزلت على اثر غزوة بدر بالعتاب وانتزعت المسلمين جميعا من المستوى العادي الى مستوى إيماني عالٍ سامق رفيع وكل ذلك لمهمة عالية يقوم هؤلاء الأصحاب و يقدمونها للإنسانية و يضربون مثلا خالدا لكل من اراد ان يلحق بهم من بعدهم ، كان له طابعه وكانت له ميزاته .

ان التربية في بدر كانت تربية للجماعة حين يصيبها النصر ويمكن ان نلاحظ بأن الغرض ههنا الحفاظ على النصر (اولا) وصون الجماعة من غوائل الظفر (ثانيا) والاستفادة من موقف النصر (ثالثا) لدفع الجماعة دفعا قويا الى نصر يليه نصر من بعده نصر .

غوائل النصر

أما غوائل النصر فالاغترار بالقوة و بطر النعمة والاغترار يؤدي الى الركون والاستسلام وفتور العزائم وكل هذا يؤدي الى ضياع الجماعة ضياعا تاما وإنَّ نصرا كهذا النصر الذي يؤدي الى فتور العزائم خير منه الف مرة ضياع النصر .

ان المنتصرين في الحرب من شأنهم أن يملؤوا الدنيا عجيجاً وضجيجاً ومن شأن هولاء أن يكون نصرهم كاذباً سريع الذهاب .

والآيات الكريمة بعد بدر لا تذكر شجاعة المؤمنين ولا تصف إقدامهم ولا تشيد بمواقفهم بل لكأني بالآيات بعد أحد تذكر عن بعض المؤمنين ما لم تذكره الآيات الكريمة بعد بدر وهذا يوحي بأن ما تم من البطولات في أُحُد لم يتم مثله في بدر.قال تعالى في سورة آل عمران في الآيات التي تنزلت على اثر غزوة احد : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله و يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألاّ خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم الفرح للذين أحسنوا منهم واتقوا اجر عظيم »

وهذه الآيات الكريمة تذكر بأولئك الذين باعوا انفسهم وهم محيطون برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يدعو المؤمنين ان يرجعوا اليه ليرأب الصدع وليعيد الى الصف وحدته وليجمع شمل الجماعة الممزقة : الرسول ثابت ثبات الجبال وهؤلاء الأبطال من حوله يفدُّونه بصدورهم ونحورهم و يتساقطون حوله بعد أن يأتوا بما لا قِبَلَ للناس به و بثبات

هؤلاء صدت هجمات المشركين في احد وكتب الله السلامة لأصحاب محمد عليه الصلاة والسلام .

لم تذكر الآيات شيئا من أعمال المؤمنين في بدر ولكن ذكرت عتاباً أليماً موجعاً يحمل المؤمنين على الرجوع الى أنفسهم والاستحياء من ربهم وهنالك نقاط أرسلت الآيات أضواءها عليها و بينت نواحي الضعف فيها بيانا جليا قو يا بتصو ير ما في النفوس و وصفه وصفاً دقيقاً رائعاً تشاهد العين فيه الحركات والخلجات ، وكل ذلك من شأنه أن ينبه ضمير المؤمن ليلمس المسافة بينه و بين درجة الايمان التي يهفوا قلبه للوصول إليها .

ولقد كانت الآيات من تربية الحكيم العليم و يشعر الذوق السليم ههنا روعة الأسلوب في عرض العتاب بغير عتاب ولكنه بتصو ير ما فى النفوس تصو يراً يوقن معه العادي من الناس أنه ما كان لمؤمن صحيح الايمان ان يتصف بها ولذلك اقترنت الآيات بتقديم خصائص الايمان العالية وميزاته الرفيعة التي تصور الفجوة البعيدة بين المؤمن و بين أي إسفاف « إنما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون »

ما ذكرت الآيات عتاباً ولكنها ذكرت واقعاً وكان ذكر الواقع ابلغ من كل عتاب . قال تعالى : « يسألونك عن الأنفال »وفحوى الخطاب ما كان لهم ان يسألوا هذا السؤل . وقال تعالى : « كما اخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون يجادلونك فى الحق بعد ما تبين كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون »

وهذا وصف بالغ الغاية في تصو ير الجزع والرعب صورة أُناسٍ يساقون الى الموت سوقا لا مفر منه وهم يرون الموت بأم اعينهم .

وقال تعالى : « وتودون ان غير ذات الشوكة تكون لكم (١) » وهذا تصو ير لضعف في النفوس .

أليس عجيباً أن يغلب ثلا ثمائة رجل على ضعفٍ وقلةٍ في الزاد والعتاد والأهبة ألف رجل هم من أشد الرجال قوة ومراسا ثم لا يذكر عملهم بشيء، وإن ذكر فيذكر فضل الله

---

(١) : والشوكة القوة وتطلق على كل حديد من السلاح .

يقول تعالى : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم » وهذه الآية الكريمة تستل من المؤمنين كل رؤية للنفس وكل نزعة تريد أن تستعلي وتملأ الدنيا بقولها« فعلت وفعلت »

وهكذ يقدم المؤمن نفسه ودمه و يقدم أخاه وابنه ثم يتطامن خاشعا خاضعاً لا يشمخ بأنفه ولا يسمح لنفسه بأن تشعر باستعلاء في الارض أو كبر على الناس وهذه هي الانسانية بأسمى معانيها وليس هذا لأحد إلا للمؤمن .

دفعت الآيات الكريمة عن المؤمنين أى شعور بالاستعلاء وصرفت عن أنفسهم كل معنى من معاني الغرور و بسطت أمامهم نفوسهم أو نفوس فريق منهم وما بينها و بين الايمان الصحيح من درجات وإذا جاء ذكر الثناء مصورا بصورة المن والفضل بما انعم الله ليس ثناء مستقلا ، الثناء عليهم ان الله منّ عليهم فاستجاب دعاءهم ونزل عليهم الماء ليطهرهم وأنزل الملائكة لتثبتهم ، وجمع بينهم و بين عدوهم لأمر كبير دبره الله وقدره .

« وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم و يريد الله أن يحق الحق بكلماته و يقطع دابر الكافرين » .

«اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم »

«وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم »

« اذ يغشيكم النعاسَ أمنة منه و ينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به و يذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم و يثبت به الأقدام »

« اذ يوحي ربك الى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا »

ثناء عن طريق الاشارة

في الآيات ثناء بأن الله جل شأنه قد اختار هذه الصفوة لأمر عظيم فليس بدعاً أن تغلب المشركين وإن كثر عددهم ، وليست هذه كل مهمتها ولكنها أعظم من ذلك بكثير مهمتها الدنيا بأسرها والناس جميعاً ، وكل هذا لا بد له من تربية قوية جدا تجلت في الآيات الكريمة بعتاب لتنزل بعض المؤمنين عن مرتبة الايمان الشامخة .

وثناء عن طريق الاشارة لا بصريح العبارة بل هو في الواقع بيان لمنّ الله وفضله جل شأنه وحسن تدبيره وعظيم لطفه وعنايته بهم ، واعقاب ذلك كله نداءات متوالية ودفع

عظيم يحدو بهم الى السير بعيدا في مراقٍ لا يصعد اليها الا الخيار من الخيار ممن اصطفى الله .

والأمر الثاني وحدة الجماعة وقوة تماسكها و ولاية أفرادها بعضهم لبعض .

وقد قدمت الآيات الكريمة هذا الأمر وهو وحدة الجماعة ومهدت به لذكر الأمر الأول وكان أول ما طولب به الأفراد تقوى الله وإصلاح ذات البين وطاعة الله ورسوله وقد طولبوا بهذا كله إن كانوا يحملون رسالة الايمان فرسالة الايمان تستلزم هذه المعاني استلزاما ضروريا.وقوله تعالى « ان كنتم مؤمنين » سؤال لا يمكن ان يجيب المؤمن عنه الا بالايجاب اذ ليس من السهل ان يتخلى المؤمن عن ايمانه واذا أجاب فلابد من ان يحمل اعباء هذا الايمان .

بدئت السورة الكريمة بالدعوة الى إصلاح ذات البين دعوة صريحة حاسمة وختمت السورة الكريمة بولاية المؤمنين بعضهم لبعض : « ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا اولئك بعضهم اولياء بعض » والآية الكريمة في ختام السورة تقرر واقعا وفي تقرير هذا الواقع ابلغ اسلوب في فرضه والمطالبة بالتزامه ذلك ان تقرير هذا الواقع يدل على ان حمل رسالة في الجماعة متوقف على هذه الولاية فإن وجدت وجد الايمان وإن عدمت تعرضت هذه الرسالة لصدع كبير .

اما الموضوع الأول وهو حمل الرسالة فقد عالجته الآيات الكريمة بعد الدعوة الى التقوى واصلاح ذات البين وطاعة الله ورسوله وقد قرنت الآيات الكريمة بين الموضوعين وربطت بين السياقين وجعلت احدهما شبيها بالآخر إذ جاءت كاف التشبيه في الوسط تعلن مساواة احدهما للآخر قال تعالى « كما اخرجك ربك من بيتك بالحق وان فريقا من المؤمنين لكارهون » . ثم انطلقت الآيات الكريمة في بناء حمل الرسالة في نفوس الاصحاب بناء راسخا كاملا .

يقول الشيخ شلتوت في تفسيره : « بدأت السورة بموضوع الأنفال واختلافهم في قسمتها وسؤالهم عنها فساقت في ذلك أربع آيات عالجت بها نفوس المؤمنين وتطهيرها من الاختلاف الذي ينشأ عن حب **المال والتطلع** الى المادة » .... الى ان يقول : « ولأهمية هذا الموضوع في حياة المؤمنين بدأت به السورة وان كان اختلافهم في قسمة الأنفال

متـأخـرا فـي الـوجود عن اختلافهم في الخروج الى بدر وقتال الأعداء وقد عرفنا من سنّة القرآن في ذكر القصص والوقائع أنه لا يعرض لها مرتبة حسب وقوعها ...»

عـلـى ان فـي مـوضـوعنا هذا فائدة اخرى للبدء بمسألة الأنفال وهي المسارعة من أول الأمر بنتائج النصر الذي كفله الله للمؤمنين وليس من تربية النفوس ان نبدأ الكلام معها بمـا يدل عـلى الاضطراب والفزع والتردد امام وسائل العزة والشرف متى وجد لهم بجانب هذا التردد ما يدل على مواقف الشرف والكرامة فجاء البدء بالحديث عن الأنفال أشبه بما يـقـولـون مـن « بـراعة المطلع » التي تشوق السامع وتدفعه الى التحلي بالأوصاف المذكورة للمؤمنين حتى يفوزوا بالنصر والغلب .

ولا كـذلـك اذا بـدئـت بعلاج تثاقلهم في الخروج الى الغزوة وانظر كيف يكون وقع المـطـلـع اذا جـاء عـلـى هـذا الـوجـه « كما اخـرجك ربك من بيتك بالحق وان فريقا من المؤمنين لكارهون يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون » .

ونـوافق الشيخ رحمه الله على ما ذكر من عدم اهتمام القرآن بالترتيب الزمني والتربية الحـديـثـة تـعرف هذا الموضوع ولا تعطي الأهمية الكبرى في وضع المناهج وترتيبها للترتيب المـنـطقي ولكنها ترى اتباع ترتيب حيوي وذلك بالبدء من نقطة تحتل مركز الانتباه وتسيطر على اهتمام الأفراد وتوجه تفكيرهم .

ولـيـس مـن عجب أن تهتدي التربية الحديثة بعد قرون متطاولة الى بعض امور يسيرة فـي الـتـوجـيـه ووسـائل التربية سار على نهجها القرآن في عصور لم تكن تعرف ثقافة ولا عـلما ، عـلـى أن الفارق ما يزال كبيرا جدا لقد استعمل القرآن الوسائل الصحيحة لأشرف الـغـايـات وأجـلها وتربية هؤلاء مهما دقت أساليبها ليست الا لخدمة مبادىء وصفوها من ديمقراطية أو اشتراكية وغيرها لا تنطوي إلا على دمار البشرية .

كـانـت الـنـقطة الهامة التي كانت موضوع الأخذ والرد في المعسكر الاسلامي كيف تـوزع الغنائم بين المقاتلين أيعطى الشبان ما وعدهم رسول الله ام يسوى بينهم و بين الشيوخ ومن الطبيعي أن افراد المعسكر جميعا شاركوا في الاهتمام في الموضوع وان كانت المناقشة دائرة بين قلة من الأفراد .

ومن هنا انطلقت الآيات الكريمة.فالموضوع كان موضوع الساعة بعد الموقعة والى جانب كونه موضوع الساعة كان من الأهمية بمكان ذلك أنه يهدد الجماعة ويهدد الظفر الذي أصابته الجماعة ولذا كان حر ياً بأن ينال قسطه من الاهتمام ويُجْعَلَ مركز البحث وأول نقاطه ، وقد عالجته الآيات الكريمة معالجة قوية حاسمة ثم انتقلت الى الموضوع الثاني فأفاضت في معالجته .

كانت معالجة الغنائم سريعة ولكنها كانت بمنتهى القوة والحزم إذ أوضحت ان الموضوع موضوع ايمان فإما استمساك بالايمان واداء لشروطه واما اهمال وضياع لا يرضى بهما المؤمن بحال ، ثم كانت معالجة ما وقع للمؤمنين من تردد في مقالة الموت واستجابة لله وللرسول وكانت معالجة ضافية تنوعت فيها الأساليب وتعددت الادلة وعرضت فيها خفايا النفوس وخلجات القلوب والأوضاع المختلفة والاحوال المتباينة حال المسلمين من قبل وحال المشركين مع رسول الله ومع المؤمنين وذكر ما امتن الله به على المؤمنين من اسباب النصر ثم نودي المؤمنون نداءات قوية متنزلة من عل ألا يفروا من الموت اذا لاقوا الموت ، وبين الموضوعين جزء مشترك والتوجيه فيهما مشترك والنداء واحد هو الايمان بالله ورسوله فهو يؤدي الى طاعة الله ورسوله والاستجابة لله ورسوله ، وهو يؤدي الى عدم تعلق العبد بالدنيا فما عند الله خير وأبقى ولن يضيع الله تباركت اسماؤه عبداً يعمل في سبيله لن يضيعه في الدنيا ولا في الآخرة ، وعدم الخوف من الموت لأن تقديم المؤمن نفسه في سبيله تعالى اعظم شرف له وهكذا يدور البحث حول الجهاد بالنفس والمال وتقديم الأموال والأنفس وقد بدأت الآيات بتربية الجهاد بالأموال وثنت بتربية الجهاد بالأنفس .

كان موضوع الغنائم بعد انتهاء المعركة موضوع الساعة ومن طبيعة النفوس بعد الظفر الذي لم تكن تحلم به والغلبة على العدو التي لم تكن تتوقع من طبيعة النفوس ان تدركها نشوة الظفر وان يكون لهذه النشوة شيء من الأثر باعتزازها بما صنعت واعجابها بما قدمت ولعل من آثار ذلك ونتائجه ما وقع بين الأصحاب من سؤال ونقاش .

وإنها لتجربة يمر بها الأصحاب رضوان الله عليهم لابد من الاستفادة منها كان الذي حصل أثراً من آثار غريزة الحرص وغريزة الاستعلاء وكانت العوامل المساعدة له من نوعين احدهما الحاجة الملحة التي كانت تضع ثقلها على الأصحاب جميعا وثانيهما اعتزاز الفرد بما قدم من بلاء حسن .

وعلى الآيات الكريمة ان تصرف هذه الغرائز عن وجهتها وان تصعد بها فتبدلها برغباتها رغبات اسمى منها .

الآيات الكريمة تذكر هذه النفوس بايمانها بالله ربها وهنا تذوب الرغبات وتضمحل النزعات وتتضاءل الدنيا و يصغر الاعتزاز بكل شيء سوى الاعتزاز بما عند الله .

الأنفال لله ، والرسول ، يضعها حيث شاء و يوزعها كيف يشاء فأريحوا قلوبكم من العناء في التفكير فيها ، ووجهوا همكم لأمر أعلى وأكبر ، وجهوا همكم الى بناء الجماعة التي تنتمون اليها ليكون بناء قو يا متماسكا يواجه الدهور و يواجه الناس جميعا إن تفكيركم وحده بالأنفال تنزل عن مرتبة الايمان الرفيعة التي يجب ان تتبوّؤوها (فاتقوا الله) واعلموا ان مثل هذا التفكير يعرّض بنيان جماعتكم بشيء من التصدع (فاتقوا الله) وانزعوا عن مثل هذا التفكير (واصلحوا ذات بينكم) .

وماذا فعلت هذه الآيات في قلوب اصحاب رسول الله ؟ لقد انتزعت بلا ر يب كل حرص وكل خلاف وسمت بالقلوب الكريمة الى امر أجل وأعلى .

وكان من بعد هذه الآيات الكريمة وصف لما تم في المعركة من كراهية فر يق من المؤمنين للقتال ، واستغاثة واستجابة وإمداد بالملائكة ونصر وكان من بعد ذلك نداءات من عند الله موجهة الى الذين قبلوا الاسلام دينا وحملوا راية الايمان ودعوة الايمان وكانت نداءات متكررة كل نداء فيها يصدع الجبال .

ترى ماذا فعلت هذه النداءات في قلوب الأصحاب الكرام ؟ كانت نتيجة هذه التربية ان هانت الدنيا وهانت الأموال وهانت النفوس وعز الايمان وعزت العقيدة وارتقت القلوب وتآخى المؤمنون .

التقوى جماع الخير كله

قال تعالى « فاتقوا الله »

كان اول ما دعي اليه الأصحاب رضوان الله عليهم بعد ان اعلموا بأن الانفال لله والرسول تقوى الله والتقوى جماع الخير كله وهي وصية الله في الأولين والآخر ين والأمر بها شأن عام على ألسنة جميع الرسل وموجبات تقوى الله والخوف منه عامة في جميع الأمم

و بذلك التقت الرسل اولهم مع آخرهم على قوله تعالى أفلا تتقون ، فاتقوا الله واطيعون .

ومعنى اتقاء الله تعالى اتقاء عذابه وعقابه وانما تضاف التقوى الى الله تعالى تعظيما لأمر عذابه وعقابه .

ودفع عذاب الله باجتناب ما نهى واتّباع ما أمر وذلك يحصل بالخوف من العذاب ومن المعذب يقول السيد رشيد رضا : « ان العقاب الإلهي الذي يجب على الناس اتقاؤه عقاب في الدنيا وعذاب في الآخرة وكل منهما يتقى بتجنب أسبابه وهي نوعان : مخالفة دين الله وشرعه ، ومخالفة سننه في نظام خلقه الى ان يقول : وذلك مبين في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وافضل ما يستعان به على فهم الكتاب والسنة واتباعهما سيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين والأئمة الأولين من آل الرسول وعلماء الأمصار .

شأن المؤمن ان يتقي الله حق تقاته

يقول ابن كثير عند قوله تعالى « يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته » قال ابن ابي حاتم حدثنا محمد بن سنان حدثنا عبد الرحمن عن سفيان وشعبة عن ز بيد اليامي عن مرة عن عبد الله بن مسعود (اتقوا الله حق تقاته قال ان يطاع فلا يعصى وان يذكر فلا ينسى وان يشكر فلا يكفر) .

يقول ابن كثير وهذا اسناد صحيح موقوف (١)

يقول ابن كثير وقد روى الحديث ابن مردو ية (٢) من حديث يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب عن سفيان الثوري عن زبيد عن مرّة عن عبد الله قال : قال رسول الله

---

(١) : اما رجال اسناده فهم محمد بن سنان الباهلي وهو ثقة ثبت (خ د ق ت) وشعبة بن الحجاج الحافظ المتقن كان الثورى يقول فيه امير المؤمنين في الحديث (ع)

وزبيد اليامي ثقة عابد (ع) ومرة بن شرا حيل الهمداني هو الذى يقال له مرة الطيب لصلاحه وهو ثقة عابد (ع) وهو الذى يروى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

يقول ابن كثير وقد تابع مرّة عليه عمرو بن ميمون عن ابن مسعود وعمرو بن ميمون الأودى مشهور ثقة عابد (ع) . جاء في تفسير ابن كثير حدثنا عبد الرحمن بن سفيان وهذا خطأ وصوابه عبد الرحمن وهو ابن مهدى عن سفيان وهو الثورى

(٢) : الحافظ الثبت العلامة صاحب التفسير والتاريخ وعمل المستخرج على صحيح البخارى وكان قيما

صلى الله عليه وسلم « اتقوا الله حق تقاته أن يطاع فلا يعصى و يشكر فلا يكفر و يذكر فلا ينسى » (٣)

قال ابن كثير: ورواه الحاكم في مستدركه (٤) من حديث مسعر عن زيد عن مرة عن ابن مسعود مرفوعا فذكره ثم قال صحيح (٥) على شرط الشيخين ولم يخرجاه كذا قال « والأظهر أنه موقوف والله اعلم » (٦).

= بمعرفة هذا الشأن بصيرا بالرجال طويل الباع مليح التصانيف ٣٢٣ ـ ٤١٠

(٣): وهذا الاسناد اسناد صحيح ايضا فيونس ثقة م س ق وعبد الله بن وهب صاحب مالك فقيه ثقة حافظ عابد (ع) ومدار السند على زبيد عن مرّة ايضا

(٤): في كتاب التفسير ٢٩٤ / ١٢

(٥): ووافقه الذهبي

(٦): واقول: قد وافق الذهبي الحاكم في تصحيح الحديث وأنه على شرط الشيخين وأما قول ابن كثير « الأظهر انه موقوف » فالذى يبدو ان الذى حمله على ذلك ان مدار الحديث في كل رواياته على مرّة بن شراحيل فهو الذى رواه عن عبد الله بن مسعود واكثر الرواة عنه وقد ذكرهم ابن جرير الطبرى قد رووا الحديث موقوفا على عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

والفرق بعيد بين أن يكون الحديث من كلام الرسول عليه الصلاة والسلام فهو من مشكاة النبوة وعلينا حينئذ أن نأخذ به على أنه شرع من عند الله معصوم من الخطأ و بين أن يكون من كلام الصحابى فهو فهم للصحابي رضي الله عنه لكلام النبوة ومعاني النبوة واذا ثبت ان قولا من فهم الصحابي ورأيه واجتهاده فليس الأخذ به واجبا وليست العصمة له من الخطأ ثابتة، وكان الإمام أحمد رحمه الله اذا وجد لبعض الصحابة فتوى لايعرف له مخالف فيها لم يعدها إلى غيرها فإذا اختلف الصحابة تخير من اقوالهم ما كان اقربها الى الكتاب والسنة ولم يخرج عن اقوالهم. يقول ابن القيم في اعلام الموقعين (ج ١ ص ٨٠).

قال الشافعي رحمه الله في رسالته البغدادية التي رواها عنه الحسن بن محمد الزعفراني عن الصحابة رضوان الله عليهم.

أدّوا الينا سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم وشاهدوه والوحي ينزل عليه فعلموا ما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم عاما وخاصا وعزما وارشادا وعرفوا من سننه ما عرفنا وجهلنا، وهم فوقنا في كل علم واجتهاد وورع وعقل وأمرا استدرك به علم واستنبط به وآراؤهم لنا أحمد وأولى بنا من رأينا عند انفسنا....

اقول: الذى يبدو ان الذى حمل ابن كثير على قوله الأظهر وقف الحديث السابق على عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن اكثر الرواة رووا الحديث عن مرة بن شراحيل موقوفا على عبد الله بن مسعود =

وقال القرطبي :

روى البخاري عن مرة عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حق تقاته ان يطاع فلا يعصى وان يذكر فلا ينسى وان يشكر فلا يكفر وقال ابن عباس هو ألا يعصى طرفة عين ، وذكر المفسرون انه لما نزلت هذه الآية قالوا يا رسول الله من يقوى على هذا ؟ وشق عليهم فأنزل الله عز وجل « فاتقوا الله ما استطعتم » فنسخت هذه الآية ، عن قتادة والربيع وابن زيد.يقول القرطبي : وقيل ان قوله « فاتقوا الله ما استطعتم » بيان لهذه الآية والمعنى فاتقوا الله حق تقاته ما استطعتم يقول القرطبي وهذا أصوب لأن النسخ انما يكون عند عدم الجمع والجمع ممكن فهو أولى .

وقال ابن الجوزي (1) قال ابن عقيل ليست منسوخة لأن قوله ما استطعتم بيان لحق تقاته وأنه يحسب الطاقة فمن سمى بيان المراد نسخا فقد اخطأ ، وهذا في تحقيق الفقهاء تفسير مجمل و بيان مشكل . وذلك ان القوم ظنوا ان ذلك تكليف ما لا يطاق فأزال الله إشكالهم و بين أنه جل شأنه لم يرد بقوله تعالى (حق تقاته) تكليف ما ليس في الطاقة وقال ابن الجوزي في « عمدة العالم الراسخ والناسخ » في الآية قولان : أحد هما انها منسوخة والى هذا ذهب الربيع بن انس وابن زيد ومقاتل بن سليمان ومن نصر هذا القول قال : حق تقاته هو القيام له جل شأنه بجميع ما يستحقه من طاعته واجتناب معصيته قال وهذا امر يعجز الخلائق فكيف بالواحد فوجب ان تكون منسوخة وان يعلق الأمر بالاستطاعة .

والقول الثاني انها محكمة ومن نصر هذا القول قال حق تقاته هو اجتناب ما نهى عنه وامتثال ما امر به ولم ينه عن شيء ولا امر بشيء الا وهو داخل تحت الطاقة فقد فهم الأولون من الآية تكليف ما لا يطاق فحكموا بالنسخ ، وقد رد عليهم قوله تعالى « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » .

و يقول ابن جرير الطبري اختلف اهل التأو يل في هذه الآية : اهي منسوخة ام

= رضي الله عنه إلا الثورى عند ابن مردو يه ومسعرا عند الحاكم فقد رو يا الحديث كلاهما عن زبيد عن مرة عن عبد الله مرفوعا إلى رسول الله عليه صلوات الله وسلامه والثورى ومسعر ثقتان لا يتوقع منهما الوهم وقد رو يا الحديث مرفوعا فالأولى قبول روايتهما وذلك هو مذهب المحدثين

(1) : انظر دليل الفالحين ١/٢٤١

لا ؟ فقال بعضهم هي محكمة غير منسوخة وعزا ذلك بإسناده الى ابن عباس وطاوس .

وقال آخرون هي منسوخة نسخها قوله تعالى « فاتقوا الله ما استطعتم »

وعزا هذا القول بسنده الى قتادة ثم الربيع بن انس ثم ابن زيد ولم يقدم في ذلك رأيا . ويقول الشيخ احمد محمد شاكر رحمه الله في تعليقه :

ترك ابو جعفر رحمه الله ترجيح احد القولين على الآخر وكان حقا عليه ان يبينه وقد بينه ابو جعفر النحاس [1] في الناسخ والمنسوخ (٨٨ ، ٨٩) قال بعد ان ساق الأثر الذي جاء فيه عن عبد الله (اتقوا الله حق تقاته) قال « ان يطاع فلا يعصى ويذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر » وبعد رواية قول قتادة في النسخ قال ابو جعفر : محال ان يقال هذا ناسخ ولا منسوخ الا على حيلة وذلك ان معنى نسْخ الشيء إزالته والمجيء بضده فمحال ان يقال « اتقوا الله » منسوخ ولا سيما مع قول النبي صلى الله عليه وسلم مما فيه بيان الآية كما قرأ على احمد بن محمد بن الحجاج عن يحيى بن سليمان قال حدثنا ابو الأحوص قال حدثنا ابو اسحاق عن عمرو بن ميمون عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد ؟ قلت الله ورسوله أعلم . قال ان يعبدوه ولا يشركوا به شيئا [2] أفلا ترى انه محال ان يقع في هذا نسخ ...

قال ابو جعفر فكل ما ذكر في الآية واجب على المسلمين ان يستعملوه ، ولا يقع فيه نسخ ، وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم « ان يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا » وكذا على المسلمين كما قال ابن مسعود « ان تطيعوا الله فلا تعصوه ، وتذكروه فلا تنسوه وان تشكروه فلا تكفروه ، وان تجاهد فيه حق جهاده»

واما قول قتاده مع محله من العلم انها نسخت فيجوز ان يكون معناه نزلت (فاتقوا الله ما استطعتم) بنسخه (اتقوا الله حق تقاته) وانها مثلها لأنه لا يكلف احدا الا طاقته .

---

(١) : (٠٠ ـــ ٣٣٨هـ) احمد بن محمد بن اسماعيل مفسر اديب له تفسير القرآن ، اعراب القرآن ، ناسخ القرآن ومنسوخه

(٢) : عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار فقال لي يا معاذ اتدرى ما حق الله على العباد ، وما حق العباد على الله ؟ قلت الله ورسوله اعلم قال حق الله على العباد ان يعبدوه ولا يشركوا به شيئا وحق العباد على الله الا يعذب من لا يشرك به شيئا قلت يا رسول الله افلا ابشر الناس قال لا تبشرهم فيتكلوا . اخرجاه في الصحيحين .

قال القرطبي :

« وقد روى علي بن ابي طلحة عن ابن عباس قال : قول الله عز وجل يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته لم تنسخ ولكن حق تقاته ان يجاهدوا في سبيل الله حق جهاده ولا تأخذكم في الله لومة لائم وتقوموا بالقسط ولو على انفسكم وابنائكم ».

من صفات المتقين الإيمان بالغيب

كان اول ما دعي اليه اصحاب رسول الله في التربية القرآنية بعد سؤالهم عن الأنفال « تقوى الله » وخير تعريف للمتقين ما جاء في كتاب الله فقد قال تعالى : « هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب »

وقال تعالى « ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون »

فمن صفات المتقين انهم يؤمنون بالغيب ومن صفاتهم انهم اذا ألمّ بهم طائف من الشيطان ليحملهم بوسوسته على معصية او لينزغ بينهم لايقاع الخصومة والتفرقة تذكروا ان ذلك من عدوهم الشيطان واغوائه وتذكروا ما امر الله به في هذه الحال من الاستعاذة بالله والالتجاء اليه وتذكروا ايضا ما امر الله به وما نهى عنه وتذكروا وعد الله ووعيده ما وعد به المتقين وما توعد به العاصين وتذكروا عقابه جل شأنه وجزيل ثوابه .

يتذكر العبد المؤمن فإذا هو مبصر أي ذو بصيرة وعلم يربأ بنفسه ان يكون فريسة للشيطان أو يقع في بعض أحابيله ، وان الشيطان انما تأخذ وسوسته الغافلين عن انفسهم الذين لا يحاسبونها على خواطرها الغافلين عن ربهم لا يراقبونه في اعمالهم .

يقول السيد رشيد رضا في تفسيره الآية الكريمه :

« ولا شيء اقوى على طرد الشيطان من ذكر الله تعالى بالقلب ومراقبته جل شأنه في السر والجهر ، واذا وجد الشيطان بالغفلة مدخلا الى قلب المؤمن المتقي لا يلبث ان يشعر به لأنه غريب عن نفسه ومتى شعر ذكر فأبصر فخنس الشيطان وابتعد عنه وان اصاب منه غرة قبل تذكره تاب من قريب » .

وهكذا وصف الله جل شأنه المتقين بأنهم يتذكرون والتعبير بإذا الفجائيه يفيد سرعة رجوعهم الى الحق والى الخير وسرعة ادراكهم للموقف وما يحيط به وشعورهم بأنهم اشرفوا

على حافة الانزلاق ، وهذا الادراك للموقف يغير وضع المؤمن في الحال وتنقلب النفس التي كان الشيطان آخذاً باغوائها وتز يين المحرم لها الى نفس يقظة تلوم صاحبها على ما كان منها وتنظر الى الأمر الذي اغر يت به فتراه على حقيقته أسود كريهاً وتراه سببا في شقائها فتسرع الى تجنبه لتنجو من الشر ولتنصرف بكل عزيمتها الى الخير.

هذا التذكر الذي وصفته الآية الكريمة ليس امرا يسيرا وليس بمقدور النفوس جميعا اذا تصدى الشيطان لاغوائها فأصغت اليه ان تعي امرها وتتذكر ربها ، فهنالك نفوس شر يرة عاتية لا تر يد أن تتذكر ابدا بل هي تسخر ممن يذكرها ومما تذكر به وهذه هي النفوس الكافرة الفاجرة وهي شر من الدواب والبهائم وهنالك نفوس كنفوس الأطفال لا تملك ان تدفع عنها سلطان الشهوة المسيطر عليها ومثل هذه النفوس لا تتذكر وحدها ابدا وهي بحاجة الى من يذكرها و يروضها و يدربها .

وهنالك النفوس المؤمنة الواعية المدركة التي مرت بها التجارب وحنكتها الدروس والمواعظ هذه تكون سر يعة التذكر سر يعة الفيء الى طاعة الله ورسوله وتتفاوت هذه النفوس في سرعة رجوعها الى الحق وفي نقاط الضعف لديها فبعضها مثلا سر يع الفيء اذا دعتة داعية الى الحرص على المال ولا يتذكر بالسرعة نفسها اذا دعت داعية شهوة جنسية و بعضها يتذكر في هذه وفي تلك ولكنه ينسى تمام النسيان اذا غضب أو مست كرامته ولا بد للمؤمن من ان يكون له بصيرة ينظر فيها الى نفسه والى اخطائه وعيوبه نظرة الباحث الناقد الممحص المنصف ولا بد له من معالجة نفسه بأنواع العلاج ، وتجربة الألم و وخز الضمير.

ومن كل هذا يتبين ان الموضوع يحتاج الى دربه والى خبرة فقد يقع من الشاب المؤمن ان يتعذر عليه في أول أمره غض بصره وصرفه عن النظر الى محرم ولكنه لا يزال اذا كان مؤمنا ، يؤذيه **حاله** ذلك و يؤلمه ، ولا يزال يبحث عن الأسباب التي توقعه في هذا المحرم حتى يستطيع **ان** يتغلب على الأمر المشكل تغلبا تاما ، وكثيرا ما يحتاج الشيطان بحيلة يسوغ فيها للمرء الوقوع في المنكر كأن يقول له انت تنظر الى هذه الفتاة لأن لك رغبة في خطبتها وفي مثل هذه الأحوال كثيرا ما ينجح الشيطان في إغوائه فينقله من فتاة الى فتاة وهنا يحتاج الموقف الى النظر الحصيف والرأي السديد وان يقول المرء لنفسه هذا اسلوب

ملتوٍ والحزم ان تترك الطرق الملتوية وتطلب الحجه البيضاء والجادّة الواضحة المستقيمة .

كل هذا يدل على أن التقوى ليست كما يظن الناس مظهر خاشع وسلوك متواضع ولكنها خبرة ودربة ورياضة طويلة يسير بها العقل الحصيف الناقد و يقترن بها الوجدان النقي والارادة الحاسمة .

هنالك مواطن يلتبس فيها الأمر على المتقين أهي حلال ام حرام وهنالك مواطن يظنها الظان أنها وسائل الى الخير وهي محرمة والقاعدة المشهورة « الوسيلة تبرر الغاية » قاعدة خاطئة تزل فيها الأقدام ويخدع المرء عن نفسه وقد قال عليه الصلاة والسلام (من اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه) . وهنا يحتاج المرء الى عقل حصيف ووجدان نقي وارادة نافذة فاذا تمت للمرء هذه كلها تمت له التقوى .

وهكذا تنقص تقوى المرء لنظره القاصر وضعف تقديره للأمور وكثيرا ما يكون هذا النظر القاصر بسبب غلبة الهوى و يكون العقل في هذه الحال مسخرا للهوى يدلي بالحجج التي يمليها الهوى و يكون عاجزاً عن رؤية الحق أو على الأصح يكون عاجزا عن إظهار الحق لأن سيطرة الهوى غالبة ومعنى ذلك أن وجدان هذا الانسان قد اعتراه خلل واختلت فطرته النقية التي شأنها ان تميز الخير من الشر .

وقد يكون نقص التقوى لضعف الارادة وفشل العزيمة وهذه مردها ايضا الى غلبة الرغبات وتسلط الهوى .

وكل ما سبق يحتاج الى دراية ورياضة فالوجدان تزيده التربية وضوحا ونقاء وتزيده قدرة على التميز بين الخير والشر وتزيده قدرة على التعلق بالخير والانصراف عن الشر وهذه التربية التي تربي هذا الوجدان لا يتم لها ذلك الا بتربية العقل وتدريبه على ادراك خفايا الأمور ودقائقها وكوامنها وكل ذلك يتمّ معه تربية الارادة .

وهكذا يظل المؤمن في علاج لنفسه وجهاد لرغباته واهوائه حتى ينتهي به الأمر الى ان تصبح التقوى مغروسة في نفسه وتصبح خلقا من اخلاقه وسجية من سجاياه ، وهنا يدرك ثمرة تقواه في ايامه كلها وهنا يرهف احساسه و يسمو وجدانه فيصبح سريع الادراك لمواطن الخير ولمواطن الشر خبيرا كل الخبرة بالتميز بينها و يصبح طبعه الخير وهواه

مع الخير وكراهيته للشر ونفوره منه و يكره أن يعود الى الكفر كما يكره أن يلقى في النار.

هذا المعنى جاء في قوله تعالى «يا ايها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا و يكفر عنكم سيئاتكم و يغفر لكم والله ذو الفضل العظيم»

قال ابن كثير: قال ابن عباس والسدى ومجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة ومقاتل بن حيان فرقانا مخرجا زاد مجاهد في الدنيا والآخرة وفي رواية عن ابن عباس (فرقانا) نجاة وفي رواية عنه نصرا. وقال محمد بن اسحاق و (فرقانا) اى فصلا بين الحق والباطل.

يقول ابن كثير: وهذا التفسير من ابن اسحاق أعمّ مما تقدم وهو يستلزم ذلك كله فان من اتقى الله بفعل اوامره وترك زواجره وفق لمعرفة الحق من الباطل فكان ذلك سبب نصره ونجاته ومخرجه من امور الدنيا وسعادته يوم القيامة وتكفير ذنوبها وهو محوها، وغفرها سترها عن الناس.

وسبباً لنيل ثواب الله الجزيل كقوله تعالى:
«يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به و يغفر لكم والله غفور رحيم»

الكفل: الحظ والتثنية إما على حقيقتها او هي كناية عن المضاعفة.
والنور هو ما يبصر من عمى الجهالة والضلالة و يكشف الحق لقاصده.

ثمرة التقوى

هذه ثمرة التقوى ونتيجتها في النفوس ملكة راسخة في النفس تستطيع بها الفصل بين الحق والباطل وتوفيق من الله لمعرفة الحق من الباطل ونور يبصرها بأوصاف الجاهلية و ينقذها من عمى الجهالة والضلالة و يكشف لها الحق.

هذه ثمرة التقوى رؤية الحق حقا ورؤية الباطل باطلا، وقد يحسب الناس ان ذلك امر يسير ومن ابصر ما عليه المسلمون اليوم من اعمال الجاهلية وهم مستهينون بها يحسبون أنها لا تضر العقيدة ولا تخالف الدين الصحيح، من رأى ما عليه المسلمون من عدم تمييز بين الحق والباطل عرف قيمة هذا المعنى وجليل خطره.

لا يزال العبد يتقي و يروض نفسه على التقوى حتى يصل الى ثمرة التقوى وهي نور يميز فيه بين الحق والباطل و يرى فيه الحق حقا والباطل باطلا .

والمسلمون اليوم أصبح الحق الذي بأيديهم مما نزل الله شبيها بالباطل بأعين الناس لعدم ادراكهم لحقائقه ومراميه وعدم تمييزهم بين صحيحه وز يفه .

التقوى هي ادراك دقيق ورأي حصيف و وجدان نقي يميز بين الخير والشر وارادة خيرة تلتزم جانب الحق وتعمل في سبيل الخير.

أُمر المؤمنون بعد موقعة بدر بأن يتقوا الله وجعل ذلك ممهدا للأمر باصلاح ذات البين وأمر المؤمنون في آل عمران وقد نزلت في السنة الثالثة من الهجرة بأن يتقوا الله حق تقاته وان يعتصموا بحبل الله جميعا ولا يتفرقوا .

وأُمر المؤمنون في سورة الحج بأن يجاهدوا في الله حق جهاده قال تعالى : « وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة ابيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل » .

وكلمة (حق الجهاد) و (حق التقاة) اصلها جهادا حقا وتقاة حقا وقد أضيف الحق الى الجهاد للمبالغة وليدل التركيب على القيام بالجهاد بكل شروطه ومستلزماته على وجه التمام والكمال بقدر الطاقة ، ومثل كلمة حق (كل) و (جد) فيقال انت عالم كل عالم وجد عالم وحق عالم وكلها تفيد انه يجتمع فيه من الخلال ما تفرق في الكل وأن ما سواه باطل أو هزل .

وهكذا يأمرنا جل شأنه ان نبذل جهدنا ونستفرغ وسعنا في العمل في سبيله في الجهاد والتقوى (١) ، والايمان والجهاد والتقوى تلتقي هذه كلها في صعيد واحد فقد روى علي بن ابي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى (اتقوا الله حق تقاته) ان تجاهدوا في الله حق جهاده ولا تأخذوا في الله لومة لائم ، وتقوموا بالقسط ولو على انفسكم وآبائكم روى هذا الأثر ابن جرير الطبري ورواه أبو جعفر النحاس ورواية علي بن ابي طلحة عن ابن عباس من اجود الطرق .

---

(١) : غرض التربية أن تصل بالفرد إلى نتيجة يمكن الحصول عليها وأكبر ثمرة يمكن أن يقدمها ولا يتحقق ذلك إلا بالاعتدال وليس الغرض من أن يستفرغ المرء جهده أن يجحف بنفسه و ينهك قواه ولكن الغرض أن يستخرج بالدأب والتنظيم خير ما عنده وأكمل ما عنه

وابن عباس في هذا يبين ان حق التقاة هي الجهاد في الله حق الجهاد ومن ذلك الصدع بالحق والدعوة الى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دون خشية ظلم ظالم أو بطش جائر.

امرتنا الآيات الكريمة ان نستخرج طاقاتنا الدفينة وقوانا الكامنة لتبذل في سبيل الله ومن عجب ان يذهب بعض المفسرين من المتقدمين أو المتأخرين الى أن كلا الآيتين منسوخ بقوله تعالى فاتقوا الله ما استطعتم ولقد نقلنا قول القرطبي من قبل في ذلك.

وفي قوله تعالى (وجاهدوا في الله حق جهاده) يقول القرطبي قال ابن عطية : قال مقاتل وهذه الآية منسوخة بقوله تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم).

لا نسخ في الآيتين

يقول القرطبي ههنا ولا حاجة الى تقدير النسخ فان هذا هو المراد أول الحكم لأن حق جهاده ما ارتفع عنه الحرج يقول القرطبي وقال ابو جعفر النحاس وهذا مما لا يجوز ان يقع فيه نسخ لأنه واجب على الانسان.

ونحن مع ابي جعفر النحاس بان مثل قوله تعالى (اتقوا الله حق تقاته) وقوله تعالى (وجاهدوا في الله حق جهاده) لا يجوز ان يقع فيه نسخ لأنه كما قال ابو جعفر من حق الله على عباده وهو مثل قوله عليه الصلاة والسلام أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا.

إن حقه تعالى أن نعبده وأن نجاهد في سبيله وان نبذل في كل ذلك غاية وسعنا وليس شيء من ذلك فوق حدود الطاقة وليس شيء من ذلك بالغ حد الحرج.

يرى ابو جعفر النحاس أن قوله تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم) هي كقوله تعالى (اتقوا الله حق تقاته) وقد نزلت الآية الأولى بنسخها وهي مثلهابنسختهالا بنسخها.

ونحن نأخذ هنا ايضا بقول النحاس بأن الآيتين تؤديان غرضا واحداً ومعنى واحداً فقوله تعالى فاتقوا الله ما استطعتم أي ما أطقتم و بلغ اليه جهدكم وطاقتكم وقال القاسمي أي جهدكم ووسعكم أي ابذلوا فيها استطاعتكم.

نقول حق الله تباركت اسماؤه ان نجاهد في سبيله ونبذل في ذلك اقصى طاقتنا

ونتقيه ونبذل في تقواه غاية وسعنا وهذا شأن المؤمن الذى آثر جانب الله جل شأنه على كل شيء سواه وانا نشاهد ان إنساناً يتبع إنساناً و يغرق في حبه واتباعه فيلقي بنفسه في المهالك في سبيله و يغرم إنسانٌ بموضوع أو بحث علمي و يستغرق فيه فينسى نفسه و ينسى متعه و يعيش لبحثه و يصبح ذلك همه الذي يشغله وتصبح تلك سعادته وتتضاءل الأمور جميعا الى جانب همه ، والمؤمن تعلقه بالله و وجهته الى الله وهو حين يقوى ايمانه وتهيمن عقيدته على قلبه تهون الدنيا في نظره ويهون المال ويهون الولد وتهون نفسه عليه في سبيل خالقه ، وهنا تمحى العقبات وان كانت كالجبال ، وهنا تنطلق طاقات المؤمن فيقدِم من الأعمال ما لا يستطيع أن يقوم به عشرة وعشرون بل مائة من الرجال ، ان استطاعة هذا الانسان مرنة ، وانه في الساعة التي يقول فيها ههنا ينتهي جهدي ربما دخل في الموضوع جديد فاذا الجهد غض والنشاط جديد ، توتر نفسي وانفعال حركي في سبيل حمل الرسالة (رب اشرح لي صدري) .

واذا غلبت العقيدة على القلب اصبح المؤمن انسانا آخر واصبح لا يقف في وجهه شيء .

تثمر التقوى طاعة الله وذكر الله وشكر الله و يصبح التقي طائعا لا يعصي، ذاكرا لا ينسى ، شاكرا لا يكفر وتثمر التقوي الجهاد في سبيل الله فيجاهد المتقي في الله حق جهاده ولا تأخذه في الله لومة لائم و يقوم بالقسط ولو على نفسه وآبائه وابنائه وتثمر التقوى التذكر عند الإشراف على خطيئة والنظر في الأمور نظرة مبصرة وذلك يؤدي الى الإقلاع عن الخطأ والرجوع الى مرضاة الله واكبر ثمراتها نور يقذف في قلب المتقي يميز به الحق من الباطل و يعرف به الخير من الشر .

وهكذا تدخل التقوى في مجالات الحياة كلها في حالة وجود الفرد وحده او مع اهله و بنيه وفي حالة وجوده في عمله وقيامه بواجباته واتصاله باخوانه وفي إنصافه من نفسه وفي سعيه لوحدة الجماعة التي يعيش في كنفها .

ولقد كان ما وقع بعد موقعة بدر من مطالبة الشبان بما وعدهم رسول الله عليه صلوات الله ومعارضة بعض الشيوخ لذلك ، كان ما وقع مما يمكن ان يهدد الجماعة الناشئة الظافرة ولذلك بادرت الآية الكريمة الى تذكير المؤمنين بتقوى الله ، ولقد سمع المؤمنون الكثير عن

تقوى الله سمعوا كل ما سبق ذكره ، ففاؤوا الى امر الله والى طاعة الله .كان الأمر الأول تقوى الله وكان الثاني اصلاح ذات بينهم وكان الثالث اطاعة الله وقد رأينا أن طاعة الله ثمرة من ثمرات التقوى واصلاح ذات البين ثمرة لكل من التقوى والإطاعة ، فكان الغرض الأساسي من الآيات الكريمة هو لفت المؤمنين إلى مكانة جمع الكلمة و وحدة الجماعة باصلاح ذات بينها .

يقول سيد قطب عليه رحمة الله :

كان الهتاف لهذه القلوب التي تنازعت على الأنفال هو الهتاف بتقوى الله . ان التقوى زمام هذه القلوب الذي يمكن ان تقاد منه طائعة ذلولة في يسر وفي هوادة ... وبهذا الزمام يقود القرآن هذه القلوب الى اصلاح ذات بينها : فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم وبهذا الزمام يقودها الى طاعة الله ورسوله .

« واطيعوا الله ورسوله » « ان كنتم مؤمنين » :

و يقول ايضا : « فلابد للايمان من صورة عملية واقعية يتجلى فيها ليثبت وجوده و يترجم عن حقيقته كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس الايمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل » . انتهى قوله

والتحلي هو التزين بالقول والمعنى ان الايمان ليس بالقول الذي تظهره بلسانك فحسب ولكن يجب ان تتبعه معرفة القلب (١) .

واصلاح ذات البين معناه اصلاح الأحوال التي بين افراد الجماعة واصرحها السير بها على ما يحب الله و يرضاه من وفاق وتعاون ومواساة وحب وإيثار وكل ذلك يستلزم الإعراض عن الأهواء والأغراض والشهوات الفردية .

وذات البين هي الحال والصلة التي بينكم تربط بعضكم ببعض وهي رابطة الاسلام

---

(١) : جاء في فيض القدير الحديث يقول العلائى فى حديث منكر تفرد به عبد السلام بن صالح العابد قال قال النسائي عنه متروك وقال ابن على مجمع على ضعفه يقول العلائى لقد روى معناه بسند جيد عن الحسن من قوله وهو صحيح . أ ــ هـ ، فالحديث ليس من حديث رسول الله عليه صلوات الله ولكنه من قول الحسن البصرى .

والبين يطلق في اللغة على الاتصال والافتراق وكل ما بين طرفين كما قال تعالى « لقد تقطع بينكم (١) » وهذه الرابطة تسمى ذات البين .

وقد امرنا باصلاح ذات البين في كتاب الله وفي سنة رسوله فهو واجب شرعي تتوقف عليه قوة الأمة وعزتها ومنعتها وتحفظ به وحدتها .

وقد امر الله باصلاح ذات البين في مواطن كثيرة في الأسرة بين الزوجين قال تعالى « وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من اهله وحكما من اهلها ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما ان الله كان عليما خبيرا » .

وامر جل شأنه باصلاح ذات البين في الجماعة المؤمنة اذا وقع نزاع بين طائفتين فيها وبيّن جل شأنه بانه لابد من فض النزاع ولو ادى الأمر الى قتال الفئة الباغية قال الله تعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى امر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا ان الله يحب المقسطين انما المؤمنون إخوة فاصلحوا بين اخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » .

ومن العوامل الهامة في اصلاح ذات البين اليوم تربية الأبناء تربية اسلامية صحيحة لينشؤوا على الايمان والتقوى فهما العامل الأساسي في جمع القلوب وربطها والتأليف بينها ، لقد علم الباحثون الاجتماعيون انه لا شيء يؤلف بين القلوب مثل العقيدة والايمان بالله ، فلقد وصفوا العقيدة بأن صاحبها لا يهدأ ولا يعرف استقرارا حتى يؤمن الناس جميعا بعقيدته قال تعالى : « لو انفقت ما في الأرض جميعا ما ألّفت بين قلوبهم ولكن الله ألّف بينهم » .

وما ألف بينهم إلا عبادة الله وحده والمؤسف جدا أن معاني الاسلام اليوم في البلاد الاسلامية كلها ذاوية باهتة والدعوات الدخيلة المعادية القائمة على عبادة غير الله يجد دعاتها مرتعا خصبا في الديار الاسلامية لان حراسها غافلون ، و يستل ابناء الاسلام من

---

(١) : قال صاحب اللسان البين في كلام العرب جاء على وجهين :يكون البين الفرقة و يكون الوصل وهو من الأضداد ، وفي التنزيل العزيز لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون قرئ بينكم بالرفع والنصب فالرفع على الفعل اى تقطع وصلكم والنصب على الحذف يريد ما بينكم . قال ابن سيده : من قرأ بالنصب احتمل احدهما أن يكون الفاعل مضمر اى لقد تقطع الأمر او العقد أو الود بينكم .

دعـوة الاسـلام و يـصـبـحون معادين لتعاليمه مناوئين لمبادئه وتتصدع وحدة الأمة و يتمزق شملها .

وعد الله القائمين بالإصلاح بالأجر العظيم ، قال تعالى : « لا خير في كثير من نجواهم الا مـن امـر بـصـدقـة او مـعـروف او اصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه اجرا عظيما » .

وسكوت الأمة عن الاصلاح وهي قادرة عليه اشد إثما واعظم ذنبا من ذنب المفسدين انـفـسـهـم فيما يجـره عـلى الأمة من و يلات ولذلك قيل بحق « الساكت عن الحق شيطان اخرس » .

وقـولـه تـعـالـى « ان كـنـتم مؤمنين » معناه ان كنتم مؤمنين امتثلوا الأوامر الثلاثة لأن الايمان يقتضي ذلك كله و يستلزمه فلابد من تقوى ولابد من طاعة ولابد من اصلاح ذات البين .

فـإن وقـع بعد الذي سبق في نفس سائل ألِلايمان هذا السلطان على النفوس قيل له : إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون .

فـقـولـه تعالى « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم » جملة مستأنفة جيء بها لبيان حال المؤمنين الذين سبق ذكرهم في قوله تعالى « ان كنتم مؤمنين » .

وقـولـه تـعـالـى « انـمـا المـؤمـنـون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم » كالدليل بالنسبة للـدعـوى أمـا الـدعـوى فهي أن من مستلزمات الايمان التقوى والطاعة والاصلاح والدليل عـلى ذلك ان المؤمن اذا ذكر الله ، وذكر عظمته التي لا تحدّ وقدرته التي تعجز المعقول عن إدراك مـدى سـلـطـانها اقشعرّ جلده و وجل قلبه وفاضت عيناه خوفا ورهبا وخشية وخشوعا وحـبـا ورجـاء وكـان مـن شـأنـه أنـه أسرع ما يكون في طاعة الله والاستجابة اليه ، وهذا الـوصـف فـي الآية التالية إما مساو للوصف الأول بمعنى ان الذي يوجل قلبه اذا ذكر الله هو متق مطيع مصلح بالضرورة و بالأولى .

والـذى نميل الى الأخذ به أن درجة وجل القلوب عند ذكر الله لا يبلغها الا القلة من

المؤمنين وهكذا ارتقت الآيات القرآنية درجة بعد درجة ومن هؤلاء الذين توجل قلوبهم الذين ذكرهم عليه صلوات الله بقوله فيمن يظلهم الله في ظله يوم لا ظل الا ظله وجاء فيه وعين حرست في سبيل الله ، وعين بكت من خشية الله ولفظ الصحيحين ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه (١) وفي حديث آخر يقول عليه الصلاة والسلام عينان لا تمسهما النار ابدا عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله (٢) .

والتقوى درجات وفي اعلاها ما روي عن انس ان يطاع الله فلا يعصى و يذكر فلا ينسى و يشكر فلا يكفر وهذه تستلزم ما روي عن ابن عباس ان يجاهد العبد في الله حق جهاده وألا يخشى في الحق لومة لائم وان يقسط من نفسه وآبائه وابنائه .

والايمان درجات ايضا واعلاها ما ذكر الله جل شأنه من وجل القلوب عند ذكره وما تلا ذلك من الصفات التي جاءت في الآية الكريمة واعلى درجات الايمان تلتقي بأعلى درجات التقوى والذي دفع اليه اصحاب رسول الله عليه صلوات الله هذه المنازل الرفيعة فهم الرعيل الأول وهم القدوة للمؤمنين وهم الحجة على من يأتي بعدهم وهم السابقون الى حمل هذه الدعوة والسير بها الى الدنيا بأسرها والى الناس جميعا .

وان على من يريد حمل الدعوة واقتفاء اثر الرسل الكرام والتأسي بأصحاب رسول الله عليه صلوات الله ان يتطلع الى هذه الدرجات ويجدّ لبلوغها .

وهذه الدرجة التي ذكر الله بها اصحاب رسوله في المناسبة الطيبة في ميدان الجهاد والمؤمنون قد سخوا بأرواحهم و باعوا نفوسهم وما تزال افئدتهم منصهرة بأهوال المعركة وقد شهدت معونة الله ولطفه ونصره ، المؤمنون في هذه الحال وقلوبهم متفتحة لما يأتي من عند الله وصدورهم منشرحة ترقب وحي الله في هذه الحال تتنزل الآيات فتأمر بالتقوى، وتأمر بالطاعة وتأمر باصلاح ذات البين وتناديهم بأن درجات الايمان عالية رفيعة وتقول لهم لا يستحق اسم المؤمنين الا الذي يوجل قلبه لذكر الله .

انها لتربية عظيمة وانه لإعداد إلى أمر عظيم .

---

(١) الحديث اورده البيهقي في الأسماء عن ابي هريرة ورمز السيوطي لحسنه في جامعه الصغير.

(٢) رواه النسائي والضياء المقدسي عن انس رضي الله عنه وعزاه الهيثمي لأبي يعلى وقال المنذرى رجاله ثقات .

دعت الآيات الكريمة اصحاب رسول الله الى درجة رفيعة من الايمان جاءت في كتاب الله في مناسبة اخرى في سورة الحج عند قوله تعالى « و بشر المخبتين الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما اصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » .

والمخبتون المتواضعون الخاشعون المطمئنون بأمر الله عز وجل الذين يخافون معصيته ويحذرون مخالفته الذين توجل قلوبهم عند ذكره جل شأنه لقوة اليقين في قلوبهم وغلبة مراقبة الله عليهم حتى كأنهم بين يديه جل شأنه يصدق عليهم وصف رسول الله عليه صلوات الله أنهم يعبدون الله كأنهم يرونه .

ولفظة الإخبات مأخوذة من طمأنينة الأرض قال في اللسان وقال ابن الأعرابي الخبت ما اطمأن من الأرض واتسع (١) والمخبتون الذين سكنت جوارحهم واطمأنت قلوبهم ولم يزدهم عزة الغلبة ولم تسكرهم نشوة الظفر ولكنهم في الأحوال التي يبطر فيها الناس وتغرهم كبر ياؤهم يذكرون الله فتتطامن نفوسهم فان كانوا في عزة وغلبة تواضعوا لله ولم يظلموا احدا من عباد الله وان كانوا في شدة وعسر ذكروا الله وذكروا لطفه وعونه فاطمأنت قلوبهم وسكنت نفوسهم .

والوجل هو استشعار الخوف كما قال الراغب في مفرداته ومعنى استشعار الخوف الشعور به بالفعل فالوجل على هذا أخص من الخوف لأن الخوف توقع أمر مؤلم قد يقع بالفعل وقد لا يقع وقد يصحبه الشعور بالألم والفزع وقد يفارقه لاحتمال عدم وقوعه أو للاعتقاد ببعد أجله .

وسبب الوجل الخوف من العاقبة المجهولة وقد يكون من الاجلال المهابة وهكذا يكون ذكر الله هو ذكر القلب لعظمته جل جلاله وسلطانه أو تذكر وعده و وعيده ومحاسبته لخلقه وإدانتهم وغير ذلك من صفاته وافعاله جل شأنه .

وافضل ما يورث الخشية ترتيل القرآن بتدبر وامعان قال تعالى « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » .

---

(١) قال تعالى فتخبت له قلوبهم فسره ثعلب بأنه التواضع ، وفي الحديث : واجعلني لك مخبتا أي خاشعا مطيعا وفي حديث ابن عباس فيجعلها مخبتة منيبة .

وقال تعالى « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد » .

وقال تعالى : « واذا سمعوا ما انزل الى الرسول ترى اعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » .

وليس سبب الوجل الخوف من العقاب فحسب بل قد يكون الوجل من عظمة الله وعظيم سلطانه .

يقول السيد رشيد رضا : « قد يقول المؤمن في صلاة التهجد في خلوته (الله اكبر) مستحضرا لمعنى كبر يائه عز وجل فينتفض و يقشعر جلده فمن خص الذكر هنا بالوعيد فقد غفل عن كل هذا وظن أن الوجل لا يكون الا من خوف العذاب وكأنه لم يذق طعم الخشية والوجل من مهابة الله وعظمته وكبر يائه وعزة سلطانه وغير ذلك من معاني اسمائه وصفاته ولم يقرأ قوله تعالى « انما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ » ولم يعلم ان من عباد الله من يخضع قلبه و يفيض دمعه لذكر اسماء الله في آخر سورة الحشر « هو الله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ... الخ » ولا يجد مثل هذا الوجل عند وصف جهنم وذكر الحساب والجزاء .

وقال صاحب هداية الباري في حال اوصاف الجلال يكون البكاء من خشية الله تعالى وفي حال اوصاف الجمال يكون البكاء من الشوق اليه .

اخرج الحكيم الترمذي وابن جرير وابو الشيخ من طريق شهر بن حوشب عن ام الدرداء قالت انما الوجل في القلب كاحتراق سعفة(١) ياشهر بن حوشب ، اما تجد له قشعريرة ؟ قلت بلى قالت فادع الله عندها فان الدعاء يستجاب عند ذلك .

واخرج الحكيم الترمذي عن ثابت البناني قال قال فلان اني لأعلم متى يستجاب لي . قالوا ومن اين لك ؟ قال اذا اقشعر جلدي و وجل قلبي وفاضت عيني فذلك حين يستجاب لي (٢) .

---

(١) السعفة : ورق جريد النخل اذا يبس .

(٢) وثابت بن البناني ثقة عابد روى له اصحاب الكتب الستة وهو من التابعين .

واخرج الحكيم الترمذي ايضا عن عائشة قالت ما الوجل في قلب المؤمن الا كضرمة السعفة فاذا وجل احدكم فليدع عند ذلك(١)واخرج ابن ابي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم وابو الشيخ عن السدي في الآية قال : هو الرجل يريد ان يظلم أو يهم بمعصية فيقال له اتق الله فيوجل قلبه .

وذكر ابن جرير اسنادا من طريق علي(٢)(اى علي بن ابي طلحة) عن ابن عباس قوله تعالى «انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم قال : «المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند اداء فرائضه ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ولا يتوكلون على الله ولا يصلون اذا غابوا ، ولا يؤدون زكاة اموالهم . فاخبر الله سبحانه انهم ليسوا بمؤمنين ، ثم وصف المؤمنين فقال : «انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم» فأدوا فرائضه . «واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا» يقول تصديقا ـــ «وعلى ربهم يتوكلون» يقول لا يرجون غيره .

---

(١) يلفت النظر ان الرواية الأولى التي ذكرناها عن ام الدرداء جاء في نهايتها قالت فادع الله عندها فان الدعاء يستجاب عند ذلك و يرويها ابن جرير بعينها عن ابي الدرداء وفي نهايتها : اذا وجدت ذلك في القلب فادع الله فان الدعاء يذهب بذلك وكذلك رواية ابن كثير عن ام الدرداء .

والاسناد الذي يذكره ابن جرير لم يعلق عليه الشيخ احمد محمد شاكر وقد اورد الزمخشري الأثر ايضا عن ام الدرداء : الوجل في القلب كاحتراق السعفة اما تجد له قشعريرة قال بلى قالت فادع الله فان الدعاء يذهبه ولم يعلق عليه ابن حجر بشيء ايضا في تخريجه .

وفي الاسناد شهر بن حوشب وقد قال فيه ابن حجر صدوق كثير الارسال والأوهام روى له البخاري في الادب المفرد ولم يخرج له في صحيحه وروى له مسلم واصحاب الكتب الأربعة ، وهذا الوصف الذي ذكره ابن حجر هو نوع من الجرح يضعف الحديث الذي يرويه اذا تفرد به ، وجميع الذين ذكرنا اوردوا الحديث من طريق شهر بن حوشب عن ام الدرداء او ابي الدرداء .

(٢) وعلي بن ابي طلحة هو الذي يروي عن ابن عباس يقول بشأنه ابن حجر في التقريب ارسل عن ابن عباس ولم يره وهو صدوق يخطئ روى له مسلم وابو داود والنسائي وابن ماجة .

و يقول السيوطي في الاتقان : ورد عن ابن عباس في التفسير مالا يحصى كثرة بروايات وطرق مختلفة فمن جيدها طريق علي بن ابي طلحة الهاشمي عنه قال احمد بن حنبل «بمصر صحيفة في التفسير رواها علي بن ابي طلحة ، لو رحل رجل فيها الى مصر قاصدا ما كان كثيرا» اسنده جعفر النحاس .

و يقول صاحب مناهل العرفان : قال ابن حجر : وهذه النسخة كانت عند ابي صالح كاتب الليث رواها عن معاوية ابن ابي صالح عن علي بن ابي طلحة عن ابن عباس وقد اعتمد عليها البخاري في

قال تعالى « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم » .

بحث المفسرون لِم جاز وصف القلوب ههنا بالوجل ووصفت بالطمأنينة في قوله تعالى « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب » اذ جعلت الآية الأولى وجل القلوب عند ذكر الله وجعلت الآية الثانية ذكر الله سببا في طمأنينة القلوب . واجابوا بأن الطمأنينة عند ذكر نعمة جل شأنه والوجل لخوف عقابه بارتكاب معاصيه واجابوا بأن الطمأنينة عند ذكر الوعد والوجل عند ذكر الوعيد واجابوا بأن القلوب تطمئن لمعرفة توحيده ووعده ووعيده فعند ذلك توجل لأوامره ونواهيه خوف التقصير في الواجبات والإقدام على المعاصي .

وقال السيد رشيد رضا ولا تعارض في الحقيقة ولا تنافي ففي كل من الوعد والوعيد وصفات الكمال وذكر آيات الله تعالى في الأنفس والآفاق اطمئنان للقلوب بالايمان بالله تعالى والثقة بماعنده .

وقال الألوسي: والاطمئنان المذكور في قوله سبحانه وتعالى (الا بذكر الله تطمئن القلوب) لا ينافي الوجل والخوف لأنه عبارة عن ثلج الفؤاد وشرح الصدر بنور المعرفة والتوحيد وهو يجامع الخوف .

صحيحه كثيرا فيما يعلق عن ابن عباس يقول ابن حجر: وقال قوم : لم يسمع ابن أبي طلحة من ابن عباس التفسير وانما اخذه عن مجاهد او سعيد بن جبير ثم قال ابن حجر بعد ان عرفت الواسطة وهو ثقة فلا ضير في ذلك .ا هـ .

و يقول ابن حجر في تهذيب التهذيب :

نقل البخاري من تفسيره (اى تفسير علي بن ابي طلحة) رواية معاوية بن صالح عنه عن ابن عباس شيء كثيرا في التراجم وغيرها ولكنه لا يسميه يقول قال ابن عباس او يذكر عن ابن عباس . ا هـ

ويمكن ان نقول من ذكر البخاري هذه الروايات في صحيحه وذكرها معلقة دون ذكر اسنادها كاملا ان اسنادها ليس على شرطه فلا يذكره وما ذكره بصيغة الجزم كأن يقول قال ابن عباس فهو صحيح عنده ولو لم يكن على شرطه والذي في سنده ضعف او انقطاع لا يجزم به .

يقول ابن حجر في هدى الساري : وانما يورد البخاري ما يورد من الموقوفات من فتاوى الصحابة ومن تفسيرهم لكثير من الآيات على طريق الاستئناس والتقوية لما يختاره من المذاهب مع المسائل التي فيها الخلاف بين الائمة .

وهكذا علق قوم الطمأنينة بذكر النعم والوجل بذكر العقاب وعلقها آخرون بذكر وعده جل شأنه وجعلوا الوجل لذكر وعيده وقال فريق ثالث الطمأنينة بمعرفة توحيده ووعده و وعيده والوجل في خوف التقصير في ما يجب له جل شأنه .

والرأي الثالث يختلف عن سابقيه و يتفق مع رأي السيد رشيد رضا والآلوسي إذ يجعل صفاته جل شأنه كلها مدعاة للطمأنينة وخوف التقصير سببا في الوجل وقد جعل الرأيان الأولان بعض صفاته جل شأنه سببا في الطمأنينة و بعضها سببا في الوجل والذي يبدو ان صفات الله جل شأنه كلها مما يحمل العبد على الطمأنينة ولكن الخوف كل الخوف من تقصيره هو في حق سيده ولذا كان القول الثالث أجمع مع عدم منافاته لسابقيه ذلك ان للانسان حالات كثيرة تختلف من آن لآن ومن شخص لآخر فقد يكون ذكر المن والنعم واللطف بالإنسان جنينا ثم رضيعا ثم غلاما ثم يافعا قد يكون ذلك سببا في هدوء نفسه وطمأنينة قلبه كما ذكر الله جل شأنه موسى عليه السلام حين قال له (اذهب الى فرعون انه طغى) ذكره جل شأنه كيف نجاه من فرعون بالقائه في اليم وهو رضيع لا يقوى أن يدفع عن نفسه أذى بعوضة وليس اليم وسيلة للنجاة وكانت نجاته على يد عدوه فرعون نفسه وربي في بيته أليس في هذا ما يحير العقول و يطمئن القلوب ؟

قال تعالى : ولقد مننا عليك مرة أخرى اذ أوحينا الى امك ما يوحى ان اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له والقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني إذ تمشي اختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك الى أمك كي تقر عينها ولا تحزن .

كل هذا ليطمئن موسى عليه صلوات الله ان الذي حفظه من فرعون حين كان رضيعا لا حول له ولا طول الذي اصطنعه لنفسه جل شأنه قمين بأن ينصره على فرعون حين يرسله اليه ليحطم كبرياءه و يذهب بجبروته .

وهكذا كان تذكر من الله وسابغ إنعامه وخفي لطفه كل ذلك باعث للطمأنينة العميقة في النفوس

تذكر نعم الله وسابق فضله عظيم لطفه في ساعات الاخطار يتنزل بالسكينة و يذهب بالخوف من المهالك .

ولكن تذكر نعم الله نفسها وعظيم هننه في حالة الشعور بالتقصير أو الاثم يزيد في ألم المرء وحسرته على ما فرط في جنب الله .

والغالب في تذكر وعد الله ان يكون سببا للطمأنينة ولكنه قد يكون في كثير من الأحوال بالنسبة لكثيرين سببا لأشد انواع الوجل اذ يجد المرء نفسه بعيدا عن الصفات التي ذكرت بشأن الذين وعدهم الله .

وهكذا كانت حالة الطمأنينة والرجاء او الخوف والاشفاق نتيجة لحالة المرء النفسية ونظرته إلى نفسه وإلى خالقه جل شأنه .

وموقف هذا الانسان في ضآلته وصغر شأنه في جانب الله جل شأنه مع ما أنعم عليه من رأي وعقل وما أودع فيه من قوة وحكمة كل ذلك يجعله في خشية من الله ووجل منه مقترنين بأمل ورجاء وأمن وسكينة .

الخوف والرجاء مقترنان

والمؤمن لا يخلو قلبه من الأمرين معا وإن غلب احدهما حينا وغلب الآخر حينا آخر.

وان الخوف من الله والوجل من عقابه واستشعار عظمته جل شأنه كل ذلك يؤدي بالنهاية الى الطمأنينة الى رحمته والرضا بقضائه وتفويض الأمر اليه .

وهذا الوجل من الله عند الإشراف على ذنب أو الإقدام على مخالفة أو الشعور بالتقصير في جانب الله وعند تذكر المرء نعم الله وما تقلب فيه من لطف الله وحسن تدبيره وتقديره مما يزيده ألماً لتقصيره وشعورا بتعظيمه جل شأنه وكل ذلك مهما امتد ينتهي لدى المؤمن إلى برد الراحة وطمأنينة اليقين .

إن العامل الأساسي في خشية الله الشعور بعظمة الله فكلما ازداد المرء معرفة بدقائق صنعه جل شأنه في خلقه وازداد معرفة بعجائب تدبيره ازداد تعظيما لله وخشية له وازداد في الوقت نفسه ثقة به جل شأنه وطمأنينة وأسلم نفسه اليه ووجه وجهه إليه وفوض أمره اليه .

والرسول عليه الصلاة والسلام أشد الناس خشية لله وأشدهم تقوى له وأكملهم معرفة

بربه جل شأنه وأعظم الناس ثقة به وطمأنينة إليه جل شأنه وخشيته عليه صلوات الله لربه موازية تمام الموازاة لثقته به تباركت أسماؤه ، ومن هنا يمكن أن نقول أن اشد الناس وجلا من الله وهيبة منهم أشدهم طمأنينة الى رحمته وثقة بعفوه ورحمته والمنافق بعيد من خشية الله بعيد من الثقة به والطمأنينة إليه .

فبين الصفتين تلازم ويمكن أن تعتبر إحداهن مقياسا للأخرى

و يلاحظ أيضا أن طمأنينة المؤمن حين يفزع الناس ووجله حين يطمئنون إلى غفلتهم وانصرافهم إلى لهوهم ودنياهم ولذلك قال عليه الصلاة والسلام « لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى لا تدرون تنجون أو لا تنجون » (١) .

خشية الله والوجل منه مصدرهما معرفة الله واستشعار عظمته جل شأنه والطمأنينة إليه معرفته تباركت أسماؤه والثقة بسعة رحمته وعمم فضله وكلا الوصفين منشؤهما الإيمان بالله ومعرفة توحيده ولا يمكن أن يتصف العبد المؤمن بأحد هما دون الآخر محال ذلك فإذا فقد العبد الرجاء بالله وانقطع أمله به فذلك جهل بالله جل شأنه و بصفاته وذلك من ظن السوء بالله سبحانه قال تعالى «إنه لا ييئس من روح الله إلا القوم الكافرون » ومن اغتر بعمله ورضي عن نفسه وأمن مكر الله كان ذلك غاية الجهل بالله و بصفاته قال تعالى « فأمنوا مكر الله فلا يؤمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » قال الزمخشري : فعلى العاقل أن يكون في خوف من مكر الله كالمحارب الذي يخاف من عدوه الكمين والبيات والغيلة .

وعن الربيع بن خيثم (٢) أن ابنته قالت مالي أرى الناس ينامون ولا اراك تنام قال يا بنتاه إن أباك يخاف البيات . أراد قوله (ان يأتيهم بأسنا بياتاً) اهـ وهذا يذكر

---

(١) : الصعدات بضمتين جمع صعيد كطريق وزنا ومعنى تجأرون ترفعون اصواتكم بالاستغاثة الحديث رواه الطبراني والحاكم في الرقاق عن أبي الدرداء قال الحاكم صحيح واقره الذهبي وقال الهيثمي رواه الطبراني من طريق ابنة ابى الدرداء عن ابيها ولم اعرفها و بقية رجاله رجال الصحيح .

(٢) الربيع بن خثيم ترجم له ابن حجر في تهذيب التهذيب : قال ابن حبان في الثقات اخباره في الزهد والعبادة اشهر من ان يحتاج الى الاغراق في ذكره . وروى احمد في الزهد عن ابن مسعود انه كان يقول للربيع والله لو رآك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحبك وذكر هذا القول المزى وزاد وما رأيتك الا ذكرت المخبتين . نقل ابن جرير انه شهد مع علي صفين . وقال الشعبي كان الربيع اشد أصحاب ابن مسعود ورعا .

بقوله تعالى تتجافى جنوبهم عن المضاجع كأن شيئا يقضها و يؤلمها فتباعد بين صاحبها و بين النوم .

وقال الحسن البصرى المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف والفاجر يعمل بالمعاصى وهو آمن .

والأصل في الخوف من الله كما ذكرنا شعور العبد بتقصيره البالغ في حق سيده ، وهذا التقصير لا يستطيع عبد أن يدعي أنه خال منه وهذا هو الابتلاء الذي خلقت الحياة من اجله فاذا ظن عبد أن الله لن يعذبه فمنشأ ذلك كبره واغتراره بنفسه وعدم رؤية النقص الذي ركب فيه وهذا من عظائم الأمور ولذا كان الأمن من مكر الله كبيرة عند الشافعية وهو الاسترسال في المعاصي اتكالا على عفو الله .

وقال الحنفية إنه كفر كاليأس لقوله تعالى (إنه لا ييئس من روح الله الا القوم الكافرون . يوسف : ٨٧) (فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون . الأعراف : ٩٩)

وقد جاء في تفسير القاسمي : من كان أمنه لاعتقاد آن لا مكر كمن كان يأسه لإنكار سعة الرحمة ذنوبه فينبغي أن يكون كل منهما كافرا عند الشافعية ايضا ويحمل عليه نص القرآن .

و يلاحظ فى تركيب الآيتين الكريمتين افتراق وتمايز يؤدي إلى اختلاف في المعنى لايفوت إدراكه مبتدئا مثلى ففي آية الأنفال قال تعالى « اذا ذكر الله » وفي آية الرعد « ألا بذكر الله » وقد جاء ذكر الله في الأولى مبينا للمجهول يوحي بأن ذكر الله مصدره غير الذي وقع منه الوجل والغالب في هذا أن يكون الذى أصابه الوجل عند ذكر الله في شيء من الغفلة والنسيان قبله وذلك لانشغال القلب بأمر من أمور الدنيا أو المعاش أو المصالح واستغراقه في ذلك ، وفي تلك الحال جاءه النذير فذكره أخ بالله وهذا هو الغالب أو طرأ على قلبه طارىء أنقذه من استغراقه وذكره بالله وهنا حين يشعر ببعده من الله وغفلته عنه جل شأنه يستيقظ ضميره و يتنبه فؤاده فيوجل قلبه فإذا اغرورقت عيناه واستغرق قلبه بتذكر الله عادت إليه السكينة والطمأنينة .

أما قوله تعالى ألا بذكر الله تطمئن القلوب فهو يدل على أن ذكر الله جل شأنه سبب

فى الطمأنينة فإذا وقع الذكر وسيطر على القلب فلابد من طمأنينة كان الذاكر في آية الأنفال مجهولا وهو على الغالب إنسان آخر ذكر بالله فلما ذكر الغافل وجل قلبه أول الأمر ثم هيمن ذكر الله وخشيته على قلبه وهنالك تتنزل السكينة وتعود الطمأنينة .

وعلى هذا فذكر الله اصل في الطمأنينة إذا تم في النفس تمت.والخشية والطمأنينة امران متلازمان لا يخلو منهما المؤمن .

قال تعالى : «إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم » وقال تعالى الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب .

هذا الإنسان في الكون الكبير الذي يملأ نفس المتأمل دهشة وإكبارا الذي تحيط به العجائب وتكتنفه المجاهيل إما أن يرى نفسه ذرة من ذراته خاضعا لأنظمته مسيرا بالقدرة العظيمة التي تدبره مرتبطا بجزئياته وأجزائه و به جميعه خاضعا للاله المدبر الذى خلقه وأبدعه وعلم مبدأه وغايته وقدر نهايته ومصيره وإما أن يرى نفسه وحيدا فر يدا لا ارادة فوق إرادته ولاقدرة تنازع قدرته لايعلم لهذا الكون مبدأ ولايعرف له مصيرا و يرى أنه خرج من العدم وسار فى فلك هذا العالم دورة محدودة وسيعود الى الفناء والى العدم .

هذا الإنسان الثاني إنسان ناشز عن فطرة الإنسان وما جبل عليه الإنسان قد غلبت عليه شقوته ولعبت به أهواؤه وتسلط عليه شيطانه ، ومثل هذا الانسان لايعرف طمأنينة ولذلك لايجد مخلصا لنفسه الا بأن يلقى نفسه فى أحضان شهواته تصرفه كما تشاء فقد يعيش خليعا ماجنا وقد يعيث في الارض فسادا وهو على أي حال حاقد مغتاظ جائر فاذا عصفت به نكبة أو ألمت به كارثة لم يجد في نفسه ذرة من ايمان يقابل بها الشدائد او يصمد بها للكوارث بل ينهار و يتداعى وتتساقط اركانه ولا يجد له مخلصا الا فى الانتحار والموت .

هذه الطمأنينة عند الشدائد والسكينة عند النوازل لايعرفها الا المؤمنون قال تعالى « فأنزل الله سكينته عليه وايده بجنود لم تروها » وقال تعالى « هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم » والسكينة هي السكون والطمأنينة قال ابن عباس كل سكينة في القرآن هي الطمأنينة الا التي في البقرة وهي قوله تعالى « فيه سكينة من ربكم و بقية » .

يقول سيد قطب عليه رحمة الله :

« وليس أشقى على وجه الارض ممن يحرمون طمأنينة الأنس الى الله ليس اشقى ممن ينطلق في هذه الأرض مبتوت الصلة بما حوله في الكون ، لأنه انفصم من العروة الوثقى التي تربطه وتربط ما حوله في الله خالق الكون . ليس اشقى ممن يعيش لايدري لِمَ جاء ولِمَ يذهب ؟ ولِمَ يعاني ما يعاني في الحياة ؟ ليس اشقى ممن يسير في الارض يوجس من كل شيء خيفة لأنه لايستشعر الصلة الخفية بينه و بين كل شيء في هذا الوجود ليس اشقى في الحياة ممن يشق طريقه فريدا وحيدا شاردا في فلاة ، عليه أن يكافح وحده بلا ناصر ولا هاد ولامعين .

وإن هناك للحظات في الحياة لا يصمد لها بشر إلا أن يكون مرتكنا الى الله مطمئنا الى حماه ، مهما أوتي من القوة والثبات والصلابة والاعتداد ... ففي الحياة لحظات تعصف بهذا كله فلا يصمد لها الا المطمئنون بالله : « الا بذكر الله تطمئن القلوب » . ١ هـ

والاله جل جلاله الذي تطمئن القلوب لذكره هو الذي تخشع القلوب لعظمته وتوجل لذكره وهو الذي يُخشى و يرجى وهو الذي يرهب جانبه و يؤمل بره وفضله .

وهكذا تلتقي الآيتان الكريمتان وتتعانقان وتكمل احداهن الأخرى ؛ احداهن تمثل المؤمن في حالة غلبة الطمأنينة على قلبه وفي ظننا ان الأولى تنتهي الى الثانية كما ذكرنا من غير ان يخلو القلب من خشية ورهبة .

يقول القرطبي : في قوله تعالى « وتطمئن قلوبهم بذكر الله » هذا يرجع الى كمال المعرفة وثقة القلب . والوجل الفزع من عذاب الله فلا تناقض .

وقد جمع الله بين المعنيين في قوله : « الله نزل احسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله » . أي تسكن نفوسهم من حيث اليقين الى الله وإن كانوا يخافون الله ، فهذه حالة العارفين بالله الخائفين من سطوته وعقوبته و يستطرد القرطبي ههنا فيذكر حال الذين يزعمون أنهم يذكرون الله وهم يرقصون و يصرخون يقول : لا كما يفعله جهال العوام والمبتدعة الطغام (ارذال

الـنـاس) مـن الزعيق والزئير فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم ان ذلك وَجْدٌ وخضوع : لم تبلغ ان تـسـاوي حـال الـرسـول ولا حال اصحابه في المعرفة بالله والخوف منه والتعظيم لجلاله ومع ذلـك فـكانت حالهم عند المواعظ الفهم عن الله والبكاء خوفا من الله ولذلك وصف الله احـوال اهـل المعـرفـة عـنـد سماع ذكره وتلاوة كتابه فقال « واذا سمعوا ما انزل الى الـرسول تـرى اعـيـنهـم تـفـيـض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الـشـاهـدين فهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم ولا عـلـى طر يـقـتهم . روى مسلم بن مالك ان الناس سألوا النبي صلى الله عليه وسلم حتى أحـفـوه فـي المسألة (١) فخرج ذات يوم فصعد المنبر فقال : « سلوني لا تسألوني عن شيء الاّ بـيـنـتـه لـكـم مـا دمت في مقامي هذا فلما سمع ذلك القوم أرمّوا (سكتوا) ورهبوا ان يـكـون بين يـدي امر قد حضر قال أنس فجعلت التفت يمينا وشمالا فاذا كل انسان لافٌ رأسه في ثوبه يبكي وذكر الحديث .

وروى الـتـرمـذي وصـحـحه عن العرباض بن سارية قال: وعظنا رسول الله صلى الله عـليه وسلم موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب (الحديث) ولم يقل زعقنا ولا رقصنا ولازفنا (٢) ولاقنا .

زيادة الايمان

قال تعالى « واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا »

المراد بـالآيـات الآيـات المـنزلة على خاتم الأنبياء عليه صلوات الله وسلامه ، ومعنى زادتهم ايمـانـا أي يـقـيـنـا في الاذعان وقوة في الاطمئنان وسعة في العرفان ، ونشاطا في الاعـمـال قال هذا السيد رشيد رضا في تفسيره وهذا القول مبني على اعتقاده بأن الايمان اعـتـقـاد بالجنان وإقرار باللسان وعمل بالأركان وقد عرفه بعد ذكر ما سبق فقال و يطلق الايمان في عرف الشرع على مجموع العلم والاعتقاد والعمل بموجبه .

ومـن بـاب الآيـة الـكريمة قوله تعالى : « ان الذين اوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخـرون لـلأذقـان سـجـدا و يقولون سبحان ربنا إنْ كان وعد ربنا لمفعولا ويخرون للأذقان يبكون و يزيدهم خشوعا ».

والـذيـن اوتـوا الـعلم هم العلماء الذين قرؤوا الكتب وعلموا ما الوحي وما الشرائع قد

(١) : أي كثروا عليه . واحفى في السؤال والحف كلاهما بمعنى الح .

(٢) : رقصنا واصله الدفع الشديد والضرب بالرجل كما يفعل الراقص .

آمنـوا به وصدقوه ، وثبت عندهم انه النبي العربي الموعود في كتبهم فاذا تلي عليهم خروا سـجـدا وسبـحوا لله تعظيا لأمره ولانجازه ما وعد في الكتب المنزلة و بشر به من بعثة محمد صـلـى الله عـلـيـه وسلم وإنزال القرآن عليه وهو المراد بالوعد في قوله « إنْ كان وعد ربنا لمفعولا » .

وهـؤلاء الـذيـن اوتـوا الـعـلـم حين سـمـعوا آيات الله تتلى خروا مرتين خروا في المرة الأولى ساجدين وفي المرة الثانية باكين .

وروى الـتـرمذي والنسائي عن ابي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يـلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع ولا يجتمع على عبد غبار في سبيل الله ودخان جهنم (١) .

---

(١) رواه الـتـرمـذى قال حدثنا هناد اخبرنا عبد الله بن المبارك عن عبد الرحمن بن عبد الله المسعودى عن محـمـد بـن عبد الرحمن عن عيسى بن طلحة عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يلج النار....

وعبد الرحمن بن عبد الله المسعودى قال بشأنه ابن حجر في التقريب صدوق اختلط قبل موته وضابطه ان مـن سـمـع منه ببغداد فبعد الاختلاط و بقية رجاله ثقات وعبد الله بن المبارك ثقة ثبت فقيه عالم جواد مجـاهـد جمـعـت فـيـه خـصـال الخير من المستبعد جدا ان يروى عن عبد الرحمن فى حال اختلاطه وقد قال الـتـرمـذى هذا حديث صحيح وللحديث شواهد يقول الترمذى وفي الباب عن ابي ريحانة وابن عباس اما حـديث ابي ريحانة فقد اخرجه احمد مرفوعا : حرّمت النار على عين دمعت او بكت من خشية الله وحرّمت الـنـار عـلـى عين سـهـرت فـي سبيل الله وذكر عينا ثالثة واخرجه النسائي والحاكم وقال الحاكم صحيح الاسناد واقره الذهبي وقال على شرط مسلم .

ورواه البيهقي عـن ابـي ريحانة رضي الله عنه قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة فـأوفى بنا على شرف (مكان عال) فأصابنا برد شديد حتى كان احدنا يحفر الحفير ثم يدخل فيه و يغطى عـلـيه بحجفته (ترسه) فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك من الناس قال الا رجل يحرسنا الليلة ادعـو لـه بدعاء يصيب به فضلا فقام رجل من الأنصار فقال انا يارسول الله فدعاله قال ابوريحانة رضي الله عـنـه فقلت انا فدعا لي بدعاء هو دون ما دعا به للأنصارى ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حرّمت الـنـار على عين دمعت من خشية الله حرّمت النار على عين سهرت فى سبيل الله قال ونـسيت الثالثة قال ابو شـر يح (احد رواة الحديث) وسمعته بعد انه قال حرّمت النار على عين غضت عن محارم الله او عين فقئت في سبيل الله .

يقول القاسمي : وقد عدّ الامام الغزالي في الاحياء من آداب ظاهر التلاوة البكاء قال البكاء مستحب في القراءة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اتلوا القرآن وابكوا فان لم تبكوا فتباكوا (١) .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما اذا قرأتم سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا فان لم تبك عين احدكم فليبك قلبه وانما طريق تكلف البكاء ان يحضر قلبه الحزن ، فمن الحزن ينشأ البكاء ، ووجه احضار الحزن ان يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود ثم يتأمل تقصيره في اوامره وزواجره فيحزن لا محالة و يبكي فان لم يحضره حزن و بكاء كما يحضر أرباب القلوب الصافية فليبك على فقد الحزن والبكاء فإن ذلك اعظم المصائب .

واما حديث ابن عباس فقد رواه الترمذى في فضائل الجهاد قال حدثنا نصر بن علي الجهمي قال حدثنا بشر بن عمر قال حدثنا شعيب بن رزيق ابو شيبة قال حدثنا عطاء الخرساني عن عطاء بن ابي رباح عن ابن عباس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عينان لا تمسهما النار عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس فى سبيل الله وشعيب بن رزيق ابو شيبة صدوق يخطىء وعطاء الخرساني صدوق يهم كثيرا و يرسل و يدلس لم يصح ان البخارى اخرج له كذا فى التقريب . والحديث صحيح بكثرة رواياته وشواهده الصحيحة ومن شواهده ما جاء في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل الا ظله ومنهم رجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه والحديث رواه الشيخان البخارى ومسلم ومالك واحمد والنسائي .

(١) اخرجه ابن ماجه ، باب في حسن الصوت بالقرآن : قال حدثنا عبد الله بن احمد بن بشير بن ذكوان الدمشقي قال حدثنا الوليد بن مسلم قال حدثنا ابو رافع عن ابن ابي مليكة عن عبد الرحمن بن السائب قال قدم علينا سعد بن ابى وقاص وقد كف بصره فسلمت عليه فقال من إنت فأخبرته فقال مرحبا بابن اخي بلغني انك حسن الصوت بالقرآن . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان هذا القرآن نزل بحزن فاذا قرأتموه فابكوا فان لم تبكوا فتباكوا وتغنوا به فمن لم يتغن به فليس منا .

قال في الزوائد في اسناده ابو رافع اسمه اسماعيل بن رافع وهو ضعيف متروك .

والحديث رواه البيهقي ايضا بالسند المتقدم وذكر فيه اسماعيل بن رافع وقد قال فيه ابن حجر ضعيف الحفظ وروى له البخارى في الأدب المفرد والترمذى وابن ماجه وفي تهذيب التهذيب قال احمد ضعيف وقال ابن معين ضعيف وفي رواية عن احمد منكر الحديث وقال الدارقطني والنسائي وابن خراش متروك .

فالحديث على هذا ضعيف بسبب ابي رافع وقد قال العراقي فيه ما يلي : حديث اتلوا القرآن وابكوا فان لم تبكوا فتباكوا رواه ابن ماجه من حديث سعد بن ابي وقاص باسناد جيد .

وروى البيهقي من طريق الأعمش عن ابراهيم عن عبيدة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرأ عليّ فقلت اقرأ وعليك انزل ؟ قال اني احب ان اسمعه من غيري فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت الى هذه الآية (فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) قال حسبك الآن فالتفت اليه فإذا عيناه تذرفان . الحديث متفق عليه .

وروى ابن كثير في تفسيره عن الامام أحمد قال حدثنا محمد بن فضيل قال حدثني فليت العامري عن جسرة العامرية عن أبي ذر رضي الله عنه قال صلّى النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها و يسجد بها (ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم) فلما اصبح قلت يا رسول الله مازلت تقرأ هذه الآية حتى اصبحت تركع بها وتسجد بها قال إني سألت ربي عز وجل الشفاعة لأمتي فأعطانيها وهي نائلة ان شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئا (١) .

ونقل القاسمي في تفسيره رواية الامام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص ان النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل على لسان ابراهيم (رب انّهنّ اضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم) وقول عيسى (ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم) فرفع يديه وقال : اللهم امتي امتي و بكى فقال الله تعالى : ياجبريل اذهب الى محمد ، وربك اعلم ، فاسأله ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسأله فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال ، وهو اعلم فقال الله ياجبريل اذهب الى محمد فقل له انا سنرضيك في امتك ولا نسوؤك .

ونختم هذه الاحاديث بالدعاء التالي (٢) : عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اصاب احدا قطُّ هم ولا حزن فقال : « اللهم اني عبدك وابن عبيدك وابن امتك ناصيتي بيدك ماض فيّ حكمك عدل فيّ قضاؤك اسألك بكل اسم هو

---

(١) الحديث بدرجة الحسن رجا له محمد بن فضيل صدوق عارف رمي بالتشيع روى له اصحاب الكتاب الستة جميعا وفليت صدوق روى له ابو داود والنسائي وجسرة العامرية قال ابن حجر انها مقبولة وقد روى لها ابو داود والنسائي وابن ماجه . وقد روى الحديث النسائي ايضا .

(٢) يقول الهيثمي (١٠/١٨٦) رواه احمد وابو يعلى والطبراني والبزار الا انه قال وذهاب غمي مكان همي ، ورجال احمد وابي يعلى رجال الصحيح غير ابي سلمة الجهني وقد وثقه ابن حبان . =

لك سميت به نفسك او انزلته في كتابك او علمته احدا من خلقك او استأثرت به في علم الغيب عندك ان تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي » إلاّ اذهب الله عز وجل همه وابدله مكان حزنه فرجا قالوا يارسول الله ينبغي لنا ان نتعلم هؤلاء الكلمات قال اجل ينبغي لمن سمعهن ان يتعلمهن .

قال تعالى : « واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا »

قول القرطبي في زيادة الايمان

قال ابن جرير عن ابن عباس زادتهم ايمانا يقول تصديقا وقال ابن كثير كما قال ابن جرير وقال القرطبي كما قالا أي تصديقا فان ايمان هذه الساعة زيادة على ايمان امس فمن صدق ثانيا وثالثا فهو زيادة تصديق بالنسبة الى ما تقدم والى هنا اعتبر القرطبي الزيادة في الايمان هي زيادة في التصديق وهو الاعتماد الذى استقر في النفس وانعقد عليه القلب ثم يورد معنى آخر يراعي فيه جانبا آخر قال : وقيل هو زيادة انشراح الصدر بكثرة الآيات والأدلة وكأنه يريد ان يذهب في هذا القول الى أنّ زيادة الايمان ليست في اصل الايمان ولكنها في ثمرة من ثمراته وهي انشراح الصدر و يقول وقد مضى هذا المعنى في آل عمران .

وفي سورة آل عمران عند قوله تعالى « الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » يقول فزادهم قول الناس ايمانا أي تصديقا و يقينا في دينهم واقامة على نصرتهم ، قوة وجراءة واستعدادا .

يقول : فزيادة الايمان على هذا هي في الأعمال . وقد اختلف العلماء في زيادة الايمان ونقصانه على أقوال ، والعقيدة في هذا على ان نفس الايمان الذي هو تاج واحد وتصديق واحد بشيء ما إنما هو معنى فرد ، لا يدخل معه زيادة اذا حصل ولا يبقى منه

= وابو سلمة الجهني قال فيه ابن حجر فى تعجيل المنفعة مجهول قاله الحسيني وقال مرة لا يدرى من هو وهو كلام الذهبي فى الميزان وذكره ابن حبان في الثقات واخرج حديثه في صحيحه .

والحديث قد ذكره النووى فى كتاب الأذكار (ص ١١٣) يقول روينا في كتاب ابن السني عن ابي موسى الأشعرى رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من اصابه هم او حزن فليدع بهذه الكلمات يقول أنا عبدك ... الحديث فقال رجل من القوم يارسول الله ان المغبون لَمَنْ غبن هؤلاء الكلمات فقال رجل فقولهن وعلموهن فانه من قالهن التماس ما فيهن اذهب الله تعالى حزنه وأطال فرحه .

شيء اذا زال . فلم يبق الا ان تكون الز يادة والنقصان في متعلقاته دون ذاته .

وهكذا يذهب القرطبي مذهب الذين ينفون الز يادة عن أصل الايمان .

ثم يذكر أقوال العلماء فى موضوع ز يادة الايمان ملخصه في أر بعة : اولها انه يز يد و ينقص من حيث الأعمال الصادرة عنه والثاني ان الايمان عرض والعرض لا يثبت زمانين والثالث أن ز يادة الايمان ونقصه إنما هو عن طر يق الأدلة والرابع الز يادة في الايمان انما هي بنزول الفرائض والأخبار في مدة النبي صلى الله عليه وسلم وفي المعرفة بها بعد الجهل غابر الدهر .

و يستدل القرطبي للقول الأول بأن كثيراً من العلماء يوقعون اسم الايمان على الطاعات لقوله صلى الله عليه وسلم الايمان بضع وسبعون بابا فأعلاها قول لا اله الا الله وادناها إماطة الأذى عن الطر يق اخرجه الترمذي وزاد مسلم « والحياء شعبة من الايمان » .

اما القول الثاني الذى يعرضه القرطبي فالز يادة فيه في اصل الايمان ذلك لأن الايمان عرض (١) ، والعرض لا يثبت زمانين . اهـ بل يختلف من زمان الى زمان في انسان واحد وهو يختلف ايضا من انسان الى انسان .

يقول القرطبي : فهو (يعني الايمان) للنبي صلى الله عليه وسلم وللصلحاء متعاقب فيز يد باعتبار توالي امثاله على قلب المؤمن و باعتبار دوام حضوره و ينقص بتوالي الغفلات . أشار الى هذا ابو المعالي (٢) و يستدل القرطبي بحديث فى صحيح مسلم يقول : وهذا المعنى موجود في حديث الشفاعة حديث ابي سعيد الخدرى اخرجه مسلم .

والحديث طو يل في كتاب الايمان (رقم ٣٠٢ ص ١٦٧ تحقيق فؤاد عبد الباقي)

---

(١) العرض ما يوجد في حامله وهو الجوهر و يزول عنه من غير فساد حامله ومنه ما لا يزول عنه .

(٢) ابو المعالي ٤١٩ ــ ٤٧٨ عبد الملك بن ابي محمد عبد الله بن يوسف الجو يني امام الحرمين يقول الحموى اشهر من علم في رأسه نار سمع الحديث من ابي بكر احمد بن محمد بن الحارث الأصفهاني ، وكان قليل الرواية معرضا عن الحديث وصنف التصانيف المشهورة نحو نهاية المطلب في مذهب الشافعي والشامل في اصول الدين والارشاد وغير ذلك . مات بنيسابور سنة ٤٧٨ و يقول الزركلي اعلم المتأخر ين من اصحاب الشافعي .

والحديث في وصف يوم الحساب وفيه ان المؤمنين حين يخلصون من النار يأخذون بالشفاعة لاخوانهم من المؤمنين فيخرجون من النار بأمر الله من في قلبه مثقال ذرة من خير ولفظ ما جاء في الحديث ما يلي :

« حتى اذا خلص المؤمنون من النار فوالذي نفسي بيده ما منكم من احد بأشد مناشدة لله في استقصاء الحق ، من المؤمنين لله يوم القيامة لاخوانهم الذين في النار. يقولون : ربنا كانوا يصومون معنا و يصلون ويحجون فيقال لهم : اخرجوا من عرفتم ، فتحرم صورهم على النار فيخرجون خلقا كثيرا قد اخذت النار الى نصف ساقيه والى ركبتيه ثم يقولون ربنا ما بقي فيها احد ممن امرتنا به فيقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون : ربنا لم نذر فيهاأحدا ممن امرتنا ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون : ربنا لم نذر فيها ممن امرتنا احدا ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه ، فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ربنا لم نذر فيها خيرا .

و يستدل الامام البخاري عليه رحمة الله على زيادة الايمان ونقصانه بالمعنى الذي سبق في صحيحه بالآيات القرآنية ثم بالحديث التالي يرويه عن انس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يخرج من النار من قال لا اله الا الله وفي قلبه وزن برّة من خير ويخرج من النار من قال لا اله الا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير. قال ابو عبد الله قال أبان حدثنا قتادة حدثنا انس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من ايمان مكان من خير (ص ١٨ ج ١) .

والقول الثالث زيادة الايمان لزيادة الأدلة قال القرطبي ذهب قوم من العلماء الى ان زيادة الايمان ونقصه انما هو من طريق الأدلة فتزيد الأدلة عند واحد فيقال في ذلك انها زيادة في الايمان وبهذا المعنى فضل الأنبياء على الخلق فانهم علموه من وجوه كثيرة اكثر من الوجوه التي علمه الخلق بها ، وهذا المعنى لا يختلف عن المعنى الثاني كثيرا فهو زيادة في الدليل وفي المعرفة يتبعها زيادة في الأصل .

والقول الرابع يتعلق بزيادة الفرائض في زمن نزولها في عصر النبي عليه الصلاة والسلام وزيادة المعرفة بها لمن جهلها أولا بعد عصره عليه صلوات الله وسلامه .

قول السيد رشيد رضا في زيادة الايمان

و يقول السيد رشيد رضا في تفسيره :

« وفيما رواه الامام البخاري ومسلم في صحيحها شواهد صريحة في زيادة الايمان من اهمها احاديث اقل الايمان المنجي في الآخرة وحديث الايمان بضعة وسبعون شعبة اعلاها شهادة ان لا اله الا الله وادناها إماطة الأذى عن الطريق » .

ولهذا الحديث حمل بعض الناس زيادة الايمان على زيادة العمل اللازم له ، وبعضهم على زيادة ما يتعلق به الايمان ، يقول : والحق ان الايمان القلبي يزيد و ينقص أيضاً فإن ابراهيم عليه الصلاة والسلام كان مؤمنا بإحياء الله للموتى لما دعا ربه أن يريه كيف يحييها (قال أوَلَم تؤمن ؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي) فمقام الطمأنينة في الايمان يزيد على ما فوقه من الايمان المطلق قوة وكمالا .

و يروى عن على (رضي الله عنه) انه قال : لو كشف الحجاب ما ازددت يقينا ، وهذا أقوى من الايمان بالبرهان يقول : والعلم التفصيلي في الايمان اقوى واكمل من العلم الاجمالي فمن آمن بأن لله تعالى علما محيطا بالمعلومات وحكمة قام بها نظام الأرض والسماوات ورحمة وسعت جموع المخلوقات وكان علمه بهن اجماليا لو سألته ان يبين لك شواهده في الخلق لعجز عنها لا يوزن ايمانه بايمان ذي العلم التفصيلي بسنن الله في الكائنات وعجائب صنعه فيها على النحو الذي جرى عليه العلاّمة المحقق ابن القيم في كتابه تفصيل النشأتين والامام ابو حامد في كتاب التفكر من الاحياء وقد اتسعت معارف البشر بهذه الأسرار والسنن فعرفوا منها مالم يكن يخطر عشر معشاره لأحد من القرون الخالية .

ومن كلام العلماء في ذلك قول الواحدي عن عامة اهل العلم : ان من كانت الدلائل عنده اكثر واقوى كان ايمانه أزيد وقال الكرخي ان نفس التصديق يقبل القوة وهي التي عبر عنها بالزيادة للفرق المميز بين يقين الأنبياء وارباب المكاشفات و يقين آحاد الأمة .

قال السيد رشيد رضا : وضرب الغزالي مثلا لتفاوت قوة الايمان وسائر انواع العلم بمن يرى شبح انسان في السدفة (والسدفة في لغة بني تميم الظلمة والسدفة في لغة قيس الضوء وحكى الجوهري عن الأصمعي : السَّدفة والسُّدفة في لغة نجد الظلمة وفي لغة

غيرهم الضوء وهو من الأضداد . وقال عمارة السدفة ظلمة فيها ضوء من أول الليل وآخره ما بين الظلمة الى الشفق وما بين الفجر الى الصلاة قال الأزهري والصحيح ما قال عمارة) ثم يراه بعد وضوح الإسفار على بعد فلا يميز صفاته ثم يراه في نور الشمس بجانبه فهل يكون علمه به في كل هذه الأحوال واحدا ؟

يقول رشيد رضا :

وجملة القول ان زيادة الايمان ثابتة بنص هذه الآية وآيات اخرى كقوله تعالى في سورة آل عمران في وصف الذين استجابوا لله والرسول إذادعاهم الى القتال بعد ما اصابهم القرح في غزوة احد « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » وفي معناه قوله تعالى في سورة الأحزاب (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله وما زادهم الا ايمانا وتسليما) وفي معناه قوله تعالى في اول سورة الفتح : « هو الذي انزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم » يقول السيد رشيد : وعليه جمهور السلف بل حكى الاجماع عليه الشافعي واحمد وابو عبيد كما ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره يقول رشيد رضا فمن العجب بعد هذا ان تنقل هفوة لبعض العلماء انكر فيها زيادة الايمان لشبهة نظرية ويجعل مذهبا يقلد صاحبه فيه تقليدا وتؤول الآيات والأحاديث لأجله تأويلا .

ابو حنيفة رحمه الله وزيادة الايمان

ومن لطائف الأمور ان احد علماء السادة المتأخرين ممن بلغوا في العلم شأوا بعيدا هو الشيخ محمد انور الكشميري المتوفى سنة ١٣٥٢ هـ صاحب كتاب فيض الباري على صحيح البخاري .

يكاد ينكر نسبة القول بنفي الزيادة والنقصان الى الامام ابي حنيفة رحمه الله . يقول في الكتاب الذي سبق ذكره (ج ١ ص ٥٩) :

« واعلم ان نفي الزيادة والنقصان وان اشتهر عن الامام ابي حنيفة لكني متردد بشأنه لأني لم اجد فيه نقلا صحيحا صريحا » .

واما ما نسب اليه في (الفقة الأكبر) فالمحدثون على انه ليس من تصنيفه ، بل من تصنيف تلميذه ابي مطيع البلخي وقد تكلم فيه الذهبي وقال انه جهمي . اقول (من

اتباع جهم بن صفوان وهو رأس الجهمية قال الذهبي الضال المبتدع هلك في زمان صغار التابعين وقد زرع شرا عظيما ومن عقائد الجهمية ان الجنة والنار تفنيان ، وان الايمان هو المعرفة فقط دون سائر الطاعات وانه لا فعل لأحد على الحقيقة الا الله ، والانسان مجبر على افعاله الى آخر ضلالاته) .

أما ابو مطيع البلخي فاسمه الحكم بن عبد الله ترجم له الذهبي في ميزان الاعتدال وقال : كان بصيرا بالرأي علاّمة كبير الشأن ولكنه واهٍ في ضبط الأثر وكان ابن المبارك يعظمه ويجله لدينه وعلمه قال ابن معين:ليس بشيءَ وقال مرة ضعيف.وقال البخاري صاحب رأي وقال احمد لا ينبغي ان يروى عنه شيء وقال ابو داود تركوا حديثه وكان جهميا وقال العقيلي حدثنا عبد الله بن احمد سألت ابي عن ابي مطيع البلخي فقال ينبغي ان يروى عنه حكوا عنه انه يقول الجنة والنار خلقتا فستفنيان وهذا كلام جهم .

و يروي له الذهبي حديثا عن حماد بن سلمة عن ابي المهزّم عن ابي هريرة ان وفد ثقيف سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن الايمان هل يزيد او ينقص فقال لا ، زيادته كفر ونقصانه شرك (١) .

---

(١) يروي الذهبي هذا الحديث ليرينا مبلغ نكارة حديث البلخي ، وابو المهزم الذي جاء ذكره هو صاحب ابي هريرة قال النسائي متروك وقال مسلم بن ابراهيم سمعت شعبة يقول كان ابو المهزّم مطروحا في مسجد لو اعطاه انسان فلسا لحدثه سبعين حديثا وفي رواية ثانية عن شعبة ولو يعطى درهما لوضع حديثا .

و يقول الشيخ الكشميري : ونقل في شرح (عقيدة الطحاوي) عن طريق ابي مطيع البلخي عن النبي صلى الله عليه وسلم ما معناه ان الايمان لا يزيد ولا ينقص قال ابن كثير في اسناده كل رجاله مجروحون ، ورأيت هذا الحديث في الميزان في ترجمة البلخي فأسقطه الذهبي اقول لفظة فأسقطه غير واضحة ولكني رجعت الى شرح العقيدة الطحاوية فوجدت الحديث هناك مذكورا بسند كامل عن الفقيه ابي الليث السمرقندي وفي الحديث زيادة غير مذكورة عند الذهبي وهي الايمان مكمل في القلب زيادته كفر ونقصانه شرك وجملة (الايمان مكمل في القلب) هي المفقودة في رواية الميزان ولعل هذا الذي يعنيه الشيخ الكشميري بقوله فأسقطه اي اسقط منه .

واقول ان ما اسقطه الذهبي ايسر بكثير من نقل الشيخ للحديث فالشيخ الكشميري يقول نقل ما معناه ان الايمان يزيد و ينقص ولفظ الحديث زيادته كفر ونقصانه شرك ومن الأمانة العلمية ومن شروط المحدثين فيمن يحدث بالمعنى ان يكون عالما بما يغير المعنى ونقل الشيخ يخفف نكارة الحديث وقد قال عنه ناصر الدين الألباني موضوع وهو على حق في رأينا .

وممـا سبـق يـتـبين ان الـشـيخ الكشميري كان متسامحا في عزوه التهمة بالجهمية الى الذهـبـي ذلـك ان الـذهـبـي كما رأيـنا ذكر رأيه في اول الترجمة فقال كان بصيرا بالرأي عـلامـة كـبير الشأن ولكنه واه في ضبط الأثر وهذا رأي الشيخ بعينه والذهبي ينقل تهمته بـالجـهـمـيـة عـن ابي داود و يـؤيـد ذلك قول عبد الله بن احمد بن حنبل عن ابيه ثم يقول الكشميري : اقول ليس كما قال ولكنه ليس بحجة في باب الحديث لكونه غير ناقد .

وقد نفى الشيخ نفيا قاطعا بغير إيراد حجة كون ابي مطيع جهميا اما الذهبي فقد سرد اقـوال ائمـة الـنقد: البخاري وابن معين والنسائي واحمد وكان حر يا بالشيخ الكشميري ان يواجه هؤلاء في نقدهم و يبين وجه الحق .

ثم يقول الشيخ الكشميري :

وقـد رأيـت عـدة نـسـخ للـفـقـه الأكبر فـوجـدتـهـا كلها متغايرة وهكذا « كتاب العالم والمـتـعـلم » و « الوسيطين » الصغير والكبير كلها منسوبة الى الامام والصواب انها ليست لـه . وامـا الحـافـظ ابن تيمية رحمه الله تعالى فانه وان نسب الز يادة والنقصان الى امامنا رحـمـه الله تـعـالـى لـكن في طبعه سورة وحدّة فاذا عطف الى جانب عطف ولا يبالي واذا تصدى الى احد تصدى ولا يحاشي ، ولا يؤمن مثله من الافراط والتفر يط فالتردد في نقله لهذا وان كان حافظا متبحرا .

اقـول : يدع الشيخ الكشميرى نقل الامام ابن تيمية بعد ان شهد له بأنه حافظ متبحر لأن فـي طـبـعـه سـورة وحدة وقد تبين للشيخ الكشميري في النهاية ان ما ذكره ابن تيمية حق .

يـقـول الشيخ الكشميري : ولما انعدمت النقول الصحيحة عن الامام كدت انفي عنه تـلـك النسبة غير اني رأيت ان ابا عمرو المالكي (يعني ابن عبد البر) نسبه في شرح الموطأ إلـى شـيـخ إمامنا حماد وهو من المتقنين المتثبتين في باب النقل ، فلا مناص من تسليم تلك النسبة .

يقول الشيـخ الكشميري : ثم رأيت في طبقات الحنفية تحت ترجمة ابراهيم بن يوسف تـلـمـيـذ ابي يوسف ان ابراهيم بن يوسف وأحمد بن عمران انهما كانا يقولان بز يادة الايمان

ونقصانه مع كونهما من كبار الحنفية فهذا ايضا كان ير يبني (١) .

اما المحدثون فكلهم الى ان الايمان يز يد و ينقص واثبت شيء في هذا الباب عقيدة الطحاوي فانه كتب في أوله بأنه فيه عقائد الامام ابي حنيفة رحمه الله تعالى وأبي يوسف رحمة الله تعالى وأحسن شروحه شرح (القونوى) وهو حنفي المذهب تلميذ ابن كثير و يستفاد منه ان الامام رحمه الله تعالى انما نفى الز يادة والنقصان في مرتبة محفوظة كما سيأتي ولا ينفي مطلقا .

وكيف كان فقد سلمت بالقول المذكور.

و بعد ان يسلم الشيخ بنسبة نفي الز يادة والنقصان الى الامام ابي حنيفة يأخذ في بيان مراده وتقر يبه الى الأذهان و يبدأ بالتسليم بأن الز يادة والنقصان في الايمان بمعنى التصديق أمر ممكن وان لم يتكلم فيه السلف برأيه لأن السلف تكلموا في ز يادة الايمان دون تحليله بحث منطقي اوجده المتكلمون من المتأخر ين ولكنه يرجع عن هذا اعني عن كلامه عن السلف .

يحاول الشيخ الكشميري بيان مقصد الامام ابي حنيفة في قوله (الايمان لا يز يد ولا ينقص) و يصف المراحل التي مر بها في بحثه اما المرحلة الأولى فهي الر يب في نسبة هذا القول الى الامام ابي حنيفة والشك في ذلك ولقد انتهت هذه المرحلة بأنه لم يجدمناصاً من التسليم بنسبتها الى الامام .

وفي المرحلة الثانية يبين بأن الخلاف بين الامام ابي حنيفة و بين السلف ناشيء من اختلاف مفهوم الايمان ، السلف ادخلوا في مفهوم الايمان العمل وابو حنيفة لم يدخل الأعمال في الايمان ومن هنا جاء الخلاف ومعنى الز يادة في نظره على هذا عند السلف هي الز يادة في الأعمال فكان مؤدى هذا الفهم ان السلف حين قالوا ان الايمان يز يد و ينقص لم يلحظوا اجزاء الايمان يعني لم يلحظوا جزء التصديق وانما تكلموا عن الايمان بمجموعه .

يقول :والسلف انما اختلفوا في الايمان نفسه لا في جزء منه بعد التحليل فمن قال انه

---

(١) اقول لا ادرى اين مكان الر يبة في هذا او مرتاب في نسبة هذا القول الى اثنين من كبار الحنفية ام يرى ان قولهما يز يادة الايمان يز يده ر يبة في نسبة القول الى الامام ابي حنيفة ولعل الأول اقرب .

قول وعمل ذهب الى الزيادة والنقصان لأنه ادخل العمل في الايمان فمن عمل عملا صالحا فقد تم ايمانه ومن نقص فيه انتقص ايمانه لا محالة ومن لم يدخل الأعمال في الايمان بل جعله عبارة عن التصديق لم يلزم عليه ذلك فأصل النزاع في ادخال الأعمال في مسمى الايمان واخراجها عنه وان الايمان امر او امور ولذا بوب البخاري فيما بعد « باب امور الايمان » .

وفي هذه المرحلة لا يحجم الشيخ الكشميرى عن التصريح بأن الايمان بمعنى التصديق يزيد و ينقص و يرد على حجج النفاة و يلخص ادلتهم بدليلين يردهما .

اما الدليل الأول الذي يرده فخلاصته ان التصديق ماهية فلو قلنا بالزيادة والنقصان لزمنا التشكيك في نفس الماهية والتشكيك في الماهية باطل .

يذكر الشيخ بأن الكمال بن الهمام لجأ الى هذا الدليل والكشميرى يرده من وجهين اولهما انه استمداد من قواعد الفلاسفة وهو عار والوجه الثاني انه لا حرج في التشكيك في الماهية فدليلهم في نفسه باطل عند المحققين و يقول لو صح قولهم للزم عليه الا تكون الصلاة ايضا ناقصة وزائدة مع ان زيادتها ونقصانها لا ينكره احد .

والدليل الثاني قالوا لو جوز التشكيك في التصديق لزم اجتماع التصديق والشك معا فلا يبقى التصديق منجيا فلا يكون ايمانا .

يقول:وهذا افحش من الأول و يضرب مثلا بسواد الغراب وسواد الثوب و يقول نقص سواد الغراب عن سواد الثوب لا يستلزم مجيء جزء من البياض في سواد الغراب لأن السواد عرض عريض وفيه مراتب لا يعدها عادٌّ و ينتقل بعد بحثه هذا الى التصديق و يقول : كذلك التصديق لا ينتفي الا بعد انتفاء جموع مراتبه ولا يلزم بانتفاء جزء منه ان يقوم مقامه جزء من الكفر فان الايمان ايضا عرض عريض .

و بعد ان يثبت ان التصديق يعتريه النقص والزيادة يقول : على ان هذا البحث لم يجر لدى السلف بل هو بحث عقلي اوجده المتأخرون و يبين ما سبق ان ذكرنا ان بحث السلف في مجموع الايمان لا في اجزائه ثم يرجع فيبين خطأه في هذا الفهم بعد زيادة النظر والتأمل . يقول : هكذا كنت اقيم تحقيق الاختلاف (يعني بأن من قال انه قول

وعمل ذهب الى الز يادة والنقصان ومن لم يدخل الأعمال في الايمان لم يلزمه ذلك)
واليه ذهب اكثر الشارحين . يقول ثم رأيت ز يادة في مقولة السلف انقلب منها المراد
ففهمت حقيقة الحال وهي انهم قالوا الايمان يز يد بالطاعة و ينقص بالمعصية فبان منه
انهم قائلون بالز يادة والنقصان في التصديق الباطني لا في الايمان المركب .

وهنا دخل الشيخ الكشميرى في مرحلته الأخيرة ففهمه السابق ليس صحيحا وقد
وجدنا هذا الفهم لدى القرطبي ونقلنا عنه انه يقول الز يادة والنقصان بالز يادة والنقصان
في التصديق نفسه وهو قد اثبت لنا عقليا امكان ز يادة التصديق ونقصه فما معنى قول
الامام ابي حنيفة ان الايمان لا يز يد ولا ينقص .

قال السلف : الايمان يز يد بالطاعة و ينقص بالمعصية .
يقول الشيخ الكشميرى : ان عبارتهم هذه تدل على ان الأعمال داخلة في ازدياد
الايمان ونقصانه وسبب له وان لها سراية وتأثيرا في نماء التصديق والايمان لا انها اجزاء ،
فليس الاخلال عندهم بالعمل كقطع الغصن من الشجرة بل كعدم سقيها بالماء فلابد من
أن تيبس .

بعد كل هذا ما هو موقف الإمام ابي حنيفة في ز يادة الايمان ونقصه ؟
بعد ذكر ما سبق و بعد التنبيه الذي اورده الشيخ من ان الأعمال كالماء بالنسبة
للشجرة اذا انقطع عنها كان سببا في موتها فهي عامل أساسي في نمو الايمان و بقائه ، بعد
ذكر هذا يقول : ثم الز يادة والنقصان بهذا المعنى أمر لا ينكره الامام فان الانفساح
والانشراح زائد وناقص قطعا وهو المبحوث عنه في القرآن وعليه يحمل ما تلا المصنف
(يعني البخاري رحمه الله) من الآيات . اقول ولفظة الانفساح والانشراح تلفت النظر لقد
اثبت الشيخ امكان الز يادة والنقصان في التصديق نفسه فأين يقع الانفساح والانشراح
من التصديق أهو نفسه ام ثمرته ؟ يجيب بعد قليل بأنها من مراتب الكمال في التصديق .

يقول : وحاصل الخلاف على هذا التقدير أن الامام أبا حنيفة رحمه الله تعرض لأمر لم
يتعرض له السلف فإنه تكلم في مرتبة محفوظة وهي التي يدور عليها أمر النجاة وليس
بعدها الا الكفر.

و يقول : فالتصديق وان كان زائدا او ناقصا باعتبار مراتب الكمال والانفساح والانشراح إلا أن هنالك مرتبة منه معينة ذكرها الكمال بن الهمام وسماها التصديق بمعنى انتفاء الشك لا تفاوت فيها لأنه لا تفاوت بين الانتفاء والانتفاء وانما التفاوت في الانشراح والاستيلاء .

يستشهد الشيخ الكشميرى على ما ذكر بقول الغزالي :
قال رحمه الله إن الايمان قد يطلق على اليقين بمعنى انتفاء النقيض ولا تفاوت فيه وقد يطلق على استيلاء اليقين على القلب وجعله الجوارح تابعة له وهو الأكثر وهذا هو الذي فيه التفاوت واستشهد ايضا بقول الطحاوي في عقيدته ، قال رحمه الله :

الايمان واحد وأهله في أصله سواء ، والتفاضل في الخشية والتقى ومخالفة الهوى وملازمة التقوى ... الخ

يقول الكشميرى : فجعل للايمان أصلاً وجعل الناس كلهم فيه سواء وهو الذي لو انحط عنه الإيمان لجاء الكفر مكانه ، وأبقى التفاضل في امور تتعلق بالايمان من الخشية وغيرها والايمان بمعنى التقوى والخشية يز يد و ينقص والناس يتفاضلون فيه .

وهكذا بين الكشميرى أن كلام الامام منصب على أصل الايمان الذي لو نقص عنه لانتهى الى الكفر وهنا ترد عليه ايرادات كثيرة منها أن الشيخ نفسه رحمه الله قال إن الامام أبا حنيفة تعرض لأمر لم يتعرض له السلف والذي يبدو لنا جلياً أن عدم التعرض له هو الأولى وان يسعنا ما وسع السلف هو الأولى ذلك لأنه فتح لبحوث نظر ية ومجادلات كلامية لا تأتي بطائل ولكنها تصرف المؤمنين عن واجبهم الأول وهو العمل والجهاد وإصلاح مجتمعهم و بناء أمتهم وحمل دعوتهم الى الناس جميعا ثم ان هذا البحث يفرق الجماعة و يكسر الوحدة ولذلك كان التزام ما فعله السلف والاكتفاء به هو الأولى ثم إن هذا البحث النظري ليس مما تدركه العقول ادراكاً تصل فيه الى كنهه و يبدو لي جلياً أنه لا يخلو من أخطاء مهما تعمق الباحث فيه ذلك أن حقيقة الانسان مجهولة . ولقد نقل الشيخ عن الكمال بن الهمام وعن الغزالي بأنهما جعلا للايمان أصلاً لا تفاوت فيه وهذا في نظرى كلام يحسبه المنطق صوابا وهو في الواقع خطأ ، اذا كان الكمال يتفاوت عند الرجال فلأن الأصل يتفاوت أيضاً وما هو هذا الأصل أيمكن تحديده وقياسه هل يمكن

أن نقيس أصل الايمان لدى أي انسان ونحذف عنه الزوائد التي اضيفت الى الأصل ؟ .

هل الناس متساوون في هذا الأصل ؟ أهذا الأصل كمٌ أم كيف ؟ هل أصل ايمان ابي بكر كأصل ايمان عامة الناس ؟ هل يتأثر هذا الأصل بعقل الانسان ومزاجه وعواطفه وميوله ورغباته وهذه كلها مختلفة متفاوتة من انسان لانسان ، إن من حكمة الله جل شأنه أن جعل في هذا الانسان وفي المخلوقات جميعا وحدة في افتراق وافتراقاً في وحدة فالبشر كلهم يشتركون بصفات البشرية و يفترق كل واحد عن الآخر بما يميزه عنه في كل صغيرة وكبيرة فلا يشبه لونٌ لونا ولا صوتٌ صوتا ولا فهم فهما وكذلك لا يشبه ايمان ايمانا ولا يشبه أصل بإيمان أصل ايمان .

على أن هذا البحث بهذه الطريقة قد يكون غير مجد أيضاً والبحث السليم كما قال ابن تيمية رحمه الله : الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث اذا عرف تفسيرها من جهة النبي صلى الله عليه وسلم لم يحتج في ذلك الى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم .

حقيقة الانسان مجهولة

يتساءل الباحثون المحدثون الذين قطعوا أشواطاً حسنة في معرفة سلوك هذا الانسان سلوكه الظاهري وسلوكه النفسي يتساءلون كيف يفكر هذا الانسان وكيف يحب وكيف يبغض وكيف يعتقد ويجدون أنفسهم عاجزين عن الاجابة عن هذه الاسئلة إجابة دقيقة عميقة ذلك أن كل ما توصلوا اليه شيء يسير جدا عن هذه الحوادث النفسية التي لا ينقطع الانسان لحظة من المرور بعشرات منها عرفوا يسيرا عن مظاهر هذه الحوادث و بعض ارتباطاتها ولكنهم يجدون من العسير جدا أن يصلوا الى الحقيقة والى الأعماق ونجدهم ما يزالون يختلفون اختلافا كبيرا فى تفسير الحوادث النفسية بحسب المدارس التي ينتمون اليها فهنالك الماديون الذين ينفون وجود نفس في هذا الانسان أو عقل له كيان خاص يؤثر في وجود المادى و يتأثر به بل هم يرون أنه ليس هنالك شيء وراء هذا الجسم وآلاته واعصابه وما الذي يسميه الناس نفسا او عقلا إلا أثر من آثار هذه الجسم المادي في نظر هؤلاء وهم لا يؤمنون بأن للانسان فطرة أو استعدادا فطريا يأتي الى هذا العالم وهو مجهز به يحمله في ثنايا نفسه ولكنه يتعلم كل شيء بعد ولادته من بيئته هذه النظرة المادية تغاير نظرة أكثر الباحثين في علم النفس ذلك انهم يرون أن الكيان النفسي غير الكيان

الجسمي وأن في هذا الانسان استعدادات فطرية يحلمها في تكوينه قبل أن يولد .

وكل هذا نرمي من ورائه الى غرض هام جدا أن هذا الانسان مايزال مجهولا ولم يستطع الباحثون بعد أن يعرفوا أبسط العمليات النفسية التي يقوم بها كيف يتذكر أو ينسى كيف يُسر أو يتألم وكيف يغضب أو يرضى و بيت القصيد كيف يعتقد ، وهذا الموضوع أعظم الموضوعات التى عالجها الباحثون أهمية .

والحق أنه لما كان عنصر الحياة مجهولا وحقيقة معنى الحياة مجهولة فكذلك كل ما يتصل بهذه الحياة مايزال مجهولا في حقيقته وجوهره ، وانما يعرف الباحثون مجرد الارتباطات الظاهرة .

دراسة الاعتقاد دراسة نفسية

وفي دراسة الاعتقاد دراسة نفسية نجد بعض الباحثين يبنون الاعتقاد على الحاجة والعمل فيقولون إن الأفكار التي نصدقها هي الأفكار الناجحة في حياتنا وعلى هذا فالعمل ميزان الاعتقاد بمعنى أن الأفعال التي نقوم بها إذا أدت الى النجاح تمسكنا بها واعتقدنا صحتها . و يرى هؤلاء أن الاعتقاد يتغذى بالعمل و بالحياة وأن الايمان الذي لا يعمل قد يكون صادقا ولكنه لا يلبث أن يصاب بالفتور والموت ثم إن الاعتقاد لا يفارق مظاهره الخارجية أبداً .

هذه النظرية تؤيد قول السلف بأن الايمان لا يمكن ان ينفصل عنه العمل .

وهكذا ترى هذه النظرية النفسية أن الاعتقاد ليس إلا الظواهر الناجحة في الحياة التي هي مظهر للاعتقاد .

وقد نقدها ناقدوها بأنها غالت في تقدير الأعمال وجعلتها هي الاعتقاد وحدها .

والنظرية الثانية ترى ان الاعتقاد مجرد من تأثير العقل تماما وانه قائم على ما لقنه وما رغب فيه فبعض الناس يعتنق مذهبا لما يرى فيه من تحقيق مصالحه وهكذا يرى هؤلاء أن ايمان اكثر الناس بالعقائد الموروثة مبني على التقليد والتلقين لا على اليقين و يرون أن العقل يسخر لما يريد الانسان فلا يريد الانسان ما يستيقن به ولكنه يستيقن ما يريد ونتائج هذه النظرية الريب لأن الاعتقاد في نظر هؤلاء لا يستند إلى أصول برهانية ثابتة .

والنظرية الثالثة يقول بها انصار المبدأ العقلي الذين يقولون ان الاعتقاد تابع للعقل وفي رأي هؤلاء أن العقل لا يستبدل بالبراهين الرغائب ولا يدع الأسباب العقلية للبواعث العاطفية واذا حاولت الرغبات أن تغتصب حق العقل شعر الانسان أنه يكذب على نفسه .

أكبر دليل في نظر هؤلاء أن الذين يشكون في النظرية العقلية هم انما يحاربون العقل بالعقل نفسه .

وقد وجد الباحثون أن كل نظرية من النظريات السابقة لا تخلو من جانب من الصواب كما لا تخلو من خطأ والخطأ فيها كلها اعتبارها احوال النفس منفصلا بعضها عن بعض والواقع ليس كذلك إذ النفس وحدة متصلة وكل مترابط الأجزاء متداخل فالعقل لا ينفصل عن الانفعالات والوجدانات وهي لا تنفصل عنه والارادة محصلة لجميع القوى المنبعثة عن الأفكار والعوطف .

واذا كانت الفكرة قوة دافعة كما يقول اصحاب المذهب العقلي فالعواطف ايضا قوى محركة والعقل محتاج الى العمل ليمتحن المعاني التي لديه وهكذا كان الرأي الصواب أن العناصر الثلاثة تسهم في بناء كل عقيدة وهي الفكر والعاطفة والعقل والنفس بكل ما فيها تشارك في الاعتقاد وقد يكون لبعض مظاهر النفس غلبة على المظاهر الأخرى ويختلف ذلك باختلاف الأحوال والأشخاص .

ثم إن الاعتقاد لابد له من اسباب اجتماعية أيضاً فلا يعيش المعتقد ولا ينمو إلا اذا هيأ له المجتمع أسباب الحياة والنمو.

وهكذا نجد هذا البحث النفسي السابق يلتقي تمام الالتقاء مع رأى السلف في موضوع الاعتقاد فالاعتقاد ليس تصديقا فكرياً فحسب ولكنه يشمل النفس بكل ما فيها فهو أمر يجري في نفس المرء ولكن ما يجري في الداخل لا يمكن ان يترجمه السلوك وتدل عليه المظاهر.

المصطلحات الشرعية يحكم في معناها الشرع

ولكن مهما بلغ تفكيرنا في الأمر فلن يصل الى كبد الحقيقة والرأي في مثل هذه

الموضوعات التي تولى الشرع بيانها وايضاحها آن نلتزم ما جاء به الشرع لا نحيد عنه ولا نحاول بحثه بعقولنا بحثا بعيدا عما أتى به الشرع فلن تصل عقولنا في هذا المضمار الى كنه ولكن تدرك الأعماق ، وهذا الذي نبه اليه الامام ابن تيمية عليه رحمة الله ووجه الانظار اليه فكان قوله نبراساً مضيئاً وفيصلاً حاسما .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية عليه رحمة الله في كتاب الايمان :

ومما ينبغي ان يعلم أن الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث اذا عرف تفسيرها وما أريد بها من جهة النبي صلى الله عليه وسلم لم يحتج في ذلك الى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم ، ولهذا قال الفقهاء الأسماء ثلاثة انواع : نوع يعرف حده بالشرع كالصلاة والزكاة ونوع يعرف حده باللغة كالشمس والقمر ونوع يعرف حده بالعرف كلفظ القبض ولفظ المعروف في قوله تعالى (وعاشروهن بالمعروف) ونحو ذلك .

يقول عليه رحمة الله :

وأهل البدع إنما دخل عليهم الداخل لأنهم أعرضوا عن هذه الطريق وصاروا يبنون دين الاسلام على مقدمات يظنون صحتها إما في دلالة الالفاظ واما في المعاني المعقولة ولا يتأملون بيان الله ورسوله . وكل مقدمة تخالف بيان الله ورسوله فانها تكون ضلالا ولهذا تكلم أحمد في رسالته المعروفة في الرد على من يتمسك بما يظهر له من القرآن من غير استدلال ببيان الرسول والصحابة والتابعين وكذلك ذكر في رسالته الى عبد الرحمن الجرجاني في الرد على المرجئة .

وهذه طريقة سائر ائمة المسلمين لا يعدلون عن بيان الرسول اذا وجدوا الى ذلك سبيلا ، ومن عدل عن سبيلهم وقع في البدع التي مضمونها انه يقول على الله ورسوله ما لا يعلم أو غير الحق وهذا مما حرمه الله ورسوله .

قال تعالى في الشيطان : « انما يأمركم بالسوء والفحشاء ، وان تقولوا على الله مالا تعلمون » وقال تعالى « الم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب الا يقولوا على الله إلاّ الحق » وهذا من تفسير القرآن بالرأي الذي جاء فيه الحديث « من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » .

يقول شيخ الاسلام : « مثال ذلك أن المرجئة لما عدلوا عن معرفة كلام الله ورسوله

اخذوا يتكلمون في مسمى **الايمان** والاسلام وغيرهما بطرق ابتدعوها ، مثل أن يقولوا الايمان باللغة هو التصديق والرسول انما خاطب الناس بلغة العرب لا بغيرها فيكون مراده بالايمان التصديق ثم قالوا والتصديق انما يكون بالقلب واللسان أو بالقلب فالأعمال ليست من الايمان .

فيقال لهم اسم الايمان قد تكرر ذكره في القرآن والحديث اكثر من ذكر سائر الألفاظ وهو أصل الدين وبه يخرج الناس من الظلمات الى النور ، و يفرق بين السعداء والأشقياء ، ومن يوالي ومن يعادي ، والدين كله تابع لهذا ، وكل مسلم محتاج الى معرفة ذلك أفيجوز أن يكون الرسول قد أهمل هذا كله ووكله الى هاتين المقدمتين يعني بالمقدمتين الأولى الايمان هو التصديق والتصديق انما يكون بالقلب فالأعمال ليست من الايمان .

يقول ونقل معنى الايمان متواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم فان الايمان يحتاج الى معرفته جميع الأمة فينقلونه ، فلا يجوز أن يكون أصل الدين مبنيا على مثل هذه المقدمات » .

ينفي شيخ الاسلام أن يكون التصديق مرادفاً للايمان و يبين وجوه المفارقة بينهما . و يرى أن تفسير الايمان بالإقرار أقرب من تفسيره بالتصديق مع البون بين الايمان والإقرار ثم يذكر أن لفظ الايمان لا يستعمل الا في الخبر عن غائب وليس كذلك التصديق فلا يقال لمن اخبر عن مشاهدة كقوله طلعت الشمس وغربت آمنا ولا آمنا له ، ولكن يقال صدقناه فان الايمان مشتق من الأمن فيستعمل في خبر يؤتمن عليه المخبر كالأمر الغائب الذى يؤتمن عليه المخبر.

ثم إن لفظة الايمان لا تقابل باللغة بالتكذيب اما لفظة التكذيب فيقابلها التصديق ولفظة الايمان يقابلها الكفر والكفر ليس تكذيبا فحسب وكذلك الايمان ليس تصديقاً فحسب .

الكفر قد يكون تكذيباً وقد يكون مخالفة ومعاداة وامتناعا بلا تكذيب والايمان على هذا ليس تصديقا فحسب بل هو تصديق مع موافقة وموالاة وانقياد .

قولهم إن التصديق لا يكون الا بالقلب مردود

و بعد هذا التفريق بين الايمان والتصديق الذى هو غاية في الابداع يتنزل ابن تيمية

و يقول اذا فرض انه مرادف للتصديق فقولهم إن التصديق لا يكون الا بالقلب أو اللسان عنه جوابان :

اولها لا نسلم بأن التصديق خاص بالقلب واللسان بل التصديق يشمل الأفعال كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « العينان تزنيان وزناهما النظر والأذن تزني وزناها السمع واليد تزني وزناها البطش والرجل تزني وزناها المشي » وقال الحسن البصري : « ليس الايمان بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال » .

وهكذا يثبت ابن تيمية عليه رحمة الله أن التصديق يكون في الجوارح و يكون في الأعمال وهو معنى لطيف ايضا فالمؤمن تصدق جوارحه ايمانه ، يصدق ايمانه وجهه ولسانه و يده ورجله وسعيه .

و ينقل ههنا كلام سعيد بن جبير بأن التصديق ان يعمل العبد بما صدق به من القرآن والقصة جميلة ننقلها بنصها :

روى محمد بن نصر باسناده ان عبد الملك بن مروان كتب الى سعيد بن جبير يسأله عن هذه المسائل فأجابه عنها : سألت عن الايمان فالايمان هو التصديق أن يصدق العبد بالله وملائكته وما انزل من كتاب وما ارسل من رسول و باليوم الآخر وسألت عن التصديق والتصديق ان يعمل العبد بما صدق به من القرآن ، وما ضعف عن شيء منه وفرط فيه عرف انه ذنب واستغفر الله وتاب منه ولم يصر عليه فذلك هو التصديق ، وتسأل عن الدين فالدين هو العبادة فإنك لن تجد رجلا من أهل الدين ترك عبادة أهل دين ثم لا يدخل في دين آخر الا صار لا دين له ، وتسأل عن العبادة والعبادة هي الطاعة .

و ينقل ابن تيمية رحمه الله قول معمر عن الزهري كنا نقول الاسلام بالاقرار والايمان بالعمل والايمان قول وعمل قرينان لا ينفع أحدهما إلا بالآخر .

و ينقل قول الأوزاعي : كان من مضى من سلفنا لا يفرقون بين الايمان والعمل : العمل من الايمان والايمان من العمل .

يقول ابن تيمية هب ان الايمان هو التصديق فهو تصديق مخصوص كما ان الصلاة دعاء مخصوص ، والحج قصد مخصوص والصيام امساك مخصوص وهذا التصديق له لوازم

وصارت لوَازمه داخلة في مسماه عند إطلاق لفظه ، فان انتفاء اللازم يقتضي انتفاء الملزوم و يبقى النزاع لفظيا هل الايمان دال على العمل بالتضمن أو باللزوم .

أقول : أورد الامام ابن تيمية أدلة ثلاثة وسلك مسالك ثلاثة أولها نفى فيها أن يكون الايمان هو التصديق وحده والثاني سلم تنزلا انه هو ولكنه لم يسلم ان التصديق لا يكون الا بالقلب بل الجوارح تصدق والأعمال تصدق والثالث سلم أيضاً أن الايمان تصديق ولكنه تصديق مخصوص له لوازمه من العمل وعلى الوجه الأخير الايمان يدل على العمل دلالة لزومية والوجهين الأولين تضمنية . وأدلته أدلة واضحة مقنعة لا سبيل إلى الطعن فيها .

و بعد هذا كله يقول عليه رحمة الله منصفا :

التنازع بين أهل السنة في هذه المسألة نزاع لفظي ذلك أن القائلين بأن « الايمان قول » من الفقهاء كحماد بن ابي سليمان وهو أول من قال ذلك ومن اتبعه من أهل الكوفة وغيرهم متفقون مع جميع علماء السنة على أن أصحاب الذنوب داخلون تحت الذم والوعيد .

والايمان بدون العمل المفروض يكون صاحبه مستحقا للذم والعقاب كما تقوله الجماعة و يقولون ايضا بأن من أهل الكبائر من يدخل النار كما تقوله الجماعة .

فليس بين فقهاء الملة نزاع في أصحاب الذنوب إذا كانوا مقرين باطناً وظاهرا بما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام وما تواتر عنه من أنهم من اهل الوعيد وأنه يدخل النار منهم من أخبر الله ورسوله بدخوله فيها ولا يخلد منهم فيها أحد ولا يكونون مرتدين مباحي الدماء ولكن الأقوال المنحرفة من يقول بتخليدهم في النار كالخوارج والمعتزلة وقول غلاة المرجئة : (ما نعلم أحداً منهم يدخل النار) .

بعد ان اثبت شيخ الاسلام ابن تيمية عليه رحمة الله بأدلة لا تدفع أن الايمان تصديق وقول وعمل ، عرض للمشكلة التالية وأوضح سبيل المخرج منها قال : إذا كان الايمان المطلق يتناول جميع ما أمر الله به ورسوله فتى ذهب بعض ذلك فهل يبطل الايمان و يلزم عليه تكفير أهل الذنوب كما تقول الخوارج أو تخليدهم في النار وسلبهم اسم الايمان بالكلية كما تقول المعتزلة ؟ .

و يقول عليه رحمة الله في الجواب : تخليد أهل الكبائر في النار هو قول لم يوافق الخوارج عليه أحد من أهل السنة ولقد اتفق الصحابة والتابعون لهم وسائر أئمة المسلمين على أنه لا يخلد في النار أحد ممن في قلبه مثقال ذرة من إيمان واتفقوا أيضاً على أن نبينا محمدا عليه الصلاة والسلام يشفع فيمن يأذن الله له بالشفاعة فيه من أهل الكبائر من امته ، ففي الصحيحين عنه أنه قال : « لكل نبي دعوة مستجابة وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة ».

و ينتقل بعد رد بدعة الخوارج إلى الحديث عن أصل الموضوع وهو أن الايمان إذا ذهب بعضه ذهب ، يقول : هذا ممنوع وقد تفرع عن هذا الأصل بدعتان متقابلتان إحداهن تقول إذا ذهب من الايمان بعضه ذهب كله لم يبق منه شيء فيخلد صاحبه في النار والفرقة المقابلة (المرجئة) تقول : لا تذهب الكبائر والمعاصي ولا ترك الواجبات الظاهرة بشيء من الايمان إذ لو ذهب شيء منه لم يبق منه شيء .

يقول ابن تيمية رحمه الله ونصوص الرسول وأصحابه تدل على ذهاب بعضه و بقاء بعضه كقوله « يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من ايمان » .

يقول رحمه الله ولهذا كان اهل السنة والحديث على ان الايمان يتفاضل.جمهورهم يقول يزيد و ينقص ومنهم من يقول يزيد ولا يقول ينقص كما روى عن مالك في إحدى الروايتين ومنهم من يقول كعبد الله بن المبارك وقد ثبت لفظ الزيادة والنقصان عن الصحابة يقول ابن تيمية ولم يعرف فيه مخالف من الصحابة .

روى الناس من وجوه كثيرة مشهورة عن حماد بن سلمة عن أبي جعفر عن جده عمير بن حبيب الخطمي وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الايمان يزيد و ينقص قيل له وما زيادته وما نقصانه قال : إذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فتلك زيادته واذا غفلنا ونسينا فذلك نقصانه .

وروى اسماعيل بن عياش بسنده عن أبي الدرداء قال : الايمان يزيد و ينقص .
وقال احمد بن حنبل حدثنا يزيد قال حدثنا جرير بن عثمان قال سمعت أشياخنا أو بعض أشياخنا أن أبا الدرداء قال : إن من فقه العبد أن يتعاهد ايمانه وما نقص منه ومن

فقه العبد أن يعلم أيزداد ايمانه أم ينقص ؟ وان من فقه الرجل أن يعلم نزغات إلشيطان أنى تأتيه .

وروى اسماعيل بن عياش بسنده إلى أبي هر يرة قال الايمان يز يد و ينقص .

وروى احمد بن حنبل بسنده الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول لأصحابه هلموا نزدد ايمانا فيذكرون الله عز وجل .

وقال أبو عبيد في الغر يب في حديث على أن الايمان يبدو لمظة في القلب كلما ازداد الايمان ازدادت اللمظة .

و يروي احمد بن حنبل باسناده الى ابن مسعود يقول في دعائه اللهم زدنا إيماناً و يقيناً وفقهاً .

و يروى سفيان الثوري بإسناده الى معاذ بن جبل يقول للرجل اجلس بنا نؤمن نذكر الله ، وروى أبو اليمان باسناده أن عبد الله بن رواحة كان يأخذ بيد الرجل من أصحابه فيقول قم بنا نؤمن ساعة فنحن في مجلس ذكر،وصح عن عمار بن ياسر أنه قال ثلاث من كن فيه فقد استكمل الايمان : الإنصاف من نفسه والإنفاق من إقتار ، و بذل السلام للعالم .

قال ابن تيمية عليه رحمة الله :

وقال جندب بن عبد الله وابن عمر وغيرهما : تعلمنا الايمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا ايمانا .

وقال مالك بن دينار: الايمان يبدو في القلب ضعيفا ضئيلا كالبقلة فان صاحبه تعاهده فسقاه بالعلوم النافعة والأعمال الصالحة وأماط عنه الدغل (١) وما يضعفه و يوهنه لاشك أن ينمو و يزداد و يصير له أصل وفروع ، وثمرة وظل الى ما لا يتناهى حتى يصير أمثال الجبال ، وإن صاحبه أهمله ولم يتعاهده جاءه عنز فنتفتها (٢) أو صبي فذهب بها أو كثر عليها الدغل (٣) فأضعفها أو أهلكها أو أيبسها كذلك الايمان .

(١) الدغل الفساد مثل الدخل ،والدغل الشجر الكثير الملتف وقيل هواشتباك النبت وكثرته والمراد هنا الفساد .

(٢) لفظة عنز مؤنثة وهي الأنثى من المعز والنتف فصيحة نزع الشعر وما يشبهه .

(٣) هنا اشتباك النبت وكثرته .

وقال خيثمة بن عبد الرحمن الايمان يسمن في الخصب ويهزل في الجدب فخصبه العمل الصالح وجدبه الذنوب والمعاصي وقيل لبعض السلف يزداد الايمان و ينقص، قال نعم يزداد حتى يصير أمثال الجبال، و ينقص حتى يصير أمثال الهباء.

وفي حديث حذيفة الصحيح: «حتى يقال للرجل ما أجلده، ما أظرفه، ما أعقله وما في قلبه مثقال حبة من خردل من ايمان».

وهذا الحديث في صحيح مسلم في باب رفع الأمانة والايمان من بعض القلوب (١) قال حذيفة حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد رأيت احدهما وانا أنتظر الآخر، حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال (٢). ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة ثم حدثنا عن رفع الأمانة قال: «ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت (٣) ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل المجل (٤) كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبرا (٥) وليس فيه شيء (ثم اخذ حصا فدحرجه على رجله) فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة حتى يقال إن في بني فلان رجلا أميناً، حتى يقال للرجل ما أجلده، ما أظرفه، ما أعقله، وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان».

والحديث الآخر يرويه ابن تيمية وهو في صحيح مسلم (٦) ونصه كما يلي عن حذيفة قال كنا عند عمر فقال: أيكم سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الفتن فقال قوم نحن سمعناه فقال: لعلكم تعنون فتنة الرجل في اهله وجاره قالوا اجل (٧) قال تلك

---

(١) ١/١٢٦

(٢) الأمانة هنا هي الأمانة المذكورة في قوله تعالى انا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين ان يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان.والأمانة هي عين الايمان فاذا استمكنت الأمانة من قلب العبد قام حينئذ بأداء التكاليف واغتنم ما يرد عليه منها وجد في اقامتها.

(٣) هو الأثر اليسير أو هو سواد يسير.

(٤) هو التنفط الذى يصير في اليد من العمل بفأس او نحوها و يصير كالقبة فيه ماء قليل.

(٥) نفطت يده من باب تعب اذا صار بين الجلد واللحم ماء، ومنتبرا مرتفعا ومنه المنبر لارتفاعه.

(٦) ١/١٢١ ـ ٤/٢٢١٨

(٧) فتنة الرجل في اهله من باب قوله تعالى انما اموالكم واولادكم فتنة فقد يقع في الافراط في شأنهم أو التفريط بما يلزم من القيام بحقوقهم وتعليمهم، وكذا الشأن في الجار قد يقصر في حقه واكثر هذه ذنوب تكفرها الحسنات.

تكفرها الصلاة والصيام والصدقة ولكن ايكم سمع النبي صلى الله عليه وسلم يذكر الفتن التي تموج موج البحر قال حذيفة فأسكت القوم فقلت أنا قال : أنت لله ابوك .

قال حذيفة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً فأي قلب أشربها (١) نكت فيه نكتة سوداء (٢) وأي قلب أنكرها (٣) نكت فيه نكتة بيضاء . حتى تصير على قلبين على أبيض مثل الصفا (٤) فلا تضره فتنة مادامت السماوات والأرض والآخر أسود مر بادا كالكوز مجخيا (٥) لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه .

قال حذيفة وحدثته أن بينك و بينها بابا مغلقا يوشك أن يكسر قال عمر أكسراً لا أبا لك (٦) فلو أنه فتح لعله كان يعاد قلت لا بل يكسر وحدثته أن ذلك الباب رجل يقتل أو يموت ، حديثا ليس بالأغاليط (٧) .

يقول ابن تيمية عليه رحمة الله :

وفي حديث السبعين الفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب كفاية فانه من أعظم الأدلة على ز يادة الايمان ونقصانه لأنه وصفهم بقوة الايمان وز يادته في تلك الخصال التي تدل على قوة ايمانهم وتوكهلم على الله في امورهم كلها .

والحديث يرو يه مسلم (٨) عن عمران بن حصين باللفظ التالي :

قال عمران بن حصين قال نبي الله صلى الله عليه وسلم : « يدخل الجنة من امتي

---

(١) اى دخلت فيه دخولا تاما ومنه قوله تعالى : واشر بوا في قلوبهم العجل .

(٢) كل نقطة فى شيء بخلاف لونه فهو نكت .

(٣) ردها .

(٤) الصفا الحجر الأملس الذى لا يعلق به شيء .

(٥) مائلا منكوسا وقال القاضى عياض قلب ونكس حتى لا يعلق به خير ولا حكمة .

(٦) هذه كلمة تذكرها العرب للحث على الشيء معناها جد في هذا الأمر وشمر وتأهب تأهب من ليس معاون .

(٧) قال شارح الحديث : والحاصل ان الحائل بين الفتن والاسلام عمر رضي الله عنه وهو الباب فما دام حيا لا تدخله الفتن فإذا مات دخلت الفتن وكذا كان .

(٨) الإيمان ٣٧١

سبعون الفا بغير حساب قالوا ومن هم يارسول الله قال:هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة فقال ادع الله ان يجعلني منهم قال:انت منهم قال فقام رجل فقال يانبي الله ادع الله ان يجعلني منهم قال سبقك بها عكاشة .

والرواية الثانية عند مسلم عن عمران بن حصين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:« يدخل الجنة من امتي سبعون الفا بغير حساب» قالوا من هم يارسول الله قال:« هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون » .

أقول ومن الأخبار الجديرة بالتأمل التي تثبت تقلب قلب المؤمن بين إقبال وإعراض وذكروغفلة حديث حنظلة رضي الله عنه وهو أبو ربعي حنظلة بن الربيع الأسيدي أحد كتاب رسول الله وقد خشي في حديثه النفاق على نفسه ، والحديث يرو يه مسلم بسنده عن حنظلة ؟ قل نافق حنظلة قال سبحان الله ما تقول ؟ قلت نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرنا بالجنة والنار كأنا رأي عين فاذا خرجنا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيرا .

قال ابو بكر رضي الله عنه فوالله إنا لنلقى مثل هذا فانطلقت انا وابو بكر حتى دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت نافق حنظلة يارسول الله فقال رسول الله عليه وسلم:وما ذاك.قلت:يارسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنا رأي العين فاذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عليه عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ولكن ياحنظلة ساعة وساعة ثلاث مرات .

وجاء في حديث أبي ذر « وعلى العاقل ان يكون له ساعات ساعة يناجي فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يفكر فيها في صنع الله وساعة يخلو فيها لحاجته من مطعم أو مشرب » .

ولقد كان لأصحاب رسول الله عليه صلوات الله وسلامه في صحبتهم لرسول الله ما يعرج بنفوسهم الى الملأ الأعلى وما يدفعهم الى حب الله وطاعته والجهاد في سبيله وذلك هو سلطان الحق ودور النبوة وما يسري في نفسه الكريمة الطاهرة عليه صلوات الله وسلامه

من صدق مع الله ينتقل إلى قلوبهم ويجري في نفوسهم قال أنس رضي الله عنه ما نفضنا أيدينا من دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أنكرنا قلوبنا .

و بعدُ فإن الايمان ليرق و يضعف في قلوب المؤمنين حتى يصبح كما هو اليوم في قلوب الكثرة الكاثرة من المؤمنين تغلب عليه الشهوات وتسيطر عليه النزعات وتتلاعب به الأهواء يصبح الايمان أهون من الدنيا وأهون من متعها ومن لذائذها فلا يبالي المرء بايمانه في سبيل شهوة من شهواته وفي سبيل متعة من متعه ولا يبالي بالدين إذا انتقص وأصيب من قبل أعداء الله ذلك أن هذا المؤمن قد رق ايمانه فلا يغضب لدين الله ولا يحزن لدين الله ينطبق على امثال هؤلاء قوله تعالى « ثم قست قلوبكم فهي كالحجارة أو أشد قسوة » .

وان الايمان ليقوى وتثبت أركانه وتشتد دعائمه حتى يهيمن على القلب و يسيطر على الفؤاد فلا يبقى في القلب مكان لغير الايمان ولا يبقى في الفؤاد حب لغير الله ولا انشغال به ولا يبقى مكان لشهوة ولا لغريزة ولا لنزعة أن تسيطر على الفؤاد أو تستأثر به بل تصبح كل شهوة وكل غريزة وكل نزعة وكل استعداد لدى المرء وكل عادة وكل قدرة وكل موهبة كل هذه تصبح جنودا طيعة مسخرة للايمان تخدم أغراضه وتسعى في مرضاته يصبح المال في سبيل الايمان واغراضه و يصبح الولد في سبيل ذلك و يصبح الغضب في سبيل الايمان والرضا في سبيله والاستعلاء في الأرض إعلاء لكلمة الله والعزة على اعداء الله والذلة لأولياء الله .

« قل ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبّ اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين » .

ومثل هذا المؤمن له هم واحد يسهده في الليل ويجهده في النهار وله وجهة واحدة تقيمه وتقعده لا يشارك فيها شريك ولا ينازع منازع ومثل هذا المؤمن لو صب ايمانه على الجبال لدكها ولو صب على الجلاميد الصم لفتتها ولا يقف في وجه هذا المؤمن شيء ولا تقوم أمامه عقبة .

و بعدُ فلم يكن من غرضنا استيفاء الحجج في الموضوع وانما هو الاقتصار على بعض

وجهات النظر ونجد من تمام الفائدة ذكر الحديث الذي جاء فيه ما يجب أن يؤمن به العبد وقد اخرجاه في الصحيحين وهو: الايمان أن تؤمن بالله وملائكه وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله تعالى (١) . وكأني بمن ينتصر للرأي القائل إن الايمان هو التصديق يجد في هذا الحديث ما يحقق غاية أمله فالحديث نص على أن الايمان أن تؤمن بالله وملائكته ... الى آخر الحديث .

وقد اشرت الى الجواب حين قلت غرض الحديث تبيان ما يجب على العبد أن يؤمن به فالايمان يتعلق بالله جل شأنه و بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر و بالقدر خيره وشره من الله تعالى وليس الحديث بياناً لحد الايمان ولذلك قال عليه الصلاة والسلام والايمان أن تؤمن فاذا كان الايمان قولاً واقراراً وعملاً فمعنى أن تؤمن بالله أن تقر له جل شأنه بقلبك و بلسانك بالوحدانية و يلزم ذلك لزوما ضروريا لا ينفك ان تلتزم امتثال اوامره واجتناب نواهيه وتهب نفسك لطاعته وتقدم ما حباك من نفس ومال و ولد في سبيله جل شأنه .

على أني أدع الحديث لشيخ الاسلام ابن تيمية فهو أطول باعاً وأعلى كعباً في فهم حديث رسول الله عليه صلوات الله وتبليغه .

وهو عليه رحمة الله يدع الكلام لمحمد بن نصر المروزي فيقول عليه رحمة الله :

قال الامام محمد بن نصر المروزي (٢) في كتاب الصلاة اختلف الناس في تفسير

---

(١) الحديث ننقله من صحيح البخارى ، وقد رواه عن ابي هريرة قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم بارزا يوما للناس فاتاه جبريل فقال ما الايمان قال الايمان أن تؤمن بالله وملائكته ورسله وتؤمن بالبعث قال ما الاسلام قال أن تعبد الله ولا تشرك به وتقيم الصلاة وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان قال ما الاحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك قال متى الساعة قال ما المسئول عنها باعلم من السائل وسأخبرك عن اشراطها اذا ولدت الأمة ربها واذا تطاول رعاة الابل اليهم في البنيان في خمس لا يعلمهن الا الله ثم تلا النبي صلى الله عليه وسلم ان الله عنده علم الساعة ، الآية . ثم ادبر فقال ردوه علي فلم يروا شيئا فقال هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم قال ابو عبد الله جعل ذلك كله من الايمان .

(٢) محمد بن نصر المروزى يقول عنه الذهبي في تذكرة الحفاظ الامام شيخ الاسلام ابو عبد الله المروزى الفقيه ولد سنة اثنتين ومائتين ومات في المحرم سنة اربع وتسعين ومائتين بسمرقند وله اثنان وتسعون سنة وما ترك بعده مثله قال ابو بكر الصبغي : محمد بن نصر امام وما رأيت احسن صلاة منه لقد بلغني ان زنبورا قعد على جبهته فسال الدم على وجهه ولم يتحرك وقال ابن الأخرم لقد كنا نتعجب من حسن

حديث جبرائيل هذا فقال طائفة من أصحابنا : قول النبي صلى الله عليه وسلم « الايمان أن تؤمن بالله » وما ذكر معه كلام جامع مختصر له غور وقد وهمت المرجئة في تفسيره فتأولوه على غير تأويله قلة معرفة منهم بلسان العرب ، وغور كلام النبي صلى الله عليه وسلم الذي قد أعطي جوامع الكلم وفواتحه واختصر له الحديث اختصاراً . اما قوله « الايمان أن تؤمن بالله » بأن توحده وتصدق به بالقلب واللسان وتخضع له ولأمره بإعطائه العزم للأداء لما أمر مجانباً للاستنكاف والاستكبار والمعاندة فإذا فعلت ذلك لزمت محابه واجتنب مساخطة .

أقول فسر الايمان عليه رحمة الله بالتصديق بالقلب واللسان و يلزم ذلك الخضوع للأمر و يلزم ذلك عقد النية عقدا جازما على الالتزام بالأوامر واجتناب النواهي و يلزم ذلك القيام بالأعمال جهد الطاقة وبمقدار دفع الايمان وقوته فلا يمكن أن يكون تصديق بدون خضوع ولا خضوع بغير التزام ولا التزام بغير تنفيذ فالايمان هو مجموع هذه كلها ذلك لأن العمل دليل على الايمان ومقياس له فمن لم يعمل مثقال ذرة من خير ولم ينته عن مثقال ذرة من شر كان ذلك دليلاً على أنه ليس في قلبه مثقال ذرة من ايمان ومن عمل وقصر كان ذلك دليلا على وجود الايمان لديه مع قصور فيه . ولقد نقلنا قول الحسن البصري الايمان ما وقر في الصدر وصدقه العمل وهذا التعريف تعريف عملي واقعي والقول بأنه تصديق فقط نظري فلسفي منطقي وهذا النزاع بين الآراء النظرية المنطقية والواقع العملي معروف مألوف ومن عجب أن الدراسات التربوية الحديثة توصلت في بحوثها الى هذا الخلاف وأخذت تؤثر الجانب العملي و واقع الحياة وأصبحت تجافي الآراء النظرية واخذت تشتق

صلاته وخشوعه يضع ذقنه على صدره و ينتصب كأنه خشبة .

وقال الزركلي صاحب الأعلام : كان من اعلم الناس باختلاف الصحابة فمن بعدهم في الأحكام ولد ببغداد ونشأ بنيسابور ورحل رحلة طويلة استوطن بعدها بسمرقند وتوفي بها له كتب كثيرة منها (القسامة) قال ابو بكر الصيرفي : لولم يكن له غيره لكان من افقه الناس (المسند ــ خ) في الحديث وكتاب ما خالف به ابو حنيفة عليا وابن مسعود الى غير ذلك ونقل الذهبي عن ابن حزم كلمته التالية بشأن محمد بن نصر المروزى قال ابو محمد بن حزم : كان من اعلم الناس واجمعهم للسنن واضبطهم لها واذكرهم لمعانيها وادراهم بصحتها وبما اجمع عليه الناس مما اختلفوا فيه الى ان قال : وما نعلم هذه الصفة بعد الصحابة اتم منها في محمد بن نصر المروزى ، فلو قال قائل ليس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا لأصحابه حديث الا ما عند محمد بن نصر ما بعد عن الصدق .

نظر ياتها وقوانينها من الحياة وواقع الحياة فهي أصدق من أصحاب النظر يات وافكارهم .

وأما قوله (وملائكته) بأن تؤمن بمن سمى الله لك منهم في كتابه بأن لله ملائكة سواهم لا يعرف اسماءهم وعددهم الا الذي خلقهم .

واما قوله (وكتبه) بأن تؤمن بمن سمى الله من كتبه في كتابه من التوراة والانجيل والز بور خاصة ، وتؤمن بأن لله سوى ذلك كتبا أنزلها على انبيائه لا يعرف أسماءها وعددها الا الذي انزلها وتؤمن بالفرقان وايمانك به غير ايمانك بسائر الكتب . ايمانك بغيره من الكتب اقرارك به بالقلب واللسان وايمانك بالفرقان إقرارك به واتباعك ما فيه .

واما قوله : (ورسله) بأن تؤمن بما سمى الله في كتابه من رسله وتؤمن بأن لله سواهم رسلا وانبياء لا يعلم اسماءهم الا الذي أرسلهم ، وتؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وايمانك بمحمد إقرارك به وتصديقك إياه ودائبا على اتباع ما جاء به فاذا اتبعت ما جاء به أديت الفرائض وأحللت الحلال وحرمت الحرام ، ووقفت عند الشبهات وسارعت في الخيرات .

وأما قوله (واليوم الآخر) بأن تؤمن بالبعث بعد الموت والحساب والميزان والثواب والعقاب والجنة والنار و بكل ما وصف الله به يوم القيامة .

وأما قوله : وتؤمن بالقدر خيره وشره بأن تؤمن بأن ما أصابك لم يكن ليخطئك وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولا تقل : لو كان كذا لم يكن كذا ولولا كذا وكذا لم يكن كذا وكذا . قال : فهذا هو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

وهكذا كان الايمان بالكتب والرسل في نظر الامام محمد بن نصر المروزي تصديقا يتبعه العمل وإقرارا يلزمه الا تباع .

قال تعالى : « انما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون » .

أول صفات المؤمنين وجل القلوب عند ذكر الله تباركت اسماؤه وقد بينا أن هذا الوجل لعظمة الله تقشعر له الجلود أولا ثم تلين الجلود والقلوب .

والصفة الثانية من صفات المؤمنين بعد وجل القلوب ثم طمأنينتها استقرار الايمان ورسوخه وزيادته ونموه عند سماع آيات الله المنزلة وأوامره الصادعة وكل هذا ينتهي الى الصفة الثالثة التوكل على الله وحده وتفويض الأمر اليه جل شأنه ثقة بعظيم لطفه وحسن تدبيره وجميل منّه واحسانه .

والآية الكريمة تبين ان المؤمن يتوكل على الله ولا يكل أمره الى احد سواه فالنصر بيده والملك اليه والتوفيق لأسباب النصر بحسن تدبيره جل شأنه .

الآية تفيد القصر، قصر التوكيل على الله وقد قدم الجار والمجرور ليفيد ان التوكل مقصور عليه مختص به .

والآية الكريمة تفيد بأن المؤمن يمتثل امر الله و يقدم على مرضاته فيقدم على الجهاد في سبيل الله وقد باع نفسه لا يخشى الموت لأن الأنفس بيد الله يقبضها إن شاء و يرسلها إن شاء و ينفق ماله في سبيل الله لا يخشى الفقر على نفسه ولا على أهله وولده لأن الله تباركت اسماؤه هو الذي يقبض الأموال وهو الذي يبسطها ولا يخشى على ولده من بعده لأن رعاية الله أكبر من رعايته لنفسه ولولده .

وهكذا كانت صفة التوكل على الله مقترنة بروح المغامرة في سبيل الله موجهة الى تقوية العزائم وحفز الهمم وتربية الشجاعة والاقدام الى جانب الرضا والطمأنينة ودفع الوهن عن القلوب وابعاد الجزع عن النفوس فالمؤمن لا يهن ولا يحزن ولا يضعف ولا يصيبه الهلع ولا الجزع لأن الله معه والله ناصره ومؤيده .

كان أصحاب رسول الله إذا اشتد الخطب وأحاطت بهم المكاره(قالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) ، وكانوا لايخشون تألب الأحزاب ولا تكاثر الجموع قال تباركت أسماؤه بشأنهم : « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » .

وكانوا يجبهون بهذا نفاق المنافقين وخور المثبطين وقد رد الله على الذين كانوا يفرحون بما يحتمل المسلمون من أذى في سبيل الله الذين وصفوا في كتاب الله بقوله « وان تصبك مصيبة يقولوا قد اخذنا أمرنا من قبل و يتولوا وهم فرحون » رد الله على هؤلاء بقوله

تعالى : « قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

إنها الكلمة التي تزلزل قلوب المنافقين وتثبت قلوب المؤمنين حتى تكون أشد ثباتا من الجبال ذلك أن المصيبة من عند الله وكل ما يأتي من عنده جل شأنه هو الخير والرحمة لأنه المولى ولأنه النصير.

ربت الآيات الكريمة هذه المعاني في نفوس المؤمنين ليسيروا في ميادين الجهاد غير هيابين ولا وجلين .

روى مسلم عن ابي هريرة قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن القوي خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وان أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان » .

المؤمن القوي هو القوي في إيمانه القوي في توكله الذي ينطلق في امتثال امر الله كما ينطلق السهم من الرمية لا يبالي بتخويف المخوفين وإرجاف المرجفين وتثبيط المعوقين فإن أصابه سوء أو لحق به اذى كان ساكن النفس مطمئن الفؤاد لقد قدر الله وما شاء فعل وان المؤمن لواثق بأن كل ما يأتي به قدر الحكيم هو الخير كله . روى مسلم في صحيحه عن أبي يحيى صهيب بن سنان رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء (١) شكر فكان خيرا له وان أصابته ضراء (٢) صبر فكان خيراً به » .

وروى الترمذي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم يوماً فقال : « ياغلام اني اعلمك كلمات : احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك وان اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك الا بشيء كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف » . قال الترمذي حديث حسن .

---

(١) اى ما يسره .

(٢) اى ما يضره .

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن جابر رضي الله عنه انه غزا مع النبي صلى الله عليه وسلم قِبَلَ نجد فلما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم قفل معهم فأدركتهم القائلة في واد كثير العضاة (١) فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرق الناس يستظلون بالشجر ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت سمرة (٢) فعلق به سيفه ونمنا نومة فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعونا واذا عنده أعرابي فقال : إن هذا اخترط على سيفي (٣) وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده صلتا (٤) قال من يمنعك مني قلت « الله ثلاثا » ولم يعاقبه وجلس .

وفي رواية قال جابر كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بذات الرقاع فاذا اتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء رجل من المشركين وسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم معلق بالشجرة فاخترطه (سله) فقال تخافني ؟ قال لا . فقال فمن يمنعك مني قال : الله . وفي رواية ابي بكر الاسماعيلي في صحيحه فقال من يمنعك مني قال : الله فسقط السيف من يده فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف فقال من يمنعك مني ؟ فقال : كن خير آخذ فقال : تشهد أن لا اله الا الله وأني رسول الله فقال « ولكني أعاهدك ألا اقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك فخلى سبيله فأتى أصحابه فقال جئتكم من عند خير الناس .

الانحراف عن المعنى الصحيح للتوكل

ولقد انحرف المسلمون في معنى التوكل باتجاهين فظن بعضهم أن ترك الأخذ بالاسباب من التوكل وظن بعضهم أن ترك العمل في تغيير المنكر من الرضا بقضاء الله والتسليم له .

قال القرطبي : قال سهل : « من قال إن التوكل يكون بترك الأسباب فقد طعن في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن الله عز وجل يقول : « فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا » فالغنيمة اكتساب وقال تعالى « فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » فهذا عمل .

---

(١) الشجر الذى له شوك .

(٢) الشجرة من الطلح وهى العظام من شجر العضاة .

(٣) سله .

(٤) مسلول .

ثم يقول القرطبي : وقال غيره : والتوكل على الله هو الثقة بالله والإيقان أن قضاءه ماض ، واتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم في السعي فيما لابد من الأسباب من مطعم ومشرب وتحرز من عدوو إعداد لأسلحة واستعمال ما تقتضيه سنة الله تعالى المعتادة ، لكنه لا يستحق اسم التوكل مع الطمأنينة الى تلك الأسباب والالتفات اليها بالقلوب .

و يقول السيد رشيد في تفسيره : « واما ترك الأسباب وتنكب سنن الله تعالى في الخلق وتسمية ذلك توكلا فهو جهل بالله وجهل بدينه وجهل بسننه التي أخبرنا بأنها لا تتبدل ولا تتحول ، ومثله كمثل من أمره ملكه أو مالكه بأن يعول في طعامه وشرابه وسائر حاجاته عليه ولا يطلب من غيره شيئا وكان ذلك الملك او المالك قد أعد له ولأمثاله كل يوم مائدة لطعامهم وشرابهم فتنطع هو وامتنع عن الاختلاف الى المائدة مع أمثاله زاعماً أن هذا عصيان لأمر الملك في التعويل عليه وانتظر أن يرسل اليه طعاما خاصا ــ اي انه يطلب من ربه أن يبطل سننه في خلقه لأجله فما أعظم جهله وغروره .

وانحرف المسلمون بمعنى التوكل في الأيام المتأخرة وظن ظانهم أن ترك الواجب الذي أمر الله به مثل محاربة المنكر من التوكل على الله فكانوا بذلك في منتهى الجهل ورقة الايمان ، وانك لتجد كثيرين من المسلمين يقولون في فساد حال المسلمين هذا أمر الله وهذا قضاؤه وهم يزعمون أنه لا حيلة تنفع أمام أمر الله ولا دواء ينجع بعد قضاء الله ويجهلون و يتجاهلون ان الله تباركت اسماؤه هو الذى امر بالعمل وهو الذي أمر جل شأنه بالجهاد في سبيله ودفع المنكر ومحاربة الشر فكيف يترك أمره وقد ورد في نصوص جلية واضحة قاطعة ؟ ... إنها حيلة الشيطان . لقد دافع اصحاب رسول الله القدر بالقدر وأصلحوا الخطأ ودفعوا المنكر ، وأزالوا الشر ، بجهودهم وجهادهم .

روى البخارى عن علي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ما منكم من احد الا قد كتب مقعده من النار أو الجنة » فقال رجل من القوم : ألا نتكل يارسول الله ؟ قال لا ، اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، وروى مسلم عن جابر رضي الله عنه قال : جاء سراقة فقال يارسول الله أنعمل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ؟ قال ففيم العمل ؟ قال : « اعملوا فكل ميسر لما خلق » ثم قرأ فأما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى واما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى » فقال القوم بعضهم لبعض « فالجد إذن » .

وفي بعض روايات الحديث : فقال عمر ففيم العمل إذن فقال صلى الله عليه وسلم : كل لا ينال الا بالعمل فقال عمر إذن نجتهد .

وهكذا أوضح رسول الله عليه صلوات الله هذه المسألة التي كثر فيها المراء واشتد فيها الأخذ والرد بقوله : وكل لا ينال إلا بالعمل . هذه سنة الله وكل من تنكب سنة الله خاب وخسر.

الصفات الخمس لتربية المؤمنين

سردت صفات المؤمنين في السورة الكريمة لتربية المؤمنين مما بدا منهم أو من بعضهم على الأصح من تفكير بشأن الأنفال بعد ان كتب الله لهم النصر وايدهم بالملائكة ورأوا بأم اعينهم لطف الله بهم ورعايته جل شأنه لهم .

هذه الصفات خمس وهي الوجل عند ذكر الله وزيادة الايمان عند تلاوة آيات الله والتوكل على الله واقامة الصلاة والانفاق من مال الله .

ويمر في خاطر المتأمل لهذه الصفات تأملاً يسيرا أن يسأل ما هو ارتباط هذه الصفات بسؤال المؤمنين عن الأنفال . كان السؤال عن الأنفال فيه شيء من التنزل عن المرتبة الايمانية التي يجب أن يكون فيها خيار المؤمنين فماذا تفعل كل صفة من هذه الصفات لتعيد المؤمنين إلى مكانتهم والسؤال الثاني اذا كانت هذه الصفات تربية للمؤمنين أصحاب رسول الله عليه صلوات الله وقد سيقت لسبب خاص فهي في الوقت نفسه تربية لعامة المؤمنين وهي صفات للمؤمنين . والسؤال الثالث : ما هي مكانة هذه الصفات من الايمان أهي جامعة لكل شروطه ساردة لكل ميزاته أم هي مقتصرة على بعض هذه الجوانب ؟ .

ولنبدأ بالاجابة عن السؤال الثالث.ولبحث هذا السؤال نستعرض استعراضا مجملا بعض الآيات التي وصفت المؤمنين :

قال تعالى (النساء ١٦٢) : « لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم اجرا عظيما » .

والآية الكريمة بشأن الراسخين في العلم من اهل الكتاب يؤمنون بما انزل الى رسول الله عليه صلوات الله وسلامه مآأنزل من قبله وقد شملت كل شعب الايمان وذكرت الآية الكريمة الى جانب ذلك اقامة الصلاة وقد خصت هذه الصفة بما يميزها عن الصفات التي سبقتها والتي لحقتها ، فنصبت في اللفظ ليقدر القارىء واثنى على المقيمين الصلاة ، وذكرت الآية الكريمة ايتاء الزكاة والايمان بالله واليوم الآخر.

وفي السورة الكريمة نفسها وصف الله المؤمنين بصفات ذيلت بقوله تعالى:اولئك هم المؤمنون حقا.كما وقع في الصفات التي نحن بصددها قال تعالى : « والذين آمنوا وهاجروا والذين آووا ونصروا اولئك هم المؤمنون حقا » .

والآية الكريمة لم تذكر هنا صلاة ولا زكاة ولكنها ذكرت ايمانا وهجرة وجهادا وإيواء ونصرا .

وفي قوله تعالى : قد افلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون الا على ازواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لآماناتهم وعهدهم راعون والذين هم على صلواتهم يحافظون اولئك هم الوارثون .

ذكرت الآيات الكريمة الصلاة مرتين مرة مقرونة بوصف الخشوع ومرة مقرونة بذكر المحافظة عليها وذكرت الزكاة وحفظ الفروج وذكرت حفظ الأمانة ومراعاة العهد وذكرت أمراً لم يذكر الا في صفات عباد الرحمن قال تعالى في وصفهم (واذا مروا باللغو مروا كراما) وقال تعالى في سورة المؤمنون (والذين هم عن اللغو معرضون) قال ابن كثير عن اللغو معرضون اي عن الباطل وهو يشمل الشرك كما قال بعضهم والمعاصي كما قاله آخرون وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال كما قال تعالى (واذا مروا باللغو مروا كراما) قال قتاده أتاهم من امر الله ما وقفهم عن ذلك ، وما أجدرنا ان نحرص الحرص كله على هذا المعنى : كيف يجد اللغو سبيلا الى المؤمن الذى ملأقلبه هم واحد وهو مرضاة الله وتبليغ امره ؟ .

وقال تعالى في سورة « انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوا ، ان الذين يستأذنوك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله » .

وفي الآية الكريمة نجد صفة هامة بعد الايمان بالله ورسوله تتصل بالجماعة وقيادة الجماعة والتزام مشاركة الجماعة في أمورها الهامة سواء أكانت امورا تنفيذية أو استشارية فليس لفرد من أفراد الجماعة المؤمنة أن يتخلف عن اجتماعاتها الهامة إلا لعذر قاهر.

وقال تعالى في سورة الحجرات « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين اخويكم » وهنا تذكر الآية صفة الأخوة وتقصر المؤمنين عليها فليس المؤمنون شيئًا آخر الا « اخوة في الايمان » .

وقال تعالى في سورة الحجرات نفسها « انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله اولئك هم الصادقون » .

والآية الكريمة تنفي الريب عن المؤمنين وتصفهم بالجهاد بأموالهم وانفسهم ولدى التأمل في الآيات الكريمة يتبين بجلاء ان كل آية من الآيات انما تذكر جانبا من جوانب الايمان وصفة من صفاته وشرطا من شروطه و يتبين بجلاء أن الايمان هذه المعاني كلها كما جاء في قول رسول الله عليه صلوات الله:الايمان بضع وسبعون شعبة فأفضلها قول لا اله الا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الايمان رواه مسلم وابو داود والنسائي وابن ماجة عن ابي هريرة رضي الله عنه .

و يتبين ان المؤمن لابد ان يجمع هذه المعاني كلها ليستكمل معاني الايمان فان لم يكن ذلك كان هنالك نقص في ايمانه ، على ان كلاً من الصفات المذكورة تؤدي الى الصفات الأخرى بطريق اللزوم .

في آية الأنفال من أوصاف المؤمنين إيمانا حقا (الوجل عند ذكر الله) وزيادة الايمان عند تلاوة آيات الله (والتوكل على الله) (واقامة الصلاة)والإنفاق مما رزق الله وقد تلونا من صفاتهم في آيات اخرى ، (الايمان بما انزل الى الرسول وما انزل من قبله) ، والهجرة والجهاد والايواء والنصر (والتزام الجماعة وعدم مفارقتها الا باذن قائدها) (والأخوة في الله وحسم مادة التقاطع بين افراد الجماعة) (وعدم الارتياب في ما انزل الله) (والخشوع في الصلاة والمحافظة عليها) (وحفظ الفروج واداء الأمانة ورعاية العهد) و بعد هذا كله الإعراض عن اللغو وهو ما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال .

وليست هذه الصفات على كثرتها وأهميتها الا بعض صفات المؤمن فاذا أخل المؤمن بواحدة من هذه الصفات أو قصر فيها فهل يعتبر مارقا من الاسلام خارجا عن حظيرته ؟ .

الجواب أن هذه الصفات على درجات .

قال ابن تيمية عليه رحمة الله : اتفق المسلمون على أنه من لم يأت بالشهادتين فهو كافر وأما الأعمال الاربعة فاختلفوا في تكفير تاركها يقول ابن تيمية : ونحن إذا قلنا أهل السنة متفقون على أنه لا يكفر بالذنب فإنما نريد به المعاصي كالزنا والشرب ، وأما هذه المباني ففي تكفير تاركها نزاع مشهور وعن احمد في ذلك نزاع :

إحدى الروايات عنه أنه يكفر من ترك واحدة منها وهو اختيار أبي بكر وطائفة من أصحاب مالك كابن حبيب .

وعنه رواية ثانية : لا يكفر إلا بترك الصلاة والزكاة فقط .

ورواية ثالثة : لا يكفر إلا بترك الصلاة والزكاة اذا قاتل الامام عليها .

ورابعة : لا يكفر الا بترك الصلاة .

وخامسة : لا يكفر بترك شيء منهن .

وهذه اقوال معروفة للسلف :

قال الحكيم بن عتيبة (١) من ترك الصلاة متعمدا فقد كفر ومن ترك الزكاة متعمدا فقد كفر ، ومن ترك الحج متعمدا فقد كفر ومن ترك صوم رمضان متعمدا فقد كفر .

وقال سعيد بن جبير من ترك الصلاة متعمدا فقد كفر بالله ومن ترك الزكاة متعمدا فقد كفر بالله ومن ترك صوم رمضان متعمدا فقد كفر بالله .

نقل ابن تيمية عليه رحمة الله أقوالاً خمسة في كفر من ترك شيئا من الأركان الأربعة ولكنه عليه رحمة الله يفتي بقتل تارك الصلاة :

فقد سئل (في الفتاوى (٢) عمن يؤمر بالصلاة فيمتنع ماذا يجب عليه وماذا يجب

---

(١) : شيخ الكوفة ــ تابعي ثقة فقيه صاحب سنة واتباع روى له السته .

(٢) : ٥٠ / ٢٢

على الأمراء وولاة الأمر في حق من تحت أيديهم إذا تركوا الصلاة ؟ .

فأجاب : الحمد لله من يمتنع عن الصلاة المفروضةفإنه بيستحق العقوبة الغليظة باتفاق ائمة المسلمين بل يجب عند جمهور الأئمة كمالك والشافعي واحمد وغيرهم ان يستتاب ، فان تاب وإلا قتل . ثم يقول : ويجب على كل مطاع أن يأمر من يطيعه بالصلاة حتى الصغار الذين لم يبلغوا الحلم قال النبي صلى الله عليه وسلم : مروهم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع .

ومن كان عنده صغير مملوك او يتيم او ولد فلم يأمره بالصلاة فانه يعاقب الكبير اذا لم يأمر الصغير و يعزر على ذلك الكبير تعزيرا بليغا لأنه عصى الله ورسوله وكذلك من عنده مماليك كبار أو غلمان الخيل والجمال او فراشون او خدم او زوجة أو سرية فعلية ان يأمر جميع هؤلاء بالصلاة فإن لم يفعل كان عاصيا لله ورسوله ولم يستحق هذا أن يكون من جند المسلمين بل من جند التتار فإن التتار يتكلمون بالشهادتين ومع هذا فقتالهم واجب بإجماع المسلمين .

وقال عليه رحمة الله : وكذلك كل طائفة ممتنعة عن شريعة واحدة من شرائع الاسلام فانه يجب قتالها فلو قالوا نشهد ولا نصلي قوتلوا حتى يصلوا ولو قالوا نصلي ولا نزكي قوتلوا حتى يزكوا ولو قالوا نزكي ولا نصوم ولا نحج قوتلوا حتى يصوموا رمضان ويحجوا البيت ولو قالوا نفعل هذا لكن لا ندع الربا ولا شرب الخمر ولا الفواحش ولا نجاهد في سبيل الله ولا نضرب الجزية على اليهود والنصارى ونحو ذلك قوتلوا حتى يفعلوا ذلك كما قال تعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة و يكون الدين كله لله » .

وقال صاحب المغني رحمه الله : واختلفت الرواية هل يقتل لكفره أو حداً فروي أنه يقتل لكفره كالمرتد فلا يغسل ولا يكفن ولا يدفن بين المسلمين ولا يرثه احد ولا يرث أحدا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم بين العبد و بين الكفر ترك الصلاة وفي لفظ عن جابر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان بين الرجل و بين الشرك ترك الصلاة.وعن بريدة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بيننا و بينهم ترك الصلاة فمن تركها فقد كفر رواه مسلم.وقال النبي صلى الله عليه وسلم أول ما تفقدون من دينكم الأمانة وآخر ما تفقدون الصلاة . قال احمد كل شيء ذهب آخره لم يبق منه شيء وقال

عمر رضي الله عنه لا حظ في الاسلام لمن ترك الصلاة وقال علي رضي الله عنه (من لم يصلِّ فهو كافر) وقال ابن مسعود « من لم يصل فلا دين له » وقال عبد الله بن شقيق لم يكن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرون شيئا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة.ولأنها عبادة يدخل بها في الاسلام فيخرج بتركها منه كالشهادة والرواية الثانية يقتل حدا مع الحكم بإسلامه وهذا قول مالك والشافعي .

وقال ابو حنيفة لا يقتل ولكنه يضرب و يسجن (١) .

هذه الأركان التي سبق ذكرها ليست كل ما فرض الله جل شأنه على عباده المؤمنين فلِمَ خصت بالذكر ولمَ جعل الاسلام هذه أركانا اربعة مع الشهادة ، وقد فرض الله فرائض كثيرة غيرها كالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وصلة الارحام وحقوق الزوجة والاولاد والجيران والشركاء والفقراء وما يجب من أداء الشهادة والفتيا والقضاء والامامة وما الى ذلك ؟ .

وأجاب ابن تيمية هنا أيضا فقال :

اجاب بعض الناس بأن هذه اظهر شعائر الاسلام وأعظمها فاذا قام العبد المؤمن بها فقد تم اسلامه وتركه لها يشعر بانحلال قيد الاسلام عنه . وقد فصل عليه رحمة الله هذه الاجابة وزادها بيانا فقال ما معناه (٢) : التحقيق ان النبي صلى الله عليه وسلم ذكر في

---

(١) : يقول ابن تيمية عليه رحمة الله (كتاب الإيمان ، منشورات المكتب الاسلامي بدمشق ص ٢٧٥) :
قالوا ومن ثم قلنا : ان ترك التصديق بالله كفر ، وان ترك الفرائض مع تصديق الله أنه قد أوجبها كفر ، ليس بكفر بالله ، انما هو كفر من جهة ترك الحق كما يقول القائل : كفرتني حقي ونعمتي ، يريد ضيعت حقي وضيعت شكر نعمتي .

قالوا ولنا في هذا قدوة بما روى عنهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين اذ جعلوا للكفر فروعا دون أصله ، لا ينقل صاحبه عن ملة الاسلام ، كما اثبتوا للأيمان من جهة العمل فروعا للأصل لا ينقل تركه عن ملة الاسلام من ذلك قول ابن عباس في قوله تعالى « ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون قال : بن نصر بسنده عن ابن عباس وليس بالكفر الذى يذهبون و بسند آخر عن ابن عباس وليس كمن كفر بالله وبملائكته وكتبه ورسله و بسند آخر قال كفر لا ينقل عن الملة و بسنده عن طاوس قال ليس بكفر ينقل عن الملة بسنده عن عطاء قال كفر دون ظلم ، وفسق دون فسق . . .

(٢) : انظر الفتاوى ٣١٤/٧ .

هذه الخمسة الدين الذي هو استسلام العبد لربه .. استسلاما مطلقا وذكر عليه الصلاة والسلام ما يجب لله جل شأنه عبادة محضة على كل فرد من أفراد المؤمنين متى كان قادرا عليها وذلك ليعبد الله مخلصا له الدين فاذا قصر في واحد منها فقد خدش عبوديته لله وقصر في استسلامه لأمر الله واتباعه لدينه هذا شأن الأركان الخمسة أما ما سواها فإنما يجب عند وجود مصالح تجدّ أو حاجات تطرأ كالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما يتبع ذلك من امارة وفتيا وإقراء وتحديث وغير ذلك .

و يؤخذ من قوله عليه رحمة الله ان هذه الأركان الخمسة هي حق الله تباركت اسماؤه على كل عبد من عباده المؤمنين لا يتخلف عنها متخلف ولا يجوز ان يقصر فيها مقصر فهي أولى ثمرات الإيمان وهي أصل عبادة الله جل شأنه التي هي حق الله على عباده (وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) .

اما العبادات الأخرى فهي ثمرات لهذه الأصول وهي غير واجبة في كل الأحوال والأحيان وهي ليست واجبة على كل الأشخاص والأعيان إذ أن منها ما هو حق لبعض الناس على اناس آخرين كحق الدائن على المدين وحق المظلوم على الظالم وهذه ليست حقوقا على جميع الأفراد بل هي حقوق لأفراد مخصوصين على افراد مخصوصين والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد تكون فروض كفاية إلا اذا دعا الامام للنفير العام أو وطئ العدو أرض المسلمين كما هو الحال في أيامنا هذه فانه ينقلب فرض الجهاد من فرض كفاية الى فرض عين يتعلق برقبة كل مؤمن شبانا وشيوخا ذكورا وإناثا يقول ابن تيمية كل ذلك يعني ما فرض الله جل شأنه غير الاركان الخمسة يجب لأسباب عارضة على بعض الناس دون بعض لجلب منافع ودفع مضار لو حصلت بدون فعل الانسان لم تجب .

الأركان الخمسة هي عبادات محضة خلصت الأعمال فيها لعبادة الله والزكاة هي حق الله في مال الله ولهذا يقال ، ليس في المال حق سوى الزكاة يقول ابن تيمية وعامة الصحابة والجمهور كمالك واحمد والشافعي اوجبوها في مال الصغير والمجنون لأن مالهما من جنس مال غيرهما و وليهما يقوم مقامهما .

أقول ولابد فكل عمل من مقياس يقاس به ، ومقياس هذه العبادات ثمراتها ونتائجها فاذا لم تؤد الى ثمراتها كان ذلك دليلا على وجود خلل في ادائها اعني اذا لم تؤد الصلاة

والصيام والحجة والزكاة الى بذل النفس والمال والجهاد في سبيل الله ولا سيما حين يكون الجهاد فرض عين فذلك دليل أنه قد اعترى العبادة نقص كبير.

طرحنا من قبل السؤال التالي : ما هو شأن من قصر في بعض هذه الصفات أيخرج من حظيرة الايمان فلا يكون مؤمناً أم يظل محتفظاً باسم الايمان ولقد أجاب ابن تيمية عن السؤال إجابة شافية وكانت إجابته دائرة حول تفسير قوله تعالى «قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم» .

ولقد ذكرنا من قبل حال من يدعي الايمان و يدع ركناً من اركان الاسلام كترك الصلاة والصيام والحج والزكاة وحديثنا ههنا عمن يقصر فيما وراء ذلك من الأعمال القلبية أو أعمال الجوارح .

يقول ابن تيمية (٧/٢٤٦) : عن مقاتل بن حيان كانت منازلهم بين مكة والمدينة وكانوا اذا مرت بهم سر ية من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا آمنا ليأمنوا على دمائهم وأموالهم فلما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الحديبية استنفرهم فلم ينفروا معه .

وقال مجاهد : نزلت في أعراب بنى اسد بن خزيمة ، ووصف غيره حالهم فقال : قدموا المدينة في سنة مجدبة فأظهروا الإسلام ولم يكونوا مؤمنين (١) .

و يقول ابن كثير والصحيح ما قال مجاهد انهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الايمان ولم يحصل لهم بعد فأدبوا واعلموا ان ذلك لم يصلوا اليه بعد ، ولو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا كما ذكر المنافقين في سورة براءة وانما قيل لهؤلاء تأديبا .

يقول ابن تيمية : (١) .

إن من لم يكن من المؤمنين حقا يقال فيه انه مسلم ومعه ايمان يمنعه من الخلود في النار وهذا متفق عليه بين أهل السنة . يقول : لكن هل يطلق عليه اسم الايمان ؟ قيل يقال له مسلم ولا يقال مؤمن وقيل بل يقال مؤمن .

---

(١) : ٧/٢٤١

يقول : والتحقيق أن يقال مؤمن ناقص الايمان .

ثم يقول : الخطاب بالايمان يدخل فيه « ثلاث طوائف » يدخل فيه المؤمن حقا و يدخل فيه المنافق في أحكامه الظاهرة وان كان في الآخرة في الدرك الأسفل من النار، وهو في الباطن ينفي عنه الاسلام والايمان وفي الظاهر يثبت له الاسلام والايمان الظاهر، و يدخل فيه الذين أسلموا وان لم تدخل حقيقة الايمان في قلوبهم لكن معهم جزء من الإيمان والاسلام يثابون عليه .

و يقول (١) : وهؤلاء كالأعراب المذكورين في الآية وغيرهم فإنهم قالوا آمنا من غير قيام منهم بما أمروا به باطناً وظاهرا فلا دخلت حقيقة الإيمان في قلوبهم ولا جاهدوا في سبيل الله وقد كان دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم الى الجهاد .

والدليل على ان الاسلام المذكور في الآية هو اسلام يثابون عليه وانهم ليسوا منافقين انه تعالى قال « ولما يدخل الإيمان في قلوبكم » ثم قال « وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من اعمالكم شيئا » فدل على انهم اذا اطاعوا الله ورسوله مع هذا الاسلام آجرهم الله على الطاعة والمنافق عمله حابط في الآخرة .

وأيضا فإنه جل ثناؤه وصفهم بخلاف صفات المنافقين فإن المنافقين وصفهم بكفر في قلوبهم وانهم يبطنون خلاف ما يظهرون وهؤلاء لم يصفهم جل شأنه بشيء من ذلك .

ونفي الايمان المطلق لا يستلزم أن يكونوا منافقين اذ أنه من المعلوم ان من لم يكن كما جاء في قوله تعالى « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون » . من لم يكن كذلك لا يكون منافقا من أهل الدرك الأسفل من النار بل لا يكون قد اتى بالايمان الواجب .

يقول (٢) : وهذا حال اكثر الداخلين في الاسلام ابتداء بل حال اكثر من لم يعرف

(١) : ٧/٢٤٢ . (٢) : ٧/٢٤٣

حقائق الايمان ، فان هذا إنما يحصل لمن تيسرت له اسبابه إما بفهم القرآن وإما بالاتصال بأهل الايمان والاقتداء بما يصدر عنهم من الأقوال والأعمال واما بهداية خاصة من الله يهديه بها .

يقول (١) : وكثير من هؤلاء قد يرتاب اذا سمع الشبه القادحة ولا يجاهد في سبيل الله فليس داخلا في قوله تعالى « انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله » وليس هو منافقاً في الباطن مضمرا للكفر .

فلا هو من المؤمنين حقا ولا هو من المنافقين ولا هو ايضا من أصحاب الكبائر بل ياتي بالطاعات الظاهرة ولا يأتي بحقائق الايمان التي يكون بها من المؤمنين حقا ، معه ايمان وليس هو من المؤمنين حقا و يثاب على ما يفعل من الطاعات .

الى ان يقول عليه رحمة الله (٢) وخلق كثير من المسلمين باطنا وظاهرا معهم هذا الاسلام ولم يصلوا الى اليقين والجهاد .

يقول (٣) : ولكن دخول حقيقة الايمان الى قلوبهم انما يحصل شيئا فشيئا إن أعطاهم الله ذلك والا فكثير من الناس لايصلون إلى اليقين ولا إلى اليقين ولا إلى الجهاد ولو شككوا لشكوا ولو أمروا بالجهاد لما جاهدوا وليسوا كفاراً ولا منافقين وليس عندهم من قوة الحب لله ورسوله ما يقدمونه من الأهل والمال .

يقول عليه رحمة الله : وهؤلاء اذا تعين عليهم الجهاد ولم يجاهدوا كانوا من اهل الوعيد ولهذا لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة اسلم عامة أهلها فلما جاءت المحنة والابتلاء نافق من نافق .

ومما ذكر ابن تيمية عليه رحمة الله كأنما يصف حال الكثرة الغالبة من مسلمي اليوم ينطبق عليهم قوله تعالى «قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم » نسأله تعالى أن يجعل للمسلمين من أمرهم فرجاً ومخرجاً وان يؤتيهم من لدنه رحمة ويهيئ لهم من أمرهم رشداً .

قال تعالى :

« الذين يقيمون الصلاة »

---

(١) : ٧ / ٢٤٤ (٢) : ٧ / ٢٧٠ (٣) : ٧ / ٢٧١

وقد قال عليه الصلاة والسلام:الصلاة وما ملكت ايمانكم الصلاةَ وما ملكت ايمانكم رواه احمد والنسائي وابن ماجه وابن حبان عن انس بن مالك ورواه احمد ايضا وابن ماجه عن ام سلمة ام المؤمنين ورواه الطبراني عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وروى الحاكم في مستدركه قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر فلما سلم نادى رجل كان في آخر الصفوف فقال يا فلان ألا تتقي الله ألا تنظر كيف تصلى إن احدكم اذا قام يصلي انما يقوم يناجي ربه فلينظر كيف يناجيه إنكم ترون أني لأراكم والله لأرى من خلف ظهري كما ارى من بين يدي . قال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه على هذه السياقة وقد أقر الذهبي الحاكم في ان الحديث على شرط مسلم .

ورواه الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الصلاة خير موضوع ، لمن استطاع ان يستكثر فليستكثر ورمز له السيوطي بالضعف وقال الهيثمي فيه عبد المنعم بن بشير وقد رواه احمد وابن حبان والحاكم وقد صححه عن أبي ذر .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ارأيتم لو ان نهرا بباب احدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء قالوا لا يبقى من درنه شيء قال فكذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي ورواه ابن ماجه من حديث عثمان .

وعن عثمان رضي الله عنه قال والله لأحدثكم حديثا لولا آية في الكتاب الله ما حدثتكموه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يتوضأ رجل فيحسن وضوءه ثم يصلي الصلاة الا غفر الله له ما بينها وبين الصلاة التي تليها رواه البخاري ومسلم .

وعن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:من صلى الصبح فهو في ذمة الله فلا يطلبك الله في ذمته بشيء فإنه من يطلبه من ذمته بشيء يدركه ثم يكبّه على وجهه في نار جهنم . رواه مسلم واللفظ له وأبو داود والترمذي وغيرهم .

وعن ابي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يتعاقبون

فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو اعلم بهم ، كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون تركناهم وهم يصلون وآتيناهم وهم يصلون رواه مالك والبخاري ومسلم والنسائي .

وروى عن انس رضي الله عنه قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :اول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة ينظر في صلاة فإن صلحت فقد أفلح وان فسدت خاب وخسر رواه الطبراني في الأوسط

وعن حنظلة الكاتب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من حافظ على الصلوات الخمس ركوعههنّ وسجودهن ومواقيتهن وعلم انهن حق منَ عند الله دخل الجنة او قال وجبت له الجنة او قال حرم على النار قال المنذري رواه احمد باسناد جيد ورواته رواة الصحيح .

وعن ابي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الطهور شطر الايمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن او تملأ ما بين السماء والأرض والصلاة نور والصدقة برهان ، والصبر ضياء والقرآن حجة لك او عليك. رواه مسلم وغيره .

وعن معدان بن ابي طلحة رضي الله عنه قال لقيت ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت اخبرني بعمل اعمله يدخلني الله به الجنة او قال : قلت بأحب الأعمال الى الله فسكت ثم سألته فسكت ثم سألته الثالثة فقال سألت عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:عليك بكثرة السجود فإنك لا تسجد لله سجدة الا رفعك الله بها درجة وحط بها عنك خطيئة.رواه مسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه .

وعن ربيعة بن كعب رضي الله عنه قال : كنت أخدم النبي صلى الله عليه وسلم نهاري فإذا كان الليل آويت الى باب رسول الله صلى الله عليه وسلم فبت عنده فلا ازال اسمعه يقول : سبحان الله سبحان الله سبحان ربي حتى أملّ او تغلبني عيني فأنام فقال يوما يا ربيعة : سلني فأعطيك . فقلت : انظرني حتى انظر ، وتذكرت أن الدنيا فانية منقطعة فقلت يا رسول الله : أسألك أن تدعو الله أن ينجيني من النار و يدخلني الجنة ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال:من أمرك بهذا ؟ قلت ما أمرني به

أحد ولكني علمت ان الدنيا منقطعة فانية ، وأنت من الله بالمكان الذي أنت منه فأحببت أن تدعو الله لي ، قال إني فاعل فأعني على نفسك بكثرة السجود رواه الطبراني في معجمه الكبير من رواية ابن اسحاق واللفظ له ورواه مسلم وابو داود مختصرا . ولفظ مسلم قال : كنت ابيت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فآتيه بوضوئه وحاجته فقال لي : سلني ؟ فقلت : أسألك مرافقتك في الجنة قال أو غير ذلك ؟ قلت هو ذاك قال فأعني على نفسك بكثرة السجود .

وعن عثمان رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما من امرىء مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها الا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب مالم تؤت كبيرة وكذلك الدهر كله رواه مسلم .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أي العمل أحب الى الله تعالى قال:الصلاة على وقتها قلت:ثم اي قال بر الوالدين-قلت ثم اي: قال الجهاد في سبيل الله . قال حدثني بهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو استزدته لزادني رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال من سره أن يلقى الله غداً مسلماً فيحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهم فإن الله تعالى شرع لنبيكم صلى الله عليه وسلم سنن الهدى وإنهن من سنن الهدى ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم وما من رجل يتطهر فيحسن الطهور ثم يعمد الى مسجد من هذه المساجد الا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة و يرفعه بها درجة ويحط بها سيئة ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها الا منافق معلوم النفاق ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقوم في الصف .

وفي رواية : لقد رأيتنا وما يتخلف عن الصلاة الا منافق قد علم نفاقه او مريض إن كان الرجل ليمشي بين رجلين حتى يأتي الصلاة ، قال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم علمنا سنن الهدى وان من سنن الهدى الصلاة في المسجد الذى يؤذن فيه رواه مسلم وابو داود والنسائي وابن ماجه .

عن ابي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لايزال احدكم

في صلاة مادامت الصلاة تحبسه لا يمنعه أن ينقلب إلى أهله الا الصلاة رواه البخارى ومسلم .

وفي رواية لمسلم : قال لايزال العبد في صلاة ما كان في مصلاّه ينتظر الصلاة والملائكة تقول : اللهم اغفر له اللهم ارحمه حتى ينصرف او يحدث .

وعن جابر بن سمره رضي الله عنه قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الا تصفون كما تصفُّ الملائكة عند ربها فقلنا يا رسول الله وكيف تصف الملائكة عند ربها ؟ قال يتمون الصفوف الأُولى و يتراصون في الصف رواه مسلم وابو داود والنسائي وابن ماجه .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح مناكبنا في الصلاة و يقول : استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم ليلني منكم اولو الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم رواه مسلم وغيره .

وعن ابي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً دخل المسجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في ناحية المسجد فصلى ثم جاء فسلم عليه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وعليك السلام ارجع فصل فإنك لم تصل فصلى ثم جاء فسلم فقال وعليك السلام ارجع فصلِّ فانك لم تصل فقال في الثانية أو في التي تليها علمني يا رسول الله فقال إذا قمت الى الصلاةفأسبغ الوضوء ثم استقبل القبلة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن راكعا ثم ارفع حتى تستوي قائما ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ثم ارفع حتى تطمئن جالسا ثم افعل ذلك في صلا تك كلها رواه البخاري ومسلم .

وعن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الرجل لينصرف ، وما كتب له الا عشر صلا ته تسعها ثمنها سبعها سدسها خمسها ربعها ثلثها نصفها رواه ابو داود والنسائي وابن حبان في صحيحه .

ماهي العبادة :

قال صاحب اللسان العبادة الطاعة ومنه قوله تعالى (عبد الطاغوت) اي اطاعه يعني الشيطان فيما سول له واغواه وقال الفراء في قوله تعالى اياك نعبد أي نطيع الطاعة التي

نخضع منها وقيل اياك نوحد . قال ومعنى العبادة في اللغة الطاعة مع الخضوع .

ولم يرفض السيد رشيد رضا تفسير العبادة بالطاعة مع غاية الخضوع قال : وما كل عبارة تمثل المعنى تمام التمثيل قال : بل يكتفون احيانا بالتعريف اللفظي و يبينون الكلمة بما يقرب من معناها ، ومن ذلك هذه العبارة التي شرحوا بها معنى العبادة فان فيها اجمالا وتساهلا . ثم يقول خضع وخنع واطاع وذل لا شيء من هذه الألفاظ يضاهي عبد ويحل محلها و يقع موقعها فالعاشق في تعظيم معشوقه والخضوع له لا يسمى خضوعه عبادة وكذا خضوع المرؤوس لرئيسه مهما بالغ فيه لا يسمى عبادة .

يقول فما هي العبادة اذن ويجيب بأن :
العبادة ضرب من الخضوع بالغ حد النهاية ناشىء عن استشعار القلب عظمة للمعبود لا يعرف منشأها واعتقاده بسلطة له لا يدرك كنهها وماهيتها .

قال فمن قدم موطىء أقدام ملك لا يقال عبده لان سبب الذل والخضوع معروف هنا وهو الخوف من ظلمه أو الرجاء لكرمه .

ونحن نجد هذا التعريف الذي قدمه السيد رشيد رضا للعبادة تعريفا حسنا مفيدا ذلك ان السبب الباعث على العبادة هو المعرفة بالله جل شأنه و بصفاته معرفه تؤدي الى تعظيمه وتقديسه وتنزيهه والخشية من سلطانه ورجاء مَنّه وعفوه وغفرانه .

وهذه المعرفة معرفة بآلائه ونعمه مقرونة بالعجز عن ادراك ذاته وكنه صفاته وعظيم لطفه عجزا تتحير فيه العقول وتؤخذ الألباب .
وكلما كان لهذه المعاني سلطان على نفس العبد كانت العبادة اقرب الى معناها الحقيقي ، اما اذا خلت العبادة من الشعور بعظمة الله وقدرته المغيبة التي لا يصل العقل الى ادراك حقيقتها والتي يوجل القلب لسعتها وامتدادها حتى تجاوز الزمان والمكان اذا خلت العبادة من كل معنى من هذه المعاني فهي عبادة خالية جوفاء وما هي الا صورة وليست بحقيقة .

هذه العبادة التي تصدر عن بواعثها الحقيقة واسبابها الصحيحة تؤدي الى نتائجها وثمراتها فإن لم تكن كذلك كانت صورة والصورة لا تثمر ثمرة ولا تؤدي الى نتيجة .

ولذلك قال تعالى يقيمون الصلاة ولم يقل تعالى يصلون واقامة الشيء الا تيان به مقوما كاملا معتدلا صادرا عن علته مؤديا الى غايته .

وغاية الصلاة ان تنهى عن الفحشاء والمنكر .

وغاية الصلاة ايضا ان تؤدي الى صفة عميقة تنطبع في نفس صاحبها وتغرس في قلبه : المصلي لا يجزع ولا يهلع ولا يمنع قال تعالى : « ان الانسان خلق هلوعا » وفسر الهلع بقوله جل شأنه (اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا) ثم قال تعالى « الا المصلين » . فهم لا يجزعون ولا يمنعون ولا يهلعون أي وصف اعظم من وصف انسان لا يجزع للمصائب ولا ينخلع قلبه للشدائد يستقبل عظائم الأمور ببرد الراحة وطمأنينة الايمان وسكينة اليقين ذاك هو المصلي والآية الكريمة تذكر بالمجاهدين العاملين في سبيل الله تصيبهم الشدائد وتنتابهم الكوارث فلا يجزعون ولا يهلعون و يطلب منهم الانفاق في سبيل الله فيسخون بالعطاء ولا يمنعون وكل هذه ذكرها جل شأنه من آثار الصلاة ونتائجها ولكل هذا كان لهذه الصلاة مكانتها ودرجتها فهي افضل الأعمال لأنها تربي النفوس ولأنها مفتاح الخير كله ولهذا كان من اول ما نزل على رسول الله عليه صلوات الله الأمر بقيام الليل تهيئة لقلبه لتلقي معاني الوحي واعدادا له لحمل الدعوة وتحمل اعبائها الثقيلة .

قال تعالى « ياايها المزمل قم الليل الا قليلا نصفه او انقص منه قليلا او زد عليه ورتل القرآن ترتيلا » وكأن سائلا سأل وقال لم ذاك وما الداعي اليه وما العامل فيه فقال تعالى « انا سنلقي عليك قولا ثقيلا » .

للصلاة صلة بالايمان و بالخشية و بالوجل من الله والبكاء حياء منه وتقديراً لعظمته وسلطانه .

وللصلاة صلة بالخير والبر والتقوى والأعمال الصالحة جميعها والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقول الحق والا يخشى في الحق لومة لائم .

المصلي هو الذي يفعل الخير ويحرص على البر والمصلي الذي لا يفعل الخير ولا يقوم بأعمال البر ولا يحرص على طاعة الله ورسوله في كل ما أمر به ليس بمصل .

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال في حديث : « وما يزال عبدي

يتقرب الي بالنوافل حتى احبه فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به و بصره الذي يبصر به و يده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها» الحديث رواه البخاري وتكلم فيه الذهبي فيما فهم من الحديث ولكنا نفهم ان العبادة تنتهي الى استيلاء حب الله وعظمته على قلب المصلي حتى يصبح المولى جل شأنه ملء سمعه وملء بصره ومثل هذا لا يضن بنفس ولا يرهب مخلوقا .

الانفاق

قال تعالى « ومما رزقناهم ينفقون » .

قال شمس الدين بن القيم الدمشقي عليه رحمة الله في زاد المعاد (القاسمي ج ٣) كان صلى الله عليه وسلم أعظم الناس صدقة مما ملكت يده ، وكان لا يستكثر شيئا أعطاه الله تعالى ولا يستقله ، ولا يسأله احد شيئا عنده الا اعطاه قليلا او كثيرا ، وكان عطاؤه عطاء من لا يخاف الفقر ، وكان العطاء والصدقة احب شيء اليه ، وكان سروره وفرحه بما يعطيه أعظم من سرور الآخذ بما يأخذه وكان اجود الناس بالخير يمينه كالريح المرسلة ، وكان إذا عرض له محتاج آثره على نفسه تارة بطعامه وتارة بلباسه ، وكان يتنوع في اصناف عطائه وصدقته فتارة بالهبة وتارة بالصدقة وتارة بالهدية وتارة بشراء شيء ثم يعطي البائع الثمن والسلعة جميعا كما فعل بجابر وتارة كان يقترض الشيء فيرد اكثر منه ، وافضل واكبر، و يشتري الشيء فيعطي اكثر من ثمنه و يقبل الهدية و يكافيء عليها باكثر منها او بأضعافها تلطفا وتنوعا في ضروب الصدقة والاحسان بكل ممكن وكانت صدقته واحسانه بما يملكه وبحاله و بقوله فيخرج ما عنده و يأمر بالصدقة ويحض عليها و يدعو اليها ، فاذا رآه البخيل الشحيح دعاه حاله الى البذل والعطاء وكان من خالطه وصحبه ورأى هديه لا يملك نفسه من السماحة والندى وكان هديه صلى الله عليه وسلم يدعو الى الاحسان والصدقة والمعروف ولذلك كان صلى الله عليه وسلم اشرح الخلق صدرا واطيبهم نفسا وانعمهم قلبا فان للصدقة وفعل المعروف تأثيرا عجيبا في شرح الصدور وانضاف ذلك الى ما خصه الله به من شرح صدره للنبوة والرسالة وخصائصها وتوابعها .

وعن جابر رضي الله عنه قال ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا قط فقال لا.متفق عليه ، وعن ابي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من يوم يصبح العباد فيه الا ملكان ينزلان فيقول احدهما : « اللهم اعط منفقا خلفا و يقول الآخر اللهم اعط ممسكا تلفا » متفق عليه .

ولفظ مسلم كما يلي :

عن ابي ذر قال خرجت ليلة من الليالي فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي وحده ليس معه انسان قال : فظننت انه يكره ان يمشي معه احد قال فجعلت امشي في ظل القمر فالتفت فرآني فقال من هذا ؟ فقلت ابو ذر جعلني الله فداءك قال ياابا ذر تعاله (١) قال فمشيت معه ساعة فقال ان المكثرين هم المقلون يوم القيامة الا من اعطاه الله خيرا (الخير المال) فنفح (٢) فيه يمينه وشماله و بين يديه ووراءه وعمل فيه خيرا ... الى آخر الحديث .

يوم يصبح العباد فيه الا ملكان ينزلان فيقول احدهما : « اللهم اعط منفقا خلفا و يقول الآخر اللهم اعط ممسكا تلفا » متفق عليه .

وفي صحيح البخاري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي ذر ما يسرني ان عندى مثل أُحُدٍ ذهبا يمر علي ثلاثة ايام وعندى منه شيء الا دينار أرصده لدين .

وأخرج الشيخان عن أبي ذر ايضا قال : انتهيت الى النبي صلى الله عليه وسلم وهو جالس في ظل الكعبة فلما رآني قال هم الأخسرون ورب الكعبة قال فجئت حتى جلست فلم اتقار حتى قمت فقلت يارسول الله فداك ابي وامي من هم ؟ قال هم الأكثرون أموالاً إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل ما هم .

وروى البخاري ومسلم عن الأحنف بن قيس قال قدمت المدينة فبينا انا في حلقة فيها ملأ من قريش اذ جاء رجل اخشن الثياب اخشن الجسد اخشن الوجه فقام عليهم فقال بشر الكانزين (٣) برضف (٤) يحمى عليه في نار جهنم فيوضع على حلمة ثدي أحدهم حتى يخرج من نغض كتفيه (٥) و يوضع على نغض كتفيه حتى يخرج من حلمة ثدييه يتزلزل (٦) قال فوضع القوم رؤوسهم فما رأيت أحدا منهم رجع إليه شيئا قال فأدبر

---

(١) : اصلها تعال زيدت عليها هاء السكت .

(٢) : نفح اى ضرب يدية فيه بالعطاء .

(٣) : هم الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله .

(٤) : الرضف الحجارة المحماة الواحدة رضفة مثل تمر وتمرة .

(٥) : النغض هو العظم الرقيق الذى على طرف الكتف .

(٦) : التزلزل انما هو للرضف اى يتحرك من نغض كتفه حتى يخرج من حلمة ثدييه .

واتبعته حتى جلس الى سارية فقلت ما رأيت هؤلاء الا كرهوا ما قلت لهم قال : إن هؤلاء لا يعقلون شيئا . ان خليلي ابا القاسم صلى الله عليه وسلم دعاني فأجبته فقال اترى احدا فنظرت ما عليّ من الشمس(١) وانا اظن انه يبعثني في حاجة له فقلت اراه فقال ما يسرني ان لي مثله ذهبا انفقه كله الا ثلاثة دنانير ثم هؤلاء يجمعون الدنيا لا يعقلون شيئا ، قال قلت ما لك ولاخوتك من قريش لا تعتريهم(٢) وتصيب منهم قال لا وربك لا اسألهم دنيا ولا استفتيهم عن دين حتى ألحق بالله ورسوله .

وروى البخاري عن ابن ابي مليكه ان عقبة بنَ الحارث رضي الله عنه حدثه قال صلى بنا النبي صلى الله عليه وسلم العصر فأسرع ثم دخل البيت فلم يلبث ان خرج فقلت او قيل له فقال كنت خلفت في البيت تبرا من الصدقة فكرهت ان ابيته فقسمته .

وروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال خرج النبي صلى الله عليه وسلم يوم عيد فصلى ركعتين لم يصل قبل ولا بعد ثم مال على النساء ومعه بلال فوعظهن وامرهن ان يتصدقن فجعلت المرأة تلقي القلب والخرص(٣).

وروى مسلم في كتاب البر والصلة والآراب عن ابي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله عز وجل يقول القيامة : يا بن آدم مرضت فلم تعدني قال يارب كيف اعودك وانت رب العالمين ؟ قال : اما علمت ان عبدي فلان مرض فلم تعده ؟ اما علمت انك لوعدته لوجدتني عنده ؟ يا بن آدم استطعمتك فلم تطعمني . قال يارب وكيف اطعمك وانت رب العالمين ؟ قال اما علمت انه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه ؟ اما علمت انك لو اطعمته لوجدت ذلك عندي ؟ ياابن آدم استسقيتك فلم تسقني قال يارب كيف اسقيك وانت رب العالمين قال استسقاك عبدي فلان فلم تسقه اما انك لوسقيته وجدت ذلك عندي » .

وروى ابن كثير في تفسيره عند قوله تعالى (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له اضعافا كثيرة) قال وقد قال ابن ابي حاتم حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا خلف بن خليفة عن حميد الأعرج عن عبد الله بن الحارث عن عبد الله بن مسعود

---

(١) : يعنى كم بقي من النهار.

(٢) : تعتريهم اى تأتيهم وتطلب منهم يقال عروته واعتريه واعتروته اذا اتيت تطلب منه حاجة

(٣) : القلب بضم القاف وسكون اللام هو السوار والخرص بضم المعجمة وسكون الراء هي الحلقة .

قال لما نزلت (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له) قال ابو الدحداح الأنصاري يارسول الله وان الله عز وجل لير يد منا القرض قال:نعم ياابا الدحداح قال ارني يدك يارسول الله قال فناوله يده قال فاني قد اقرضت ربي عز وجل حائطي قال وحائط له في ستمائة نخلة وام الدحداح فيه وعيالها قال فجاء ابو الدحداح فناداها يام الدحداح قالت لبيك قال اخرجي فقد اقرضته ربي عز وجل (١) .

---

(١) : عبد الله بن الحارث الزبيدى (بضم الزاى) قال في تهذيب روى عن ابن مسعود وروى عنه حميد بن عطاء الأعرج قال ابن معين ثبت وقال النسائي ثقة .

اما حميد الأعرج فيقول ابن حجر الكوفي القاص الملائكي وهو حميد بن عطاء و يقال ابن علي و يقال ابن عبدالله و يقال ابن عبيد روى عنه خلف بن خليفة قال احمد ضعيف وقال البخارى والترمذي منكر الحديث وقال ابن معين ليس بشيء وقال النسائي ليس بالقوى وقال مرة ليس بثقة وقال ابو حاتم ضعيف الحديث منكر الحديث قد لزم عبدالله بن الحارث عن ابن مسعود ليست بمستقيمة ولا يتابع عليها . يقول ابن حجر وقال ابن حبان يروى عن عبد الله بن الحارث عن ابن مسعود نسخه كأنها موضوعة وقال الدارقطني متروك واحاديثه تشبه الموضوعة .

وهكذا يتبين ان الإسناد الذى رواه ابن كثير اسناد ضعيف جدا و يروى ابن جرير و يعلق عليه احمد محمد شاكر فيقول هذا اسناد ضعيف جدا و ينقل ما نقلنا من ترجمة حميد الأعرج الكوفي القاص .

ثم يقول الشيخ احمد محمد شاكر عليه رحمة الله : وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد(٦ : ٣٢٠) بنحوه وقال : رواه البزار ورجاله ثقات ثم ذكره مرة اخرى (٩ : ٣٢٤) بلفظ آخر نحوه وقال : رواه ابو يعلى والطبراني ورجالها ثقات ، ورجال ابي يعلى رجال الصحيح يقول الشيخ شاكر هكذا قال الهيثمي في الموضعين وليس عندى اسناد من الأسانيد التي نسبه اليها ولا الكتب التي ذكرها السيوطي (ذكره السيوطي ١ : ٣١٢ وزاد نسبته لسعيد بن منصور وابن سعد ، والبزار وابن المنذر والحكيم الترمذى في نوادر الأصول والطبراني ، والبيهقي في شعب الايمان) يقول الشيخ شاكر: الا ابن سعد ولم اجده فيه لأن النسخة المطبوعة من طبقات ابن سعد تنقص كثيرا من الكتاب ، كما هو معروف . يقول الشيخ شاكر: ولقصة ابي الدحداح اصل آخر صحيح من حيث انس رواه احمد في المسند ١٢٥٠٩ (٣ : ١٤٦ حلبي) باسناد صحيح عن انس ان رجلا قال يارسول الله ان لفلان نخلة ، وانا اقيم حائطي بها فأمره ان يعطيني حتى اقيم حائطي بها فقال له النبي صلى الله عليه وسلم اعطه اياها بنخلة في الجنة فأبى ، فأتاه ابو الدحداح . فقال : بعني نخلتك بحائطي ففعل . فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله اني قد ابتعت النخلة بحائطي قال فاجعلها له قد اعطيتكها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كم من عذق رداح (عظيم) لأبي الدحداح في الجنة قالها مرارا قال فأتى امرأته فقال يام الدحداح اخرجي من الحائط فاني قد بعته بنخلة في الجنة فقالت ربح البيع او كلمة تشبهها .

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة دنانير وضعها عند عائشة فلما كان عند مرضه قال ياعائشة ابعثي بالذهب الى علي ثم اغمي عليه وشغل عائشة ما به حتى قال ذلك مراراً كل ذلك يغمى على رسول الله صلى الله عليه وسلم و يشغل عائشة ما به فبعث الى علي فتصدق بها وامسى رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديد الموت ليلة الا ثنين (١) ...

وعن ابي هريرة رضي الله عنه قال ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل البخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جنتان (درعان) من حديد قد اضطرت ايديهما الى ثديهما وتراقيهما فجعل المتصدق كلما تصدق بصدقة انبسطت عنه حتى تغشى انامله وتصفو اثره وجعل البخيل كلما هم بصدقة قلت واخدت كل حلقة بمكانها قال أبو هريرة فأنا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول باصبعيه هكذا في جيبه يوسعها ولا تتوسع رواه البخاري ومسلم والنسائي ولفظه ما يلي :

مثل المنفق المتصدق والبخيل كمثل رجلين عليهما جنتان او جبتان من حديد من لدن ثديهما الى تراقيهما فاذا اراد المنفق ان ينفق اتسعت عليه الدرع او مرت حتى تجن(تستر) بنانه وتعفو اثره فاذا اراد البخيل ان ينفق قلصت ولزمت كل حلقة موضعها حتى اخذت بتر قوته او برقيته يقول ابو هريرة رضي الله عنه أشهد انه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوسعها ولا تتسع .

ولفظ البخارى كما يلي : عن ابي هريرة رضي الله عنه قال قال النبي صلى الله عليه

وحديث انس هذا في مجمع الزوائد (٣٢٣ ــ ٣٢٤) وقال احمد والطبراني ورجالها رجال الصحيح .

يقول الشيخ شاكر وللحديث اصل ثان صحيح رواه مسلم عن جابر بن سمرة قال : صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابن الدحداح ثم اتى (يعني الرسول عليه الصلاة والسلام بعد فراغه من الصلاة على جنازة ابن الدحداح) بفرس عرى (لا سرج عليه) فعلقه رجل (اى امسكه وحبسه-له صلى الله عليه وسلم) فركبه فجعل يتوقص به (اى يتوثب) ونحن نتبعه نسعى خلفه . قال فقال رجل من القوم : ان النبي صلى الله عليه وسلم قال كم من عذق (الغصن من النحلة) معلق او مدلى في الجنة لابن الدحداح او قال شعبة لأبي الدحداح .

(١) : الحديث رواه الطبراني في الكبير قال المنذرى ورواته ثقات محتج بهم في الصحيح ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث عائشة بمعناه وقال صاحب مجمع الزوائد رجاله رجال الصحيح (الترغيب والترهيب ص ٥٥ ج ٢) (مجمع الزوائد ج٣ ص ١٢٤) .

وسلم مثل البخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما الى تراقيهما فاما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وقرت على جلده حتى تخفي بنانه وتعفو أثره وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئا إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها ولا تتسع .

قال الخطابي وهذا مثل ضربه النبي صلى الله عليه وسلم للبخيل والمتصدق فشبههما برجلين أراد كل واحد منهما أن يلبس درعا يستتر به من سلاح عدوه فصبه على رأسه ليلبسها والدرع اول ما تقع على الصدر والثديين الى ان يدخل الانسان يديه في كميها فجعل المنفق كمن لبس درعا سابغة فاسترسلت عليه حتى سترت جميع بدنه وهو معنى قوله « حتى تعفو اثره » اى تستر جميع بدنه وجعل البخيل كمثل رجل غُلت يداه الى عنقه ، كلما اراد لبسها اجتمعت في عنقه فلزمت ترقوته وهو معنى قوله « قلصت » اى تضامت واجتمعت والمراد ان الجواد اذا هم بالصدقة انفسح لها صدره وطابت نفسه فتوسعت بالانفاق ، والبخيل اذا حدث نفسه بالصدقة شحت نفسه فضاق صدره وانقبضت يداه .

وكلام الخطابي جيد ربما احتاج الى شيء من التوضيح وكلام من اوتي جوامع الكلم عليه الصلاة والسلام يؤدي الى اغراض عديدة : منها بيان طبيعة النفوس ولما جبلت عليه فالانفاق في جبلة النفوس ثقيل شديد يشبه درعا من حديد فصلت على قدر جسم الانسان بل هي ضيقة قد لزمت الجسم وركبت في الصدر والعنق ولكن المؤمن يذكره ايمانه بالله و بفضله وكرمه ومنه وجوده فليتوكل عليه و يفوض أمره اليه فيهون عليه الانفاق في سبيله أما المنافق وضعيف الايمان فيوسوس لهما الشيطان ويخوفهما الفقر فيشتد حرصهما و يشتد قلقهما على الدنيا فلا يبضّان بقطرة ولا تجود انفسهما بشيء و يكون من نتيجة ذلك انشراح صدر الأول وثلوج قلبه اما الثاني فيزداد ضيقا وحيرة وهمّا وغمّا واضطرابا وتلزمه درعه في عنقه تكاد تخنقه وتقتله كل ذلك خوفا على الدنيا وحرصا عليها وهمّا وحزنا من اجلها .

« الشيطان يعدكم الفقر و يأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم » الفحشاء كل ما استقبحه الشرع واعظم مراد بها هنا البخل وهو من اقبح الداء .

هذا الانفاق الذي هو درع من حديد ينتهي بالمؤمن بانشراح صدره وانفساح قلبه وتمتد

الدرع حتى تصبح سابغة واقية تقيه الهموم في الدنيا والعذاب في الآخرة وتضيق على البخيل فتلزم صدره ونحره تكاد تقتله في الدنيا هما وحزناوفي الآخرة عذابا وألماً وهي لا تغني عنه شيئا لا تقي ولا تدفع شيئا بل تؤذى وتؤلم ايلاما شديدا .

وهكذا اوضح التمثيل حال المنفق والبخيل في البداية والنهاية وفي الأسباب وغاياتها وما بين ذلك ، ضيق في النفس في البداية يشبه درع الحديد ينتهي الى انشراح وانفساح ووقاية تامة في حال المنفق وضيق في البداية لدى البخيل يزداد شدة واستحكاما كدرع من حديد تلزم عنق صاحبها فتقتله وقد كان من شأنها ان تحفظه وتقيه وتنجيه .

روى البخاري عن ابي هريرة رضي الله عنه قال : اتى رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله اصابني الجهد فأرسل الى نسائه فلم يجد عندهن شيئا فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « الا رجل يضيف هذا الليلة رحمه الله » فقام رجل من الانصار فقال انا يارسول الله فذهب إلى أهله فقال لامرأته هذا ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تدخر يه شيئا فقالت والله ما عندي الا قوت الصبية قال فاذا اراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالي فاطفئي السراج وتطوى بطوننا الليلة ففعلت ثم غدا الرجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « لقد عجب الله عز وجل أن ضحك من فلان وفلانة وانزل الله تعالى : « و يؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة » (سورة الحشر ٩) وقد جاءت تسمية هذا الأنصاري في صحيح مسلم وهو أبو طلحه رضي الله عنه .

وعن انس رضي الله عنه قال : كان ابو طلحة اكثر الأنصار بالمدينة مالا من نخل وكان احب امواله اليه بيرحاء (١) وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها و يشرب من ماء فيها طيب قال انس فلما نزلت هذه الآية « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » قام ابو طلحة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله : ان الله تبارك وتعالى يقول : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » وان احب اموالي الي بيرحاء وانها صدقة ارجو برها وذخرها عند الله فضعها يارسول الله حيث اراك الله قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بخ ذلك مال رابح ذلك مال رابح رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي مختصرا .

---

(١) : اسم لحديقة نخل كانت لأبي طلحة رضي الله عنه .

وهكذا كانوا رضوان الله عليهم تهز الآيات الكريمة قلوبهم فتمتد ايديهم **بالعطاء** وتنشرح صدورهم بتقديم احب اموالهم .

قال السيد ابو الحسن علي الندوي (١) : والزكاة المشروعة في الاسلام هي الحد الأدنى للبر وهي فريضة لا يقبل الله عنها صرفا ولا عدلا وهي شرط للاسلام وركن من اركانه قال تعالى « فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم في الدين » والذي يمتنع عن أدائها عن عمد واصرار يعتبر قد خلع ربقة الاسلام من عنقه وفارق الجماعة وقد قاتل عليها افضل الأمة بعد نبيها عليه الصلاة والسلام وفقههم لدين الله ابو بكر رضي الله عنه وقد روى الترمذي بسنده عن فاطمة بنت قيس سئل او سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الزكاة فقال : ان في المال حقا سوى الزكاة ثم تلا « ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر» (٢) .

وكان شعار محمد عليه الصلاة والسلام « اللهم لا عيش الا عيش الآخرة » رواه البخاري وروى الترمذي عن ابي امامة مرفوعا : « عرضُ عليّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبا فقلت لا يارب ، ولكن اشبع يوما واجوع يوما فاذا جعت تضرعت اليك وذكرتك ، واذا شبعت حمدتك وشكرتك رواه احمد بن حنبل (٣)

وكان يقول عليه الصلاة والسلام اللهم ارزق آل محمد قوتا رواه البخارى و يدخل عمر على رسول الله صلوات الله عليه وسلم فيراه على حصير قد اثر في جنبه و يرفع رأسه في البيت فلا يجد الا اهابا (٤) معلقا وقبضة من شعير، وحصيرا يكاد يبلى فيبكي عمر فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم مايبكيك يا بن الخطاب فيقول عمر يانبي الله

---

(١) : الأركان الأربعة ص : ١٤١ .

(٢) : اورد الترمذى الحديث في كتاب الزكاة وفاطمة بنت قيس الفهرية من المهاجرات ولكن الحديث ضعيف فقد قال فيه الترمذي ابو حمزة ميمون الأعور أحد رواته ضعيف وقال البيهقي تفرد به ميمون الأعور وهو مجروح ولكن معنى الحديث صحيح فاطعام مضطر وسقى ظمآن انقاذ مشرف على الهلاك وتجهيز المقاتلين لصد غارات العدو وكل هذه حقوق قام الاجماع على وجوبها وإجبار الأغنياء عليها وقول من نسخت الزكاة كل حق مالي قول مخالف لاجماع الامة .

(٣) : يقول المناوى بشأن الحديث رونز السيوطي (في جامعه الصغير) لحسنه وهو تابع للترمذي وقال في المنار و ينبغي ان يقال فيه ضعيف فانه من رواية يحيى بن ايوب عن عبيد الله بن زجر عن على بن زيد عن القاسم عنه أ هــ وقال العراقي فيه ثلاثة ضعفاء علي بن زيد والقاسم وعبيد الله بن زجر.

(٤) : كيس من جلد .

وما لي لا ابكي وهذا الحصير قد اثر في جنبك وهذه خزائنك لا ارى فيها الا ما ارى وذاك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار، وانت نبي الله وصفوته ؟ فيقول عليه الصلاة والسلام افي شك انت يا بن الخطاب اولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا الحديث في صحيح البخارى ومسند احمد وسنن ابن ماجه .

يقول ابو الحسن الندوي (١) : يقول الحافظ بن فضل العمري بشأن ابن تيمية عليه رحمة الله « كانت تأتيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث فيهب ذلك بأجمعه و يضعه عند اهل الحاجة في موضعه ، لا يأخذ منه شيئا الا ليهبه ولا يحفظه الا ليذهبه » .

يقول الحافظ ابن فضل الله : كان يتصدق حتى اذا لم يجد شيئا نزع بعض ثيابه وكان يتصدق من قوته الرغيف والرغيفين فيؤثر بذلك على نفسه .

من الأمور الهامة في النظام الاقتصادي في الاسلام انه ليس شيء من كل ما يتملكه الانسان و يضيفه لنفسه هو له بل هو في الحقيقة للذي خلقه ونماه وسخره لهذا الانسان لغرض محدود وزمن محدود وسبيل محدود ليس له ان يتجاوزه .

والانسان ليس له في الحقيقة من هذا المال الا حق الولاية والرعاية والاستخلاف قال تعالى « وآتوهم من مال الله الذي آتاكم » (سورة النور : ٣٣) وقال تعالى : « وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » (سورة الحديد ٧١) وقال تعالى : « وما لكم الاّ تنفقوا في سبيل الله و لله ميراث السماوات والأرض » .

والغرض من هذه النظرة وضع الأمور في موضعها الصحيح وان يعلم هذا الانسان انه في هذا الكون ليس مالكا وليس سيدا وليس بوسعه ان يدعي لنفسه حق الملك وليس له ان يقول ما قال قارون (انما اوتيته على علم عندي) ولكنه خلق ليكون مبتلى ممتحنا بالخير و بالشر و بالغنى و بالفقر قال تعالى (ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون) (الانبياء ٣٥) وقال تعالى (ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم) (الأنعام ١٦٥) اى فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق والمحاسن والمساوىء والمناظر والأشكال والألوان وله الحكمة في ذلك . وقوله تعالى ليبلوكم فيما آتاكم اي ليختبركم

---

(١) : الاركان الاربعة صـ ١٥٢ .

في الذي انعم به عليكم ليختبر الغني في غناه و يسأله عن شكره والفقير في فقره و يسأله عن صبره وفي صحيح مسلم عن ابي سعيد الخدري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ان الدنيا حلوة خضرة وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعلمون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني اسرائيل كانت في النساء .

ليس هذا المال الذي وضع في يدك ملكا لك ذلك انك وما ملكت يداك ملك لسيدك ولست انت الذي جنى هذا المال وجمعه وما كان ذلك الا بعون من الله وتوفيق منه وما يسر لك جمع هذا المال لتستقل فيه بل لتمتحن اتحسن شكر النعمة وتحسن الخلافة فيه ؟ ولذلك بعد ان انتزع القرآن الكريم الملكية الحقيقية من الانسان عاد فردها اليه وملكه ولم يطلب منه ان يخرج عن كل ماله وان يتخلى عن كل ما آتاه الله ولكنه قال له مرشدا وهاديا هذا المال الذي وضع بين يديك احسن الخلافة فيه فلا تُضِعْ ذا حق ولا تبخل به على عباد الله قال تعالى : « ياايها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم ومما اخرجنا لكم من الأرض » وقال تعالى : « الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما انفقوا منّاً ولا اذى لهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وقال تعالى : « والذين في اموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » .

نزعت الملكية من العبد بالنسبة لله فليس للعبد ملكية في جانب الله جل شأنه ثم اثبتت الملكية له واثبت له حق التصرف فيا يملك في هذه الحياة الدنيا على المبدأ الذي سبق ذكره انه ليس مالكا حقيقيا وليس متصرفا حقيقيا ولكنه مستخلف في المال قائم على شئونه مجزي بحسن تصرفه اما انتزاع ملكية الانسان من قبل انسان آخر او هيئة مستعدية او جماعة متغلبة بدعوى انصاف المظلومين وسد حاجة المعوزين فهو الظلم الجائر مقنعا بقناع العدالة وهو الجريمة الآثمة متسترة بستار الرحمة .

وهنا ننتهي الى نقطة جديرة بالتأمل العميق والنظر الدقيق اذا كان المؤمن مستخلفا في هذا المال الذي بين يديه فهل يجوز له ان ينفقه كله في سبيل الله ؟ .

القصد في الإنفاق

بعد ان يستمع المؤمن الى آيات الله تحث على الانفاق في كل سورة من كتاب الله وفي كل مقطع من مقاطعه وجزء من اجزائه حتى يجد القارئ انه لا يمر بجزء يسير من

آيات الكتاب تخلو من دعوة الى بر ونداء الى احسان ، ولقد كرر فرض الصلاة في القرآن في مواطن عديدة شتى ولم تذكر الصلاة الا وقد قرنت معها الزكاة ، و بعد هذا ، و بعد ما تلونا من احاديث رسول الله في البر والصدقة وما هو الا جزء يسير ، و بعد سيرة رسول الله وسيرة اصحابه يجد المؤمن داعية تدعوه الى ألاّ يدخر مالاً ولا يمسك درهما ليبذل ذلك له في سبيل الله والبذل هنا عن رضا وطواعية وطيب نفس وانشراح صدر وهذا يؤدي الى اطيب النتائج وليس هو ذلك الاكراه الذي تنتزع فيه اموال الناس رغم انوفهم فتنخلع قلوبهم لهول المصيبة وتتصدع افئدتهم و يصابون بالشلل .

وفي مثل هذا البذل الخصب الطيب تغطى حاجات الأمة جميعها . بل الزكاة وحدها وهي جزء من اربعين جزءا من رؤوس أموال الأمة كفيلة بألا تدع حاجة الا سدتها ولا مشروعا هاما الا انجزته .

وهنا حين يدفع المؤمن ايمانه الى ذروة الاحسان و ينادي به للخروج من ماله كله والتخلي عن كل درهم يملكه هنا في مثل هذه الحال تناديه آيات الشريعة الكاملة لتعود به الى الاعتدال وترشده السنة الى القصد ، انك ان تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس ،

قال البخاري عليه رحمة الله ([1]) باب لا صدقة الا عن ظهر غنى ، ومن تصدق وهو محتاج أو اهله محتاج أو عليه دين فالدين أحق أن يقضى من الصدقة والعتق والهبة ، وهو رد عليه ، ليس له أن يتلف اموال الناس وقال النبي صلى الله عليه وسلم « من أخذ اموال الناس و يريد اتلافها اتلفه الله » الا ان يكون معروفا بالصبر فيؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة كفعل ابي بكر حين تصدق بماله وكذلك آثر الأنصار المهاجرين . ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن إضاعة المال فليس له أن يضيع اموال الناس بعلة الصدقة .

وقال كعب رضي الله عنه « قلت يارسول الله إن من توبتي أن انخلع من مالي صدقة الى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، قال:أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك قلت فاني أمسك سهمي الذى بخيبر » .

و يروى البخاري بعد ما سبق حديث ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله

([1]) : ج ٢ ص ٢٩٤ فتح البارى .

عليه وسلم قال : « اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول ، وخير الصدقة عن ظهر غنى ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله » .

انه القصد والاعتدال الذي دعت اليه الشريعة الكاملة الوسط الذهبي الذي ينشده الحكماء الذي لا افراط فيه ولا تفريط .

قال تعالى : « والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » .
يقول سيد قطب عليه رحمة الله :
« وهذه سمة الاسلام التي يخلقها في حياة الأفراد والجماعات ، و يتجه اليها في التربية والتشريع يقيم بناءه كله على التوازن والاعتدال » .
والمسلم مع اعتراف الاسلام بالملكية الفردية المقيدة ليس حرا في انفاق أمواله الخاصة كما يشاء كما هو الحال في النظام الرأسمالي وعند الأمم التي لا يحكم التشريع الالهي حياتها في كل ميدان ، انما هو مقيد بالتوسط في الأمرين الإسراف والتقتير، فالاسراف مفسدة للنفس والمال والمجتمع ، والتقتير مثله حبس للمال عن انتفاع صاحبه به وانتفاع الجماعة من حوله ، فالمال اداة اجتماعية لتحقيق خدمات اجتماعية والاسراف والتقتير يحدثان اختلالا في المحيط الاجتماعي والمجال الاقتصادي وحبس الأموال يحدث ازمات ومثله اطلاقها بغير حساب . ذلك فوق فساد القلوب والأخلاق .

والاسلام وهو ينظم هذا الجانب من الحياة يبدأ به من نفس الفرد فيجعل الاعتدال سمة من سمات الايمان « وكان بين ذلك قواما » . أ هـ .

قال في اللسان : والسرف والاسراف مجاوزة القصد وقال والاسراف في النفقة التبذير .

وقوله تعالى : « والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا » قال سفيان : لم يسرفوا اي لم يضعوه في غير موضعه ولم يقتروا لم يقصروا به عن حقه ، ولفظة الانفاق في الآية الكريمة عامة فهي تشمل الانفاق في سبيل الدعوة وفي سبيل الجهاد والانفاق في المرافق الدنيوية وحاجات المرء . والاسراف وهو وضع الأمر في غير موضعه ليس من صفات المؤمنين ولو كان في سبيل الخير فكيف يكون الشأن حين يكون الاسراف في المطعم والمشرب والمسكن والمتع والشهوات ، على ان الحسن يقول ليس في النفقة في سبيل الله سرف

وسمع رجلا يقول لا خير في الإسراف فقال لا اسراف في الخير والذي يؤخذ من كل ما نقلنا ان وضع الأمر في غير موضعه كأن يبذل المرء ما يؤدي الى ضياعه وضياع اهله او وقوعه في حرج شديد ولو كان في زعمه في سبيل الله هو السرف المنهي عنه .

اذا كان الاسراف منهيا عنه في سبل الخير فما يكون شأنه في سبيل التكاثر والتفاخر والأثاث والرياش وكل هذه لا يراد بها الا التعاظم امام الناس وقد ابتلي بهذا المسلمون في كل انحاء الدنيا فغلب عليهم عدوهم وقهرهم ، تحدث الناس بأن اليهود حين غلبوا على بعض القرى المسلمة ودخلوها خاطبوا اهلها وقالوا لهم في منازلكم الثلاجات والمكيفات والغاسلات والمكنسات الكهربائية وليس في منازلنا شيء من ذلك ، لقد ادخرنا ثمن ذلك كله لنشترى به اسلحة نقاتلكم بها . ولم يكتف المسلمون بالاسراف في نفقاتهم الدنيوية وشحهم في النفقة في سبيل الله ولكنهم بلغوا حد الترف والتبذير وغدا المال وسيلة للفساد والدمار وآيات القرآن الكريم تندد بالمبذرين وتصف المترفين بأنهم وسيلة هلاك الأمة .

في الإنفاق حياة المجتمع

في الانفاق في سبيل الله حياة المجتمع وتضامن افراده وثبات بنيانه .

وفي الانفاق تربية للايمان وتمحيص للنفوس اما تربية الايمان فبتربية الاعتماد على الله والتوكل عليه والثقة بما عنده كان عليه الصلاة والسلام اوثق بما عند الله مما في يده واما تمحيص النفوس فبتنقيتها من أدران البخل والشح والطمع .

وفي الانفاق بناء للمشروعات الاجتماعية ومما يؤسف له اسفا كبيرا ان الجمعيات التبشيرية وغيرها من الجمعيات الضالة المنحرفة في العالم يسخو أصحابها سخاء لا تعرفه الجمعيات الاسلامية و ينظمون أمورها تنظيماً ينتج الشر الكبير و يثمر الفتنة العارمة .

والانفاق في سبيل الله دعامة الجهاد ودعامة مقدماته ونعني بمقدماته تربية الأبناء تربية الرجولة والبطولة والقوة والإقدام ، أما الجهاد فهو سبيل الحفاظ على الأمة و مبادئها ومقدساتها من عاديات المعتدين وغارات المغيرين ، وقد كانت سورة البقرة من اول ما نزل بالمدينة واستمرت السورة الكريمة مفتوحة تتنزل آياتها وتتكامل أجزاؤها حتى آخر ما نزل من القرآن الكريم وكانت السورة الكريمة دعوة للجهاد وتربية للانفاق .

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز (١) : « نرى التنويه بفضيلتي الانفاق والجهاد في سبيل الله لا يزال يعاد و يردد في مطالع الحديث ومقاطعه في اجماله وفي تفصيله ، ترديداً ينادي بأنه هو المقصود الأهم والهدف الأعظم من التشريع في هذه السورة ...

فلو اننا في ضوء هذا الأسلوب تمثلنا تلك البيئة واحداثها وتمثلنا القوم وهم تتلى عليهم شرائع هذه السورة وأحكامها لتمثلنا معسكرا ثابتا للجهاد المزدوج : الجهاد المالي والجهاد البدني ولتمثلنا على رأس هذا المعسكر قائدا حريصا لا يغرب عنه شأن من شئون جنوده خاصها وعامها لا يفتأ يلقي عليهم أوامره وإرشاداته في مختلف تلك الشئون وكلما فرغ من افتائهم في نوازلهم العارضة المؤقتة رجع بالحديث الى مجراه العتيد ، في شأن مهمتهم الرئيسية (الجهاد في سبيل الله والانفاق في سبيله) .

وهكذا يرى الدكتور دراز أن سورة البقرة تدور حول موضوع أساسي هو الجهاد في سبيل الله وان ما تخلل آيات الجهاد من موضوعات أخرى فهي موضوعات تتعلق بنوازل وقتية أو هي أمور فرعية تتعلق بالجهاد نفسه ومثال ذلك موضوع الصلاة في الحرب ألاّ يكون الجهاد رخصة في إسقاط هذا الواجب أو في تأجيله ؟ .

يقول الدكتور دراز : يجيبنا الكتاب العزيز : لا رخصة في ترك الصلاة ولا في تأجيلها لا في سلم ولا في حرب لا في أمن ولا في خوف قال تعالى (حافظوا على الصلوات) وإنما الرخصة عند الخوف في شيء واحد في صفات الصلاة وهيئاتها « فإن خفتم فرجالا أو ركبانا فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون) .

والصلاة قوة معنوية وعدة من عدد النصر على العدو ، فلا جرم كان من الحكمة أن تزود بها أرواح المجاهدين قبل أن يؤمروا بالقتال والصلاة طهرة تنقي النفس من دنس الشح والحرص على حطام الدنيا .

إلى ان يقول والجندي في الحرب تشغله مخافتان : مخافة على نفسه واخوانه المجاهدين

(١) : النبأ العظيم ص ٢٣٦ .

معه من أخطار الموت أو الهزيمة ومخافة على أهله من الضياع والعيلة إنْ قتل. لذلك انساق البيان الكريم يطرد عن قلبه كلتا المخافتين اما اهله فقد وصى الله للزوجة اذا مات زوجها بأن تمتع حولا كاملا في بيته واما خوف الموت فليعلم ان الذي يطلب الموت توهب له

الحياة » الم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم الوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم احياهم » .

وهكذا ابعدت المخاوف كلها عن قلوب المجاهدين بعد ان زودت ارواحهم بزاد التقوى وهكذا اصبحوا على استعداد نفسي كامل لتلقي الأوامر العليا فليصدر اليهم الأمر صريحا بالجهاد في سبيل الله بأموالهم وانفسهم « وقاتلوا في سبيل الله واعلموا ان الله سميع عليم » .

انتقلنا من سورة الأنفال الى سورة البقرة ولا حرج فالقرآن وحدة متكاملة وقد اخذت آيات الانفاق نصيبا وافرا في آخر سورة البقرة.وكان غرضنا من كل ما سبق بيان الارتباط بين الجهاد بالنفس والجهاد بالمال والجزء الأخير من السورة الكريمة كله في الجهاد بالمال وقد تلونا من احاديث الانفاق ما سبق ونختار من آيات الانفاق الجزء الأخير من سورة البقرة .

قال تعالى : « ياايها الذين آمنوا انفقوا مما رزقناكم من قبل ان يأتي يوم لابيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ، والكافرون هم الظالمون » اقترنت الدعوة الى الانفاق في الآية الكريمة بالتخويف والتذكير بيوم الوعيد يوم لا يغني خليل عن خليله ولا تنفع شفاعة الشافعين الا لمن اذن له الرحمن فالسلطان لله وحده والملك لله وحده نددت الآية الكريمة بمناسبة الانفاق بذكر الكافرين وظلمهم و يفهم من ذلك بوضوح ان المخالفين عن امره جل شأنه التاركين للانفاق وللزكاة هم الظالمون وهم الكافرون سموا بهذا الاسم لبيان عظم جريمتهم وفداحة اثمهم كما قال تعالى في آخر آية « الحج » « ومن كفر فان الله غني عن العالمين » تعريضا بمن لم يحج و يؤخذ من الآية الكريمة ان ترك الزكاة من صفات الكفار كما قال تعالى : « و و يل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة » .

وتلت الآية السابقة الداعية الى الانفاق آيات كريمة في توطيد بناء التوحيد في قلب المؤمن وعلى رأس هذه الآيات آية الكرسي ذات الشأن العظيم والفضل الكبير وقد صح في حديث اورده الامام احمد في مسنده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنها اعظم آية في كتاب الله وانها مشتملة على اسم الله الأعظم قال الزمخشري : فإن قلت لم فضلت هذه الآية حتى ورد في فضلها ما ورد قلت: لما فضلت له سورة الاخلاص من اشتمالها على توحيد الله تعالى وتعظيمه وتمجيده وصفاته العظمى ولا مذكور اعظم من رب العزة فما كان ذكرا له كان افضل من سائر الأذكار.

اقترنت آية الانفاق بآية عظيمة في كتاب الله في توحيده جل شأنه وتمجيده وقد اعقبت هذه محاجة ابراهيم لمدعي الألوهية الذي قال انا احيي واميت واعقب ذلك قصة الذي اماته الله مائة عام ثم بعثه ثم قصة ابراهيم يقول ولكن ليطمئن قلبي كل هذه المعاني تؤدي غرضها في دعوة غير المؤمن الى الايمان وتزيد المؤمن ثباتا ورسوخا في ايمانه فاذا دعي الى الانفاق لم يتردد ولم يتلكأ ، وهكذا يشعر هذا الاقتران بارتباط الانفاق في سبيل الله بالايمان بالله .

وبعد الدعوة السابقة الى الانفاق الحاسمة الصارمة وبعد آيات التوحيد التي سبق ذكرها التي تدعم موضوع الانفاق وتزيده قوة وتأييدا تعود الآيات الكريمة الى الدعوة الى الانفاق ثانية مبينة هنا ثمراته الكريمة ونتائجه الطيبة دعوة حافزة مشجعة قال تعالى :

« مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » . وبعد هذا وذاك يأتي دور التحذير من الانفاق المشوب بشائبة الرياء . (قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم يا ايها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين ومثل الذين ينفقون اموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من انفسهم كمثل جنة بربوة اصابها وابل فآتت اكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطلٌ والله بما تعملون بصير) .

ومما هو شبيه بغائلة الرياء وهو دليل على ضعف الايمان أن يعمد المنفق الى الخبيث

من ماله فيقدمه في سبيله قال تعالى :

(يا ايها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم ومما اخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد) .

وما هي العقبة التي تقف في وجه المؤمن وتحول بينه و بين الانفاق انه الشيطان يعد بالفقر.

قال تعالى : « الشيطان يعدكم الفقر و يأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله وسع عليم يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا اولوا الألباب وما انفقتم من نفقة او نذرتم من نذر فان الله يعلمه وما للظالمين من انصار» .

ومن الآداب المتعلقة بالانفاق الانفاق في السر والجهر قال تعالى : « ان تبدو الصدقات فنعما هي ، وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم و يكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير»

قال تعالى : «ليس عليك هداهم ، ولكن الله يهدي من يشاء ، وما تنفقوا من خير يوف اليكم وانتم لا تظلمون » .

قال تعالى : « ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف اليكم وانتم لا تظلمون »،
جاءت الدعوة الأولى الى الانفاق مقترنة بتوحيد الله جل شأنه و بالآية الكريمة التي جاء فيها ذكر اسم الله الأعظم ثم اعقب ذلك آيات ضاربة أروع الأمثلة لسوق هذا الانسان الى الاعتراف بخالقه والاذعان لألوهيته ثم كانت بعد ذلك دعوة تبين ما للمنفق من مضاعفة الثواب عند ربه ثم جاءت آيات تذكر بأدب الانفاق البعيد عن الرياء والانفاق من الطيب لا الخبيث ومجانبة دعوة الشيطان حين يخوف العبد الفقر، والانفاق بالسر تارة و بالجهر أخرى ، و بعد هذا كله جاءت الآية السابقة مصدرة بذكر الهداية قد كرر فيها النداء واكد فيها العليم الحكيم على المؤمنين ان ما ينفقون من خير فهو لأنفسهم ، وان ما ينفقونه في سبيل الله وابتغاء وجهه ومن اسعد ممن ينفق في سبيل الملك الواحد

القهار وان ما ينفقونه يوف اليهم من قبل البر العدل الرحيم.و يأتي بعد هذا التأكيد وصف رائع جميل يصور لنا حال اناس من المؤمنين لا ينقطعون عن الانفاق في ليل ولا نهار ولا في سر او جهر، في الليل يتلمسون السبل و يتجسسون الطرق ليصلوا الى ارملة من حولها ايتام جياع او عابر سبيل انقطعت حباله وفي النهار يحضرون الندوات و يقدمون الأموال في سبيل الأمور الكبيرة والمهام الجليلة و يعترض بين الآيتين وصف للفقراء الذين ينالهم بر هؤلاء،وصف يستدر الرحمة و يبين ضرورة الصدقة ومكانتها :

(للفقراء الذين احصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس الحافا ، وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم)(الذين ينفقون اموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)

كلمة في الإنفاق للغزالي

قال القاسمي في تفسيره قال الإمام الغزالي عليه الرحمة في الإحياء ما نصه : في وجه الامتحان بالصدقات ثلاث معان :

الأول ان التلفظ بكلمتي الشهادة التزام للتوحيد وشهادة بافراد المعبود وشرط تمام الوفاء به ألاّ يبقى للموحد محبوب سوى الواحد الفرد ، فان محبة الله لا تقبل الشركة ، والتوحيد باللسان قليل الجدوى ، والأموال محبوبة عند الخلائق لأنها آلة تمتعهم بالدنيا و بسببها يأنسون بهذا العالم و ينفرون من الموت مع ان فيه لقاء وجه الله فامتحنوا بتصديق دعواهم في حب الله واستنزلوا عن المال الذي هو مرموقهم ومعشوقهم ، ولذلك قال تعالى (ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة) وذلك بالجهاد وهو مسامحة بالمهجة شوقا الى الله عز وجل ، والمسامحة بالمال اهون ، ولما فهم هذا المعنى في بذل الأموال انقسم الناس الى ثلاثة اقسام : قسم صدقوا التوحيد و وفوا بعهدهم ونزلوا عن جميع اموالهم فلم يدخروا دينارا ولا درهما . وقسم درجتهم دون من قبلهم وهم الممسكون اموالهم المراقبون لمواقيت الحاجات ومواسم الخيرات ، فيكون قصدهم في الادخار الانفاق على قدر الحاجة دون التنعم ، وصرف الفاضل عن الحاجة الى وجوه البر مهما ظهر وجوهها .

وهؤلاء لا يقتصرون على مقدار الزكاة ، وقد ذهب جماعة من التابعين الى ان في المال حقوقا سوى الزكاة كالنخعي والشعبي وعطاء ومجاهد . قال الشعبي (بعد ان قيل له هل في المال حق سوى الزكاة ؟ قال نعم اما سمعت قوله عز وجل (وآتى المال على حبه ذوي القربى ... الآية) . واستدلوا بقوله عزوجل « ومما رزقناهم ينفقون » و بقوله تعالى « وانفقوا مما رزقناكم » وزعموا ان ذلك غير منسوخ بآية الزكاة بل هو داخل في حق المسلم على المسلم ومعناه انه يجب على الموسر، مهما وجد محتاجا ، أن يزيل حاجته فضلا عن مال الزكاة .

وقسم يقتصرون على أداء الوجوب فلا يزيدون عليه ولا ينقصون منه وهي اقل الرتب وقد اقتصر جميع العوام عليها ، لبخلهم بالمال وميلهم اليه وضعف حبهم للآخرة .

يقول الغزالي هذا أحد معاني أمر الله سبحانه عباده ببذل الأموال والمعنى الثاني التطهير من صفة البخل فإنه من المهلكات قال تعالى « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » والزكاة بهذا المعنى طهرة اي تطهر صاحبها عن خبث البخل المهلك وانما طهارته بقدر بذله و بقدر فرحه باخراجه واستبشاره بصرفه لله تعالى .

المعنى الثالث : شكر النعمة فان لله عز وجل على عبده نعمة في نفسه وفي ماله فالعبادات البدنية شكر لنعمة البدن ، والمالية شكر لنعمة المال ، وما اخس من ينظر الى الفقير وقد ضيق عليه الرزق ثم لا تسمح نفسه بأن يؤدي شكر الله تعالى على اغنائه عن السؤال وإحواج غيره اليه .

أقول : الذي يبدو لي أن هؤلاء الذين وضعهم الغزالي في المرتبة الثانية هم اصحاب المرتبة الأولى وهم اقرب الى المعاني الكاملة التي تدعو اليها الشريعة الاسلامية فليس من الحكمة ولا من كمال الدين ألا يبقى بيد المؤمن درهم ولا دينار ولكن الأكمل ان يحفظ المال لوقت حاجته اذ ربما نزل بالأمة كارثة او المت بها جائحة وهنالك يسعف المال و ينقذ الادخار الأمة و يوضع المدخر في درجة المنقذين .

الصلة بين الصفات الخمس والسؤال عن الأنفال

سأل اصحاب رسول الله عليه صلوات الله وسلامه عن الأنفال بعد موقعة بدر كيف

قسمتها ومن صاحب الحق فيها وكان هذا السؤال أمرا يؤاخذن عليه في نظر الشارع الحكيم ذلك أن هذا المستوى هو دون المستوى الذي يطلب ان يكون فيه اصحاب رسول الله .

واعتبر الموضوع موضوع الساعة فبدىء الحديث به وكان أول موضوع يطرح وأول مسألة تعالج ، ولم يعالج الموضوع معالجة جافية ولم يزجر الأصحاب عن الموضوع زجرا ولم يكرهوا على عدم الخوض فيه اكراها ولكنهم دعوا دعوة لينة كريمة الى ترك الأمر ووضعه بأيد أمينة تحسن التصرف فيه وتعرف البت بشأنه ، ودعى الأصحاب دعوة ملؤها الحنان وسداها النصح ولحمتها الاشفاق دعوا الى تقوى الله وقد رأينا ما تنطوي عليه هذه الكلمة من مراقبة الله وطاعة لأمره وعمل بما يرضيه ودعوا الى اصلاح ذات بينهم ودعوا الى طاعة الله ورسوله إن كانوا مؤمنين ثم جيء بعد ذلك بخمس صفات من صفات المؤمنين كل صفة منها كافية بالبلوغ بالمؤمن الى اعلى درجات الايمان .

الأولى الوجل عند ذكر الله وهو اصل خشية الله ودليل على تمجيده وتعظيمه وتقديره جل شأنه حق قدره .

والثانية زيادة الايمان عند تلاوة آيات الله وهي دليل على وعي القلب وتفتحه وادراكه للمعاني الجليلة وتأثره بها حتى تخالط اللحم والعظم وتصبح جزءا من اجزاء الانسان نفسه وهذا الوجل عند ذكر الله معناه يقظة ضمير المؤمن وارهاف حياته الوجدانية وكونها قد بلغت في تربيتها شأوا بعيدا والكثرة الغالبة من المسلمين لا توجل قلوبهم ولا تبكي عيونهم ولا تقشعر جلودهم وما ذلك الا من قسوة القلوب .

وهذه الحياة الوجدانية اليقظة المرهفة المدركة ينشأ عنها الوجل عند ذكر الله والطمأنينة الى امر الله والثقة بعونه و ينشأمن كل ذلك الاذعان الى امر الله والقلوب راضية والصدور منشرحة .

وزيادة الايمان عند تلاوة الآيات منشؤه تربية الحياة الفكرية والوجدانية لدى المؤمنين فهم يدركون الحق و يتذوقون حلاوته وحلاوة المعاني السامية الكريمة التي تتنزل بها آيات الله والصم البكم لا يرون في ذلك جمالا ولا يدركون له جلالا و يعجبون ممن يدركون شيئا من ذلك فتخشع قلوبهم وتدمع أعينهم قال تعالى : « والذين اذا ذكروا

بايات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا »

الوجل منشؤه التربية الوجدانية وزيادة الايمان منشؤه التربية الفكرية والصفة الثالثة التوكل على الله وهي اعظم ثمرات التوحيد كما ذكرنا واصله الاعتقاد الثابت واليقين الراسخ بان الله جل شأنه هو المالك وحده وهو المتصرف وحده وهو بيده الامر وحده وثمرة هذا الاعتقاد الاقدام في مرضاة الله مع التوكل على الله وخشيته وحده جل شأنه وعدم خشية شيء سواه .

وهكذا كان التوكل على الله اقوى العوامل في تربية الحياة الارادية ، تربية العزيمة لدى المؤمن وتصميمه على فعل الخير.

وهكذا كانت الصفات الثلاث التي تؤدي الى تربية الحياة الوجدانية والحياة الفكرية والحياة الارادية وهذا قوام النفس ومظاهر سلوكها المختلفة وهذه الصفات الثلاث سيقت لحمل المؤمنين على الاذعان بأن شأن الأنفال وقسمتها ليس من شأنهم والتفكير بها والقلق عليها يجب الا يكون من ديدنهم . انها لتربية رفيقة حكيمة تطأطىء الرؤوس اذعانا لجلالها واعترافا بلطف تأتيها : لم يزجر الأصحاب بالعنف ولم يدعوا كرها ولم ينهوا قسرا ولكنهم دعوا الى ايمانهم والى عهودهم .

المؤمن يوجل قلبه اذا ذكر الله وهذه الصفة وحدها كافية في الاستجابة لكل أمر من عند الله ومجافاة كل نهي من نهيه .

والمؤمن يزداد ايمانا بآيات الله وهذه وحدها كافية لطاعة أمر الله اذ يرى ببصيرته بان امر الله هو الحق كله وهو الخير كله .

والمؤمن يتوكل على الله فلا يخشى فقرا ولا يبالي بالدنيا اذا اقبلت ام ادبرت فيدع أمر الأنفال و يتوب من السؤال عنها .

أليست هذه الصفات كافية لاقناع الأصحاب او بعضهم على الأصح بضرورة الاقلاع عما خامر بعض النفوس من التفاتة يسيرة الى الدنيا؟.

ولكن الآيات الكريمة تضيف اليها صفتين كريمتين تفعل كل واحدة فعلها في تربية النفوس المؤمنة وفي تزكيتها وايتائها تقواها : الصلاة والانفاق في سبيل الله .

كل هذه الصفات ذكرت لأصحاب رسول الله ليرجع بعضهم عما حدثته نفسه من رغبة في الدنيا ولتظل تربية هذه الآيات تفعل في نفوس المؤمنين حتى يقوم الناس لرب العالمين .

انها لتربية جليلة تربية العليم الحكيم .

قال تعالى : « اولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم »

قال ابن جرير الطبري : يقول تعالى ذكره الذين يؤدون الصلاة المفروضة بحدودها و ينفقون مما رزقهم الله من الأموال فيما أمرهم الله ان ينفقوها فيه ، من زكاة وجهاد وحج وعمرة ونفقة على من تجب عليهم نفقته فيؤدون حقوقهم ، يقول هؤلاء الذين يفعلون هذه الأفعال هم المؤمنون لا الذين يقولون بألسنتهم قد آمنا وقلوبهم منطوية على خلافه نفاقا ولا يقيمون صلاة ولا يؤدون زكاة .

وقال ابن كثير : اولئك اي المتصفون بهذه الصفات هم المؤمنون حق الايمان يريد الصفات الخمس التي سبق ذكرها وهذه الصفات الخمس التي ذكرها وحدها تستلزم صفات الايمان كلها وتتبعها شعب الايمان جميعها .

فوجل القلب عند ذكر الله مثلا يقتضي خشيته والخوف منه والخشية والخوف يؤديان الى فعل المأمور وترك المحظور قال تعالى « ولمن خاف مقام ربه جنتان » ، وقال تعالى « انما يخشى الله من عباده العلماء » وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال والله اني لأرجو ان اكون اخشاكم لله واعلمكم بحدوده.والحديث يدل على ان خشية الله والعلم بحدوده ، هما صفات المؤمن الكامل الايمان والخشية تستلزم العمل والايمان متناسب مع الخشية فكلما ازدادت خشية العبد المؤمن كان ذلك دليلا على زيادة ايمانه .

واذا كان اهل الخشية هم العلماء الذين اثنى الله عليهم في الكتاب فلا يمكن ان يكونوا مكانا للثناء الا وقد التزموا الأوامر واجتنبوا النواهي لأن خوف الله جل شأنه يستلزم اداء الواجبات وترك المحرمات و يقال للفاجر انه لا يخاف الله وقال تعالى « انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب »

قال ابن تيمية (١) قال ابو العالية : سألت اصحاب محمد عن هذه الآية فقالوا لي

---

(١) الفتاوى ج ٧ ص ٢٢

كل من عصى الله فهو جاهل وكل من تاب من قريب وكذا قال سائر المفسرين . قال مجاهد كل عاص فهو جاهل حين معصيته وقال الزجاج آثروا العاجل على الآجل فسموا جهالا .

وقوله تعالى « اولئك هم المؤمنون حقا » اى الكاملون في ايمانهم البالغون فيه اعلى درجاته واقصى غاياته المؤمنون ايمانا حقا موصوفا بالصدق واليقين فلا يشك في ايمانهم شاك ولا يرتاب فيه مرتاب ولك ان تقول هم المؤمنون ، حق هذا القول حقا . وعلى القول الأول وصف ايمانهم بانه ايمان حق.وعلى الثاني وصفت نسبة الايمان اليهم نسبة حقه والأول عندي اقرب .

قال ابن كثير قال عمرو بن مرة:قوله تعالى أولئك هم المؤمنون حقا كقولك فلان سيد حق وفي القوم سادة وفلان تاجر حقا وفي القوم تجار وفلان شاعر حقا وفي القوم شعراء .

يقول القاسمي : كأنه (يعني عمرو بن مرة) اراد الرد على من زعم ان حقا صولة بقوله تعالى لهم درجات مؤكدة له وان الكلام تم عند قوله المؤمنون ، يقول القاسمي : فإن هذا الزعم يصان عنه اسلوب التنزيل الحكيم.و يقول صديق حسن خان:هذا انما يجوز على رأي ضعيف يعني تقديم المصدر المؤكد لمضمون الجملة عليها . يقول القاسمي : وقد تطرق بعض المفسرين لمسألة شهيرة وهي :

هل يجوز ان يقال انا مؤمن حقا ؟

قال صديق حسن خان : وقد استدل بظاهر هذه الآية ابو حنيفة ومن قال بقوله « انه يجوز ان يقال انا مؤمن حقا ولا يجوز الاستثناء » واجيب عنه بأن الاستثناء ليس عن طريق الشك بل للتبرك كقوله « وإنا إن شاء الله بكم لاحقون » مع العلم القطعي أنه لاحق بهم أو المراد صرف الاستثناء إلى الخاتمة والنزاع عند التحقيق لفظي يعني أنه خلاف في أمر لايدعو إلى خلاف .

و يقول القاسمي : قال الطوسي (٢) (في نقد المحصل)

---

(٢) الطوسي هو محمد بن محمد بن الحسن أبو جعفر نصير الدين الطوسي فيلسوف كان رأسا في العلوم العقلية ، علت منزلته عند « هولاكو » فكان يطيعه فيما يشير به عليه.ونقد المحصل ذكره صاحب كشف الظنون واكتفى بان يقول لأبي جعفر نصير الدين محمد بن حسن الطوسي=

المعتزلة ومن تبعها يقولون اليقين لا يحتمل الشك والزوال فقول القائل (انا مؤمن ان شاء الله) لا يصح الا عند الشك او خوف الزوال ، وما يوهم احدهما لا يجوز ان يقال للتبرك . انتهى

والغزالي في الأحياء بسط هذه المسألة واجاب عمن سوغ ذلك بأجوبة منها التخوف من الخاتمة لأن الايمان موقوف على سلامة الخاتمة ومنها الاحتراز من تزكية النفس ... الى آخر ما يقول

وقال ابن حزم في الفصل :

القول عندنا في هذه المسألة ان هذه صفة يعلمها المرء من نفسه فان كان يدري انه مصدق بالله عز وجل وبمحمد صلى الله عليه وسلم و بكل ما اتى به وانه يقر بلسانه بكل ذلك فواجب عليه ان يعترف بذلك كما امر تعالى في قوله « وأما بنعمة ربك فحدث » ولا نعمة أوكد ولا افضل ولا أوْلى بالشكر من نعمة الاسلام فواجب عليه ان يقول : مؤمن مسلم عند الله في وقتي هذا ولا فرق بين قوله انا مؤمن مسلم (انا اسود وانا ابيض) وهكذا سائر صفاته التي لاشك فيها وليس هذا من باب الامتداح والعجب في شيء لأنه فرض عليه ان يحقن دمه بشهادة التوحيد .

وقول ابن مسعود (انا مؤمن ان شاء الله) عندنا صحيح لان الاسلام والايمان منقولان عن موضوعهما في اللغة الى جميع البر والطاعات فانما منع ابن مسعود الجزم على معنى انه مستوف لجميع الطاعات وهذا صحيح ومن ادعى لنفسه هذا فقد كذب بلا شك وما منع (ابن مسعود) ان يقول المرء (اني مؤمن) بمعنى (مصدق) .

وأما قول المانعين : « من قال أنا مؤمن فليقل انه من أهل الجنة فالجواب انا نقول ان متنا ما نحن عليه الآن فلا بد لنا من الجنة بلا شك و برهان ذلك انه قد صح من نصوص القرآن والسنن والاجماع أن من آمن بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم وكل ما جاء به ولم يأت بما كفر ، فإنه في الجنة ، الا اننا لاندرى ما يفعل بنا في الدنيا ولا نأمن مكر الله تعالى ولا إضلاله ولا كيد الشيطان ولا ندري ماذا نكسب غدا ونعوذ بالله من الخذلان .

= والمحصل للرازى يقول صاحب كشف الظنون (محصل افكار المتقدمين والمتأخرين من الحكماء والمتأخرين) وهو في علم الكلام ، ولخصه المحقق نصير الدين الطوسي وسماه تلخيص المحصل يقول الطوسي « وفيه من الغث والسمين ما لا يحصى فرأيت ان اكشف القناع وأبين الخلل وادل على غثه وسمينه » .

و يتفق مع ما ذكر ابن حزم بايجاز غير مخل ما روى القرطبي قال :
وسأل رجل الحسن فقال يا ابا سعيد امؤمن انت ؟ فقال له الايمان ايمانان فإن كنت تسألني عن الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والبعث والحساب فأنا به مؤمن وان كنت تسألني عن قول الله تبارك وتعالى انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ــ الى قوله تعالى ــ اولئك هم المفلحون حقا فوالله ما ادري انا منهم ام لا .

وقال الشيخ السفاريني الحنبلي صاحب شرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية الذين يحرمون الاستثناء هم المرجئة والجهمية ومن وافقهم مما يجعل الايمان شيئا واحدا قال شيخ الاسلام يعني ابن تيمية عليه رحمة الله وكان اهل الشام شديدين على المرجئة وكانوا يستثنون اتباعا للسلف .

قال شيخ الاسلام ومذهب اصحاب الحديث كابن مسعود واصحابه والثوري وابن عيينة واكثر علماء الكوفة ويحيى بن سعيد القطان فيما يرو يه عن علماء البصرة والامام احمد ابن حنبل وغيره من ائمة السنة كانوا يستثنون في الايمان وهذا متواتر عنهم،و يقول واخذ سلف الأمة في الاستثناء ان الايمان المطلق فعل جميع المأمورات وترك جميع المحظورات فاذا قال الرجل انا مؤمن بهذا الاعتبار فقد شهد لنفسه انه من الأبرار المتقين وهذا تزكية الانسان لنفسه وشهادته لها بما لا يعلم .

قال الخلال في كتاب السنة حدثنا سليمان بن الأشعث يعني الامام الحافظ أبا داود صاحب السنن قال:سمعت ابا عبد الله يعني الامام احمد رضي الله عنه قال له رجل قيل لي امؤمن انت ؟ قلت نعم هل عليّ في ذلك شيء ؟ هل الناس الا مؤمن او كافر ؟ فغضب الامام احمد وقال هذا كلام الإرجاء . ثم قال الامام احمد أليس الايمان قولا وعملا قال له الرجل بلى ، قال فجئنا بالقول ؟ قال نعم ، قال فجئنا بالعمل ؟ قال لا فكيف تعيب أن يقول ان شاء الله و يستثنى ؟
قال ابو داود اخبرني احمد بن ابي شر يح ان الامام احمد رضي الله عنه كتب اليه في هذه المسألة ان الايمان قول وعمل فجئنا بالقول ولم نجيء بالعمل ونحن نستثني في العمل .

وقال السفاريني:قال الامام أحمد أذهب الى حديث ابن مسعود في الاستثناء في الايمان لأن الايمان قول وعمل فقد جئنا بالقول ونخشى أن نكون فرطنا في العمل فيعجبني

أن يستثنى في الايمان يقول أنا مؤمن ان شاء الله . يقول السفار يني ومثل هذا كثير في كلام الامام أحمد رضي الله عنه وفي كلام امثاله من ائمة السلف .

يقول السفار يني؛ وقد كان الامام احمد وغيره من السلف مع هذا يكرهون سؤال الرجل لغيره أمؤمن أنت و يكرهون الجواب لان هذه بدعة أحدثتها المرجئة قال الخلال أخبرني أحمد بن أصرم المزني أن ابا عبد الله قيل له اذا سألني الرجل فقال أمؤمن انت ؟ قال قل له سؤالك إياي بدعة ولاأشك في ايماني .

يقول السفار يني : فعلم أن الامام احمد وغيره من السلف كانوا يجزمون ولا يشكون في وجود ما في القلوب من الايمان ويجعلون الاستثناء عائدا الى الايمان المطلق المتضمن فعل المأمور وهذا شبيه بما نقلنا عن الحسن البصري .

قال ابن كثير قال الحافظ ابو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي حدثنا ابو كر يب حدثنا زيد بن الحباب حدثنا ابن لهيعة عن خالد ابن يزيد السكسكي عن سعيد بن أبي هلال عن محمد بن الجهم عن الحارث بن مالك الانصاري أنه مرّ برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له كيف أصبحت ياحارث ؟ قال أصبحت مؤمنا حقا ، قال انظر ما تقول فان لكل شيء حقيقة فما حقيقة ايمانك ؟ فقال : عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي واظمأت نهاري ، وكأني انظر الى عرش ربي بارزاً وكأني أنظر الى أهل الجنة يتزاورون فيها وكأني انظر الى اهل النار يتضاغون فيها فقال « ياحارث عرفت فالزم » ثلاثا (١) .

---

(١): ذكر ابن كثير الحديث السابق ولم يعلق عليه بشيء وقد ذكره السيد رشيد رضا في تفسيره وقال : رواه الطبراني بسند ضعيف يؤثر للعبرة .

واما رجال السند السابق فأولهم محمد بن عبد الله الحضرمي وقد ترجم له الذهبي في تذكرة الحفاظ وقال كان من اوعية العلم وسئل عنه الدارقطني فقال ثقة جبل وهو شيخ الطبراني الحافظ الامام العلامة الحجة .

وابو كريب هو محمد بن العلاء بن كريب قال الحافظ ابن حجر ثقة حافظ روى له اصحاب الكتب الستة وزيد بن الحباب قال الحافظ ابن حجر صدوق يخطيء روى له مسلم واصحاب الكتب الأربعة وعبد الله بن لهيعة صدوق خلط بعد احتراق كتبه.وسعيد بن ابي هلال يقول ابن حجر فيه صدوق لم ار لابن حزم في تضعيفه سلفا الا ان الساجي حكى عن احمد انه اختلط وقد روى له اصحاب الكتب الستة ومحمد بن ابي الجهم ترجم له الحافظ ابن حجر في الاصابة فقال: قال ابن عبد البر ولد في=

= عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، يقول ابن حجر: وذكره ابن سعد في الطبقة الاولى من اهل المدينة .
وعلى هذا فرجال السند السابق فيهم ثلاثة ضعفاء اولهم زيد بن الحباب قال فيه ابن حجر صدوق يخطئ ولكنه على ضعفه من رجال مسلم والثاني ابن لهيعة وهو على ضعفه من رجال مسلم ايضا والثالث سعيد ابن ابي هلال وقد روى له اصحاب الكتب الستة ونتيجة هذا ان ضعف الاسناد محتمل فلو وجد له سند آخر في قوته لعضده وانتقل الحديث بذلك من مرتبة الضعيف الى مرتبة الحسن لغيره .

وقد اورد الحديث صاحب مجمع الزوائد وقال فيه رواه الطبراني في الكبير وفيه ابن لهيعة وفيه من يحتاج الى الكشف عنه وهذا يعنى عدم اطمئنانه الى رجال السند ثم يرويه عن انس بن مالك و يقول رواه البزار وفيه يوسف بن عطية لايحتج به .

وقد اورد الحديث ابن حجر في الاصابة في ترجمة الحارث بن مالك قال روى حديثه ابن المبارك في الزهد عن معمر عن صالح بن مسمار ان النبي صلى الله عليه وسلم قال يا حارث بن مالك كيف اصبحت ثم قال ابن حجر وهو معضل ومعمر هو ابن راشد الأزدي ثقة ثبت فاضل وقد روى له اصحاب الكتب الستة وصالح بن مسمار يقول عنه ابن حجر بصرى سكن الجزيرة ، مقبول قديم من السابعة ومعنى كونه من السابعة انه من اتباع التابعين فبينه و بين الرسول عليه الصلاة والسلام تابعي وصاحبي ولذلك سمي ابن حجر الحديث معضلا وكونه معضلا لا يجعله صالحا لتقوية السند الأول .

قال ابن حجر : وكذا اخرجه عبد الرازق عن معمر عن صالح بن مسمار وجعفر بن برقان ان النبي صلى الله عليه وسلم قال للحارث : الحديث.وجعفر بن برقان صدوق يهم وهو من السابعة فالاسناد معضل ايضا .

يقول بن حجر وجاء الحديث موصولا من طريق اخرى اخرجه الطبراني من طريق سعيد بن ابي هلال عن محمد بن الجهم وابن منده من طريق سليمان بن سعيد عن الربيع بن لوط كلاهما يعني محمد بن الجهم والربيع بن لوط عن الحارث بن مالك ورواه البيهقي في الشعب ثم قال هذا منكر وقد خبط فيه يوسف بن عطية وهو ضعيف جدا . قال ابن حجر في آخر ما روى قال ابن صاعد وهذا الحديث لا يثبت موصولا . والحديث اورده ابن ابي شيبة في كتاب الايمان باسنادين احدهما ضعيف مرسل والثاني معضل (كتاب الايمان لابن ابى شيبة تحقيق ناصر الدين الالباني ص ٣٨) .

قد يقول قائل اذا كان الحديث ضعيفا فلم ذكره وفيم العناء الكبير فى سرد رواياته والجواب ان مفسرين . اثيرين لديّ ذكرا الحديث السابق ولم يعلقا عليه بشئ اولهما ابن كثير رحمه الله والثاني سيد قطب عليه رحمة الله فكان غرضي ان ابذل جهدى القاصر في معرفة درجة الحديث ذلك لأني اذهب ان للأحاديث الضعيفة والتي لا اصل لها اثرا سيئا في نفوس المسلمين وفي سلوك المسلمين ولأنها كانت عاملا من العوامل في انحراف المسلمين عما كان عليه رسول الله واصحابه والسلف الصالح .

قال عطاء (١) درجات الجنة يرتقونها بأعمالهم والرزق الكريم ما اعد لهم فيها وعن مجاهد (٢) الدرجات هي الأعمال الرفيعة وقال الضحاك اهل الجنة بعضهم فوق بعض فيرى الذي هو فوق، فضله على الذي هو اسفل منه ولا يرى الأسفل فضل احد عليه.

فالدرجات هي المنازل والمقامات العالية في الجنة وهي منازل الخير والكرامة يكرم الله بها عباده المتقين، وهذه المنازل لهم عند ربهم فأي تشريف وتكريم اكبر من تشريف من كانت له منزلة عند ربه وأي رحمة يدركها من له مقام عند ربه.

وقد ذكر في الآية الكريمة أن الدرجات لهم، للمؤمنين الذين وصفوا بما وصفوا به وذكر ان هذه الدرجات عند الرب جل شأنه وكونها عند الله تشريف لها وتعظيم لأمرها وأنها منازل وراء وصف الواصفين وإدراك المدركين لا يستطيع ان يعرفها الا من حلَّ بها وذكر بعد كل هذا ان الرب ربهم جل شأنه فهو يخصهم بفضله ويمنحهم وده ومحبته وكرمه.

قال الامام تقي الدين بن تيمية رحمه الله (٣):

واولياء الله على طبقتين سابقون مقربون وأبرار اصحاب يمين مقتصدون، ذكرهم الله سبحانه في عدة مواضع من كتابه في أول الواقعة وآخرها وفي سورة الانسان والمطففين وفي سورة فاطر فانه سبحانه ذكر في الواقعة القيامة الكبرى في أولها وذكر القيامة الصغرى في آخرها (يعني بالقيامة الكبرى عليه رحمة الله القيامة عند فناء الدنيا وبالصغرى موت الانسان في دار الدنيا). قال تعالى في اولها:

(وكنتم ازواجا ثلاثة فأصحاب الميمنة ما اصحاب الميمنة واصحاب المشأمة ما اصحاب المشأمة والسابقون السابقون اولئك المقربون في جنات النعيم ثلة من الأولين وقليل من الآخرين)

وهذا تقسيم للناس إذا قامت القيامة الكبرى التي يجمع الله فيها الأولين والآخرين وصف في كتابه في غير موضع وقال تعالى في آخر السورة: فلولا (أي فهلا) اذا بلغت الحلقوم وانتم حينئذ تنظرون ونحن اقرب اليه منكم ولكن لا تبصرون فلولا ان كنتم غير

---

(١): ابن الجوزي جـ ٣ ص ٣٢١

(٢): صديق حسن خان جـ ٤ ص ٧ (فتح البيان)

(١): في كتاب الفرقان (ص ٢٥ منشورات المكتب الاسلامي بدمشق)

مدينين ترجعونها ان كنتم صادقين فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم وأما إن كان من اصحاب اليمين فسلام لك من اصحاب اليمين

وقال تعالى في سورة الانسان :
ان الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا.
وقال تعالى في سورة المطففين :
يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون.

يقول ابن تيمية : فعن ابن عباس وغيره من السلف قالوا يمزج لاصحاب اليمين مزجا و يشرب بها المقربون صرفا وهو كما قالوا فإنه قال تعالى يشرب بها المقربون ولم يقل منها لأنه ضمن قوله يشرب معنى يروي فان الشارب قد يروى وقد لا يروى فاذا قيل يشرب فيها لم يدل على الري واذا قال يشرب بها كان المعنى يروون بها فلا يحتاجون معها الى ما هو دونها فلهذا شربوها صرفا بخلاف اصحاب اليمين فانها مزجت لهم مزجا .

فأولياء الله تعالى على نوعين مقربون واصحاب يمين كما تقدم وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم عمل القسمين في حديث الأولياء فقال : يقول الله تعالى : « من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة وما تقرب الى عبدي بمثل اداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى احبه فاذا احببته كنت سمعه الذى يسمع به و بصره الذى يبصر به و يده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها »

وأما السابقون المقربون فتقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض ففعلوا الواجبات والمستحبات وتركوا المحرمات والمكروهات فلما تقربوا اليه بجميع ما يقدرون عليه من محبوباتهم أحبهم الرب حبا تاماً كما قال تعالى (حتى أحبه) يعني الحب المطلق كقوله تعالى (صراط الذين انعمت عليهم) أى الإنعام التام المطلق .

وهؤلاء المقربون صارت المباحات في حقهم طاعات يتقربون بها الى الله عز وجل فكانت أعمالهم كلها عبادات لله فشربوا صرفا كما عملوا صرفا والمقتصدون كان في اعمالهم ما فعلوه لنفوسهم فلا يعاقبون ولا يثابون عليه فلم يشربوا صرفا بل مزج لهم من

شراب المقربين بحسب ما مزجوه في الدنيا .

ونظير هذا انقسام الانبياء الى عبد رسول ونبي ملك وقد خير الله سبحانه محمدا صلى الله عليه وسلم بين أن يكون عبداً رسولا و بين أن يكون نبياً ملكا فاختار أن يكون عبداً رسولا ، فالنبي الملك مثل داود وسليمان ونحوهما قال الله تعالى في قصة سليمان (رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب).

الى ان يقول تعالى (هذا عطاؤنا فامنن أو امسك بغير حساب) أي اعط من شئت واحرم من شئت لا حساب عليك فالنبي الملك يفعل ما فرض الله عليه و يترك ما حرم الله عليه و يتصرف في الولاية والمال بما يحب ويختار من غير اثم عليه .

وأما العبد الرسول فلا يعطي أحدا إلا بأمر ربه ولا يعطي من يشاء ويحرم من يشاء بل يعطي من أمره ربه بعطائه و يولي من أمره ربه بتوليته فأعماله كلها عبادات لله تعالى كما في صحيح البخاري عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « اني والله لا اعطي احدا ولا امنع احدا إنما أنا قاسم اضع حيث أمرت ».

والمقصود ان العبد الرسول افضل من النبي الملك كما ان ابراهيم وموسى وعيسى ومحمداً عليهم الصلاة والسلام أفضل من يوسف وداود وسليمان عليهم السلام كما أن المقربين السابقين أفضل من الأبرار اصحاب اليمين .

قال تعالى : « انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض والآخرة أكبر درجات واكبر تفضيلا » (الاسراء : ٢١)

وقال تعالى : « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس »

و يقول ابن القيم (١) : أهل الإخلاص للمعبود واهل المتابعة لرسول الله عليه الصلاة والسلام هم أهل (اياك نعبد) حقيقة اعمالهم كلها لله واقوالهم لله وعطائهم لله ومنعهم لله وحبهم لله و بغضهم لله ومعاملتهم في الظاهر والباطن لوجه الله لا يريدون بذلك من الناس جزاء ولا شكورا ولا ابتغاء لجاه ولا طلبا لمحمدة او منزلة في قلوبهم ولا هرباً من ذمهم . فالناس لا يملكون لهم ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا فمن عرف الناس

(١) في مدارج السالكين بين منازل اياك نعبد واياك نستعين ج ١ — ص ٨٣

أنزلهم منازلهم . ومن عرف الله اخلص له اعماله واقواله وعطاءه ومنعه وحبه و بغضه ، ولا يعامل احد الخلق دون الله إلاّ لجهله بالله وجهله بالخلق . وإلا فإذا عرف الله وعرف الناس آثر معاملة الله على معاملتهم .

وكلام الشيخين فيما افهم ينصَبُّ على معنى واحد و ينزع منزعا واحدا ولكني احسب ان كلام شيخ الاسلام أوجز وأعمق وهو يدل فيما أرى على أن المعنى الذي يعبر عنه قد مازج قلبه .

والذي أفهم من كلام الشيخين استيلاء حب الله جل شأنه على قلب العبد المؤمن فهنالك من عباده من ملأ حب الله قلبه حتى كان ملء سمعه وملء بصره وكان يقيمه و يقعده و يتردد مع انفاسه ويخالج خطراته ومثل هذا في كل حركة وفي كل سكنة وفي كل تغلب يكون دافعه مرضاة الله وغايته القرب من الله وهو بين البداية والنهاية والغدو والرواح ممتلئ القلب حضورا وأنسا وطمأنينة وسكينة ومثل هذا اعماله كلها عبادات وهو يشرب صرفا كما عمل صرفا .

وهذا الذي يغلب على قلبه تعظيم الله جل شأنه وتقديره يتصف بأنواع من الصفات فيكون مخبتا لله جل شأنه متبتلا اليه متوكلا عليه معرضا عما سواه زاهدا بكل ما يحب الناس و يعشقون

يقول ابن القيم ومن منازل (اياك نعبد واياك نستعين) منزلة الإخبات قال تعالى (وبشر المخبتين) ثم كشف تعالى عن معناهم فقال (الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، والصابرين على ما اصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) وقال تعالى : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم اولئك اصحاب الجنة هم فيها خالدون » .

يقول ابن القيم : والإخبات يدور معناه على أمرين التواضع والسكون إلى الله عز وجل ولذلك عُدّيَ بإلى تضمينا لمعنى الطمأنينة والإنابه والسكون الى الله يقول الإخبات في أول مقامات الطمأنينة والسكينة واليقين والثقة بالله ونحوها كل هذه الاخبات مقدمتها ومبدؤها .

وهو اول مقام يتخلص فيه السالك من التردد الذي هو نوع من الغفلة والإعراض .

و يشبه ابن القيم الاخبات بالماء العذب فاذا ورد السائر ماء عذبا زال عنه التردد

واندفع خاطر الرجوع وكذلك السالك اذا ورد مورد الاخبات تخلص من التردد والرجوع ونزل أول منازل الطمأنينة بسفره وجدّ في السير.

يقول عليه رحمة الله : السالك تعرض له غفلة عن مراده تضعف ارادته وشهوة تعارض ارادته فتصده عن مراده و يعرض له رجوع عن مراده وسلوة عنه والدرجة الأولى من الاخبات تحميه عن هذه الثلاثة اما في الدرجة الثانية فلا ينقض ارادته سبب ولا يوحش قلبه عارض ولا يقطع الطريق عليه فتنة وفي الدرجة الثالثة يستوي عنده المدح والذم وتدوم لائمته لنفسه و يعمى عن نقصان الخلق عن درجته.

وهكذا يفسر ابن القيم الاخبات بأنه طمأنينة الى الله وثقة بما عنده فاذا وجد المؤمن حلاوة هذا المعنى في قلبه مضى في جهاده في سبيل الله موقنا بنصره واثقا بعونه ومن اتصف بهذا زهد في الدنيا وملذاتها ورغب عن اللغو بأنواعه وانقطع الى الله وتبتل اليه.

يقول ابن القيم ومن (منازل اياك نعبد واياك نستعين) الزهد ومن احسن ما قيل في الزهد كلام الحسن او غيره (ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال ولا اضاعة المال ولكن ان تكون بما في يد الله اوثق منك بما في يدك وان تكون في ثواب المصيبة ـــ اذا اصبت بها ـــ أرغب منك فيها لو لم تصبك) وهذا من اجمع كلام في الزهد واحسنه وقد روي مرفوعا.

قال ابن القيم ومن منازل (اياك نعبد وإياك نستعين) منزلة الورع وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم الورع كله في كلمة واحدة فقال (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه).

وهذا يعم الترك لما لا يعني من الكلام والنظر والاستماع والبطش والمشي والفكر وسائر الحركات الظاهرة والباطنه وهذه الكلمة كافية شافية في الورع.

يقول : ومن منازل (اياك نعبد واياك نستعين) منزلة التبتل قال تعالى « واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا » والتبتل الانقطاع الى الله بالكلية قال تعالى (له دعوة الحق) فهو أهل لان يعبد وحده و يدعى وحده و يقصد و يشكر ويحمد ويحب و يرجى ويخاف و يتوكل عليه و يستعان به و يستجار به و يلجأ اليه و يصمد اليه فتكون حينئذ الدعوة

الإلهية الحق له وحده .

قال تعالى : « كما اخرجك ربك من بيتك بالحق وان فريقا من المؤمنين لكارهون يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون »

افتتحت السورة الكريمة بذكر الأنفال وما وقع من سؤال بعض الأصحاب بشأنها وكانت هذه المسألة الأولى موضوع الساعة ومنطلق الآيات الكريمة ومبتدؤها وكان الموضوع الثاني ما وقع من تردد بعض الأصحاب في مواجهة القوة الغاشمة قوة قريش وجيشها العاتي .

وقد عقدت الآيات الكريمة شبها بين الموضوعين وجعلت الموضوع الأول ممهدا للموضوع الثاني وسطت بينهما كاف التشبيه واعلنت أن الشأن في سؤال بعض الأصحاب من الأنفال وما وقع مما قد يؤدي الى صدع في وحدة الجماعة شبيه بحال المسلمين حين دعوا الى مقابلة إحدى الطائفتين فكان من بعض المسلمين شيء من التردد في الاستجابة .

يارسول الله امض لما اراك الله

قال ابن اسحاق : وأتاه الخبر عليه الصلاة والسلام عن قريش بمسيرهم ليمنعوا غيرهم فاستشار الناس وأخبرهم عن قريش فقام أبوبكر الصديق فقال وأحسن ثم قام عمر فقال وأحسن ثم قام المقداد بن عمرو فقال « يا رسول الله امض لما اراك الله فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى « اذهب انت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون » ولكن اذهب انت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا الى برك الغماد (موضع بناحية اليمن) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه فقال له رسول صلى الله عليه وسلم خيرا ودعا له به .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أشيروا علي ايها الناس . فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله قال أجل . قال:آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك علي ذلك

عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك فوالذي بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسِرْ بنا على بركة الله فسُرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد ونشطه ذلك .

ثم قالوا سيروا وأبشروا ، فان الله قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني الآن أنظر الى مصارع القوم .

قال ابن حجر : (١)

وروى ابن ابي حاتم من حديث أبي ايوب قال : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بالمدينة : إني اخبرت عن عير أبي سفيان فهل لكم ان تخرجوا اليها لعل الله يغنمناها ؟ قلنا نعم ، فخرجنا فلما سرنا يوما او يومين قال « قد أخبروا خبرنا فاستعدوا للقتال » فقلنا « والله ما لنا طاقة بقتال القوم » فاعاده فقال له المقداد « لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى ولكن نقول انا معكما مقاتلون » قال فتمنينا معشر الأنصار لو أنا قلنا كما قال المقداد فأنزل الله تعالى «كما اخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون»

واخرج الحديث بلفظه عن ابي ايوب الانصاري رضي الله عنه صاحب مجمع الزوائد (٢) ثم قال رواه الطبراني واسناده حسن .

وروى البخاري في صحيحه عن طارق بن شهاب قال سمعت ابن مسعود يقول شهدت من المقداد بن الأسود مشهدا لأن اكون صاحبه أحب إليّ مما عدل به (يعني ان يكون صاحبه احب اليه من كل امر يوضع في مقابل ذلك المشهد) اتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يدعو على المشركين فقال لا نقول لك كما قال موسى (اذهب انت وربك فقاتلا ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك و بين يديك وخلفك فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم أشرق وجهه وسره يعني قوله) .

---

(١) : في الفتح ص ٨٨ ج ا (٢) : ج ٦ ص ٧٣

معالجة الموقف

عالج رسول الله صلى الله عليه وسلم الموقف معالجة حكيمة بارعة : كان في بعض نفوس أهل بدر شيء من التردد وكثير من الحذر وخوف من مواجهة العدو صوّرته الآيات الكريمة تصويراً بارزا للعيان .

اما الطريقة التي سلكها عليه صلوات الله وسلامه فهي نداء النفوس القوية الملتهبة ايمانا المتقدة حماسة لتأخذ بأيدي النفوس الحذرة المترددة .

كان في إقدام الرسول عليه الصلاة والسلام على مناجزة المشركين نوع من المغامرة ذلك أن المشركين متأهبون تأهبا تاما وهم يفوقون المسلمين في عددهم وسلاحهم وفرسانهم ولم يكن لدى المسلمين إلاّ فارسان وكيف يقف الراجل امام الفرسان في ميدان القتال ؟ وكان خروج المسلمين للقاء نيف وأربعين رجلا يحمون القافله فاذا هم يفاجئون بالدعوة لمقابلة ألف مقاتل من صناديد قريش وأبطالهم .

مغامرة في سبيل الله منظمة

هذه المفاجأة وحدها كافية لتثبيط عزائم كثيرين وإدخال الروع في قلوبهم وابلغ وصف ما جاء في كتاب الله قوله تعالى (كانما يساقون الى الموت وهم ينظرون) ولم يكن هؤلاء الذين داخلهم الروع بدعاً من الناس ولكن الذين يتشرفون بالرسالة لابد من أن يأتوا بما يشبه المعجزات ولقد كانت موقعة بدر محفوفة بالأمور الخارقة .

قلنا انه كان في عزم رسول الله عليه صلوات الله وسلامه على القتال نوع من المغامرة لأن منطق القتال لا يسمح بوقوف ثلاثمائة لم يخرجوا لقتال امام الف قد أعدوا العدة كاملة .

ولكنها مغامرة في سبيل الله وفي سبيل الدعوة قدر فيها جانب تدخل القدرة التي لا تعجزها قدرة وحسب فيها مقابلة الايمان للكفر وقد قال تباركت أسماؤه بهذا الشأن « وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » وهذه الآية الكريمة نزلت على أثر الغزوة ترفع معنوية المؤمنين وترشد الى حقيقة هامة وأروع ما في الآية وكل ما فيها رائع ، تعليلها ضعف المشركين أمام المؤمنين بأنهم قوم لا يفقهون .

إنها مغامرة وشجاعة واقدام.ورسول الله كان موقنا فيها بأن الله معه والغلبة له ولجنده وكان يعلم ان اسباب النصر الى جانبه : وحدة صف المؤمنين وتكسُّر وحدة المشركين وإقدام المؤمنين وتردد اولئك.

لقد تردد المؤمنون ترددا يسيرا ولكن قيادة الرسول عليه صلوات الله وسلامه انتهت بهم عاجلا الى كلمة حاسمة وعزيمة ماضية ، وانتهى المسلمون جميعا الى الارتباط برسول الله وامتثال أمره حتى كانوا جميعا يتحركون بأمره و يسكنون بأمره كانوا ثلا ثمائة رجل يميلون ميلة رجل واحد و ينصبُّون على العدو على قلب رجل واحد.

لقد ذهب الحذر وغشي المؤمنين غاشية من الأمنة والطمأنينة وكانت روحهم المعنوية عالية قوية بالغة اقصى درجات القوة وكان المشركون جماعات متخاذلة وقيادات متنازعة.

أيقن رسول الله ان الفئة القليلة هي الغالبة بإذن الله وعلم ان الثلا ثمائة الحفاة العراة الجياع اقوى بوحدتهم واجتماع كلمتهم من الألف المستكبرين المتخاذلين وقد علم ايضا بما علمه الله أن الله ناصره على إحدى الطائفتين وقد نجت العير واصبح المسلمون وجها لوجه أمام النفير والله جل شأنه منجز وعده وناصر عبده.

كان لابد من علاج موقف المترددين وجمع القلوب وشحنها جميعا بشحنة الايمان وشحنة الإقدام.وعرض عليه الصلاة والسلام الموضوع عرضا حياديا كما صورته رواية ابي ايوب الأنصاري روى الحافظ ابوبكر بن مردويه في تفسيره بإسناده عن ابي ايوب الأنصاري قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بالمدينة:اني اخبرت عن عير ابي سفيان بانها مقبلة فهل لكم أن نخرج قبل هذه العير لعل الله أن يغنمناها فقلنا نعم فخرج وخرجنا فلما سرنا يوما أو يومين قال لنا : ما ترون في قتال القوم إنهم قد اخبروا بخروجكم فقلنا لا والله ما لنا طاقة بقتال العدو ولكنا أردنا العير ثم قال ما ترون في قتال القوم فقلنا مثل ذلك.

وهذه المراجعة من رسول الله عليه صلوات الله تنبئ في الوقت نفسه عن خطته عليه صلوات الله إذ يستخرج ما في نفوس بعض القوم من تردد وحذر ليذهب بما يجدون من خوف من لقاء العدو.

كانت المراجعة وكان بين رسول الله و بين أصحابه ما وصفته الآيات الكريمة قال تعالى : « يجادلونك في الحق بعد ما تبين » لقد بلغ الأمر حد الجدال اذن.قال ابن كثير: قالوا أخرجتنا للعير ولم تعلمنا قتالا فنستعد له وقال الشوكاني : وقالوا : لو أخبرتنا بالقتال لأخذنا العدة وأكملنا الأهبة وذكرت الآيات الكريمة بأن جدالهم كان في أمر بيِّن لا شبهة فيه وانما يعذر المرء في ان يجادل في امر له فيه شبهة حق.أما ان يجادل في امر واضح وضح النهار فليس عليه في ذلك الا اللوم ولقد كان جدالهم في موضع القتال ومواجهة المشركين وسميت الآيات الكريمة الجدال في هذا الموضوع جدالا في الحق وهو حق لأن رسول صلى الله عليه وسلم أمر به وأي شيء اجدر بأن يسمى حقا من امر رسول الله المؤيد بوحي الله ونصره وقد اخبرهم عليه صلوات الله وسلامه بأن الله قد وعده إحدى الطائفتين وقد نجت الأولى فلم تبق الا الثانية فموضوع القتال الذي يجادلون فيه حق لأنه امر رسول الله وهو حق قد تبين واتضح لأن الوحي قد وعد فيه بالنصر.

ولقد نطق بهذا الحق في مقابلة ذلك الجدال أبو بكر ثم عمر ثم المقداد بن عمرو وكانت كلمة المقداد فيها شحنة الايمان وشحنة الاقدام وقد حفظتها الأجيال وسجلتها الصحف وقد رواها البخاري في صحيحه وفيها تلميح بذكر الذين يقعدون عن نصرة الأنبياء وكان فيها تقريع لليهود مستمد من كتاب الله وفيها تحذير للمؤمنين الذين جادلوا في الحق أن يكونوا امثالهم « إذ ن لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى اذهب انت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون » وهكذا كان لآيات الكتاب تأثيرها المرجو في نفس المقداد رضي الله عنه وكان فهمه للموقف فهما صحيحا دقيقا ولقد كانت كلمته التي ألقاها في قلوب الذين جادلوا من أصحاب رسول الله كلمة الإيقاظ والتنبيه فتحت عيونهم وشرحت صدورهم للحق و بصّرتهم بالموقف تبصرة حقيقية ونزعت ما في قلوبهم من خوف أملاه غفلتهم عن مكانتهم وأنهم اصحاب سيد رسل الله وصفوة عباد الله يبذلون دماءهم رخيصة في سبيل دعوة الله.

ترى ماذا كان موقف المجادلين بعد أن سمعوا آية الإنذار تلك الآية التي تشنع على بني اسرائيل موقفهم اقبح تشنيع (اذهب انت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون) انها صورة الذين جرهم الجبن الى الخلود الى الأرض واللصوق بكل درجات الذل والهوان ، فهل يرضى أصحاب رسول الله بمثلها ، وان كانوا يعدون للأمر عدته فالأمر الآن قد خرج من

أيديهم وأصبح بيد القدر وليس أمام الأصحاب إلا أمران إما الاقدام ومناجزة المشركين واما الرجوع وهو فرار من مقابلتهم وقد وعدهم الله احدى الطائفتين ففيم التردد اذن .
كان عليه الصلاة والسلام يقول(اشيروا علي ايها الناس) يعيدها مرة بعد مرة و يتكلم أبو بكر ثم عمر ثم المقداد وكل هذه الكلمات تملأ جو الجماعة اهل بدر شجاعة وايمانا واقداما وتذهب التردد وتقطع دابر الإحجام وكان لهذه الكلمات اثر كبير ولكن الجو ما يزال بحاجة الى شحنة اخيرة ينطلق بها سيد من الانصار لأن الذين سبقوا كلهم من المهاجرين .

و يقوم سيد الأنصار وهو يرى انه مدعو من قبل رسول الله عليه صلوات الله ليقول كلمة الحق ولينطق بالقول الفصل الذي يثبت القلوب في اماكنها و يشير سيد الأوس(سعد بن معاذ) الى قضية الايمان والى بيعة الموت والى العهود والمواثيق(آمنا بك وصدقناك واعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا فامض لما امرك الله) .

مؤتمر البدريين

انه لمؤتمر عظيم مؤتمر البدريين تحت قيادة رسول الله ذلك المؤتمر الذي انبثق عنه يوم الفرقان يلحظ فيه ما يلي :

١ ـــ عزيمة رسول الله عليه صلوات الله على المضي لقتال المشركين بعد ان نجت العير وجمع الله بينهم و بين عدوهم على غير ميعاد .

٢ ـــ تردد فريق من المؤمنين حين جبهوا بمفاجأة لم يعدوا لها عدتها ، و بتغير للموقف خطير ينقلب فيه الأمر من مواجهة عير يحميها(٤٣) رجلا الى مواجهة جيش فيه ألف مقاتل من صناديد الرجال .

٣ ـــ لم يكن هذا الفريق ليدرك ما ادرك القائد عليه صلوات الله وسلامه من قوة الايمان وضعف الباطل وأهله وتفرق صفوفهم وتخاذل افرادهم ، وكانوا جديرين بأن يمروا بتجربة كهذه التجربة وقد مروا بها ورأوا بأم اعينهم قوة الايمان ومعونة الله .

٤ ـــ كان في الجماعة فريقان فريق يتبعون رسول الله ولو سار بهم في لجج الموت وفريق مترددون قليلا وكانت حكمة القائد عليه صلوات الله في تغليب الجانب الأول على الجانب الثاني وتصحيح موقف الجانب الثاني .

٥ ـــ وقد تم ذلك كله بكلمة واحدة كان يرددها عليه الصلاة والسلام(اشيروا علي ايها الناس) وهي تنطوى على ما يريد ايجاد جو تغلب فيه روح الايمان و يشيع في جنباته عبير الإقدام ، ولقد تم له ما يريد عليه صلوات الله وسلامه بمنتهى الأناة والحكمة فكانت كلمة(اشيروا) تنقل المسلمين في كل مرة درجة بعد درجة . تكلم ابو بكر فكانت النقلة الأولى والثانية عند كلمة عمر والثالثة عند كلمة المقداد والرابعة خاتم المطاف انتهت الى الذروة في رد الذين جادلوا الى جو الجماعة .

٦ ـــ لقد كان مؤتمرا من نوع المؤتمرات التي تقرر المصير والتي يقف فيها المؤتمرون على مفترق الطريق ، ولو كانت الغلبة للذين جادلوا لتعثرت الدعوة ايما تعثر وربما كان مع الذين جادلوا نصيب كبير من الحق كيف يقاتلون على غير استعداد وأهبة تامة ؟ ولو كانت الغلبة على العير لما كان ذاك اليوم يوم الفرقان الذي فرق الله فيه بين الحق والباطل فأعلى كلمة الحق ومحق كلمة الباطل .

٧ ـــ جدير بالمسلمين أن يتعظوا بمثل هذا المؤتمر وأن لا يدركهم الخور في الساعات الحاسمة وكم من مواقف في أيامنا هذه يسيطر الجبن فيها على المؤمنين فيتغلب أعداء الله . . .

٨ ـــ ولكن السبيل التي نهجها رسول الله عليه صلوات الله كانت سبيلا رائعة .

كان عليه صلوات الله بجلاله وهدوئه وأناته واهتمامه وتفكيره الجدي العميق لا يزيد على كلمة « اشيروا علي أيها الناس » يدفع فيها رؤوس أصحابه ليقروا القلوب في مواضعها .

وكان جدال الذين جادلوا موجهاً الى رسول الله ولم يكن جدالا بين الاصحاب أنفسهم ومعنى ذلك ان الزمام كله بيده عليه صلوات الله وحين يدع أفراد الجماعة القائد و يتنازعون فيما بينهم فذلك ضعف تربية روح الجماعة وضعف الارتباط بالقيادة . كان الزمام بيد رسول الله عليه صلوات الله وسلامه كله ولم يجب عن جدل الذين جادلوا بشيء ولكنه اغضى عنه عليه صلوات الله واغضاءته هذه ذات معاني : إن الاجابة على الجدل والأخذ والرد في موضوعه تزيده قوة وتثبيتا تزيد معناه رسوخا في القلوب وتكسب قضيته تأييداً

ولكن إجابة هؤلاء تولاها أفراد آخرون في الجماعة لهم ميزاتهم في الرئاسة والشجاعة وكانت اجابة هؤلاء منطلقة من دعوة رسول الله باسم الشورى وكانت الاجابة مؤيدة بحجج دافعة لا تدع مكاناً لقول قائد وكانت اجابة حاسمة موجهة الى الافراد جميعا وهكذا سكنت ألسنة الذين جادلوا عن رضى واقتناع وتفتحت قلوبهم للحق فاذعنوا له وساروا حين اعطى القائد أمره الأخير ملخصا كل ما تم في المؤتمر بكلمة واحدة « سيروا وابشروا » والله لكأني أنظر الى مصارع القوم .

عالج الموقف عليه الصلاة والسلام في الميدان معالجة رحيمة حكيمة ناجحة وساق المؤمنين جميعا وقلوبهم موحدة الى جنة عرضها السموات والأرض ، وسار المؤمنون الى ميدان القتال وقد انتهى الجدال وختم النزاع وكلهم يطلب الموت كما تطلب الحياة وكان يظن ان المسألة قد انتهت في ميدان القتال .

ولكن الآيات الكريمة تتنزل على أثر القتال بدروسها وعظاتها تصور الموقف بكلمات تصويرا حيا ناطقا« وان فريقا من المؤمنين لكارهون يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون » .

وتسجل الايات الكريمة الموقف كله آتية على خلجات القلوب ودخائل النفوس ليظل كل هذا عبرة للمؤمنين حتى يقوم الناس لرب العالمين لقد كان اصحاب رسول الله نماذج حملة الدعوة والأمثلة الرفيعة للجهاد في سبيل الرسالة وكان جديرا بمواقفهم أن تظل خالدة يعيد النظرَ فيها المؤمنون و يتعظون بها و يقتدون .

كانت الآيات الكريمة درسا للأصحاب انفسهم بعد الدرس العملي تشرح خطواته وتبين منحنياته وتلقي الأضواء على زواياه ومتعرجاته وتوضح النقاط الهامة التي تظل نبراساً للأصحاب ولمن جاء من بعدهم ما دامت السماوات والأرض .

وحدة صف المؤمنين بعد المؤتمر

كانت الكلمة التي ختم بها رسول الله عليه صلوات الله المؤتمر الذى سبق بدرا . « سيروا وابشروا والله لكأني انظر الى مصارع القوم » فسار الأصحاب ممتثلين امر رسول الله قد ذهب عنهم ما ألم ببعضهم من تردد يسير حين علموا أن رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم المسير الى الأعداء فساروا وقلوبهم مجتمعة وعزائمهم ماضية .

اما المشركون فقد كانوا فرقا شتى مختلفة الآراء متنازعة الأهواء أما أبو سفيان فقد أرسل الى قريش إنكم خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم وقد نجاها الله فارجعوا وليس من شك أنه كان لهذا القول أثر كبير في نفوس كثيرين وكان أبو جهل معارضا في الرجوع وقد قال : والله لا نرجع ابدا حتى نرد بدرا فنقيم عليه ثلاثا فننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان(الجواري) وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها فامضوا .

واما الأخنس بن شريق وكان حليفا لبني زهرة فقد قال لهم : يابني زهرة قد نجى الله اموالكم وخلص لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل ، وانما نفرتم لتمنعوه وماله فاجعلوا لي جبنها وارجعوا فانه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير ضيعة لا ما يقول هذا يعني ابا جهل فرجعوا فلم يشهدها زهري واحد ، أطاعوه وكان فيهم مطاعا .

وأما عتبة بن ربيعة فكان رأيه الرجوع وقد رآه رسول الله عليه صلوات الله في القوم على جمل له أحمر فقال ان يكن في احد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر إن يطيعوه يرشدوا وذكر ابن اسحاق أنه قام خطيباً فقال : يامعشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئا والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر اليه قتل ابن عمه او ابن خاله او رجلا من عشيرته فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب فان أصابوه فذاك الذي اردتم وان كان غير ذلك الفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون وأرسل بذلك حكيم بن حزام الى ابي جهل فأخبره فقال والله ما بعتبة ما قال ولكنه رأى ان محمدا واصحابه أكلة جزور وفيهم ابنه فتخوفكم عليه ثم افسد على الناس رأى عتبة وبعث الى عامر الحضرمي فقال هذا حليفك يريد الرجوع بالناس وقد رأيت ثأرك بعينك فقم فانشد مقتل اخيك فقام عامر فصرخ وا عمراه فحميت الحرب وتعبّوا للقتال والشيطان معهم لا يفارقهم .

وكان الذي حمل عتبة على ما فعل حكيم بن حزام يقول ابن اسحاق لما اطمأن القوم(يعني المشركين) ، بعثوا عمير بن وهب الجمحي فقالوا احزروا لنا اصحاب محمد ، فاستجال بفرسه حول المعسكر ثم رجع اليهم فقال ثلاثمائة رجل يزيدون قليلا أو ينقصون ولكن أمهلوني حتي أنظر أللقوم كمين أو مدد ؟ قال فضرب في الوادي حتى أبعد فلم ير

شيئا فرجع اليهم فقال ما وجدت شيئا ولكني قد رأيت يامعشر قريش البلايا (١) تحمل المنايا نواضح يثرب (٢) تحمل الموت الناقع قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم فإذا أصابوا منكم أعدادهم ، فما خير العيش بعد ذلك ؟ فروا رأيكم . فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في الناس فأتى عتبة ابن ربيعة فقال ياابا الوليد إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير الى آخر الدهر: قال وما ذاك ياحكيم ؟ قال ترجع بالناس وتحمل امر حليفك عمرو بن الحضرمي قال قد فعلت ، أنت علي بذلك إنما هو حليفي فعلي عقله وما أصيب من ماله فائت ابن الحنظلية (يعني ابا جهل) .

هكذا كان جيش المشركين.أبو جهل يريد المضي الى بدر ليتسامع بقريش الناس فلا يزالون يهابونهم و يقسم لرسول عتبة : كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا و بين محمد ، اما ابو سفيان فيشير على الناس بالرجوع بعد ان سلم الله عيرهم ، واما الأخنس فقد رجع بالفعل مع بني زهرة وكان فيهم مطاعا ، واما حكيم فيدعو عتبة الى دعوة الناس للرجوع و يعتبر ذلك خيرا يذكر به عتبة الى آخر الدهر ، واما عتبة فيخطب الناس و يقول « فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب » .

هذا شأن قريش في نزاعهم واختلافهم ولقد كان مجتمعهم يمثل المجتمع الجاهلي بأتم صفاته:خلاف في الرأي وانقسام بين الزعماء يطعن بعضهم في بعض و يسخر بعضهم من بعض وأي انقسام في الجيش أكبر من عزم بعض زعمائه على القتال مهما كان الأمر ودعوة بعض الزعماء الآخرين الى الرجوع عن القتال ، وقد كان ابو جهل يمثل زعامة الثورة العنيفة فهو يتهم المهادنين المسالمين بالجبن والخور وكانت تهمته هذه دافعة لعتبة ليكون مع ابنه واخيه أو السابقين الى ميدان القتال لدفع التهمة ومقابلة التحدي وكل ذلك يؤدي إلى موت عتبة واخيه شيبة وابنه الوليد على الشرك بيد علي وحمزة وعبيدة بن الحارث .

هكذا كان شأن المشركين أما اصحاب رسول الله عليه صلوات الله فقد كانوا بنفوس عالية وقلوب صادقة مجتمعة على قائدها يبتغون وجه الله ورضاءه كانوا لا يتحركون الا

(١) : البلية : الناقة او الدابة تربط على قبر الميت ، فلا تعلف ولا تسقى حتى تموت .

(٢) : النواضح : الابل التي يستقى عليها الماء .

بأمر رسول الله ولا يحملون الا بأمره فإذا حملوا حملوا حملة رجل واحد قال ابن اسحاق : ثم تزاحف الناس ودنا بعضهم من بعض وقد امر رسول الله عليه الصلاة والسلام أصحابه ألاّ يحملوا حتى يأمرهم وقال : إن اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل(ارموهم) .

روحهم المعنوية عالية

وكانت الروح المعنوية للمؤمنين عالية : قال ابن اسحاق ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الناس فحرضهم وقال : والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر الا ادخله الله الجنة فقال عمير بن الحمام وفي يده تمرات يأكلهن : بخ بخ افما بيني و بين ان ادخل الجنة الا ان يقتلني هؤلاء ثم قذف التمرات من يده واخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل .

وهذا الحديث رواه مسلم (1) عن انس بن مالك قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بسيسة عيناً ينظر ما صنعت عير ابي سفيان فجاء وما في البيت احد غيري وغير رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فحدثه الحديث قال فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فتكلم فقال« ان لنا طلبة فمن كان ظهره حاضرا فليركب معنا » فجعل رجال يستأذنونه في ظهرانهم في علو المدينة فقال لا إلاّ من كان ظهره حاضرا فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه حتى سبقوا المشركين الى بدر وجاء المشركون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يقدّمن احد منكم الى شيء حتى اكون انا دونه » فدنا المشركون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قوموا الى جنة عرضها السماوات والأرض » قال يقول عمير بن الحمام الأنصاري يارسول الله جنة عرضها السماوات والأرض ؟ قال نعم قال بخ بخ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يحملك على قولك بخ بخ قال « والله يارسول الله إلاّ رجاءة ان اكون من اهلها قال فانك من اهلها فأخرج تمرات من قرنه (جعبة النشاب) فجعل يأكل منهن ثم قال لئن انا حييت حتى آكل تمراتي هذه انها لحياة طويلة قال فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل » .

وهكذا يبين هذا الحديث بأنه لئن كان في اهل بدر اناس قالوا في اول الأمر لا طاقة لنا بقتال القوم فقد انتهى الأمر بهم بعد معالجة رسول الله عليه صلوات الله وسلامه

(1) : كتاب الامارة الحديث ١٤٥ ج ٣ .

للموضوع أن قال قائلهم « لئن حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة » فهو لم يعد يطيق صبراً عن الجنة حتى يتم تمراته التى بيده . لست استبعد أبداً أن يكون قد انقلب اناس من اهل بدر بعد المؤتمر الذي تم و بعد أن رأوا ما رأوا من صدق محمد عليه الصلاة والسلام في لهجته واقدامه في عزيمته لست استبعد ان يكون قد انقلب فريق من الذين قالوا لا طاقة لنا بقتال القوم الى الحال التي كان عليها عمير رضي الله عنه وهو لا يطيق احتمال الحياة شوقا الى الجنة وان كنت لا أنكر أن النفوس لا تتساوى ولكن الجو الذي شاع والروح التي عبقت في أرجاء الجماعة بفعل رسول الله عليه صلوات الله روح الشوق الى مرضاة الله والى جنته والى الاستبسال في سبيله .

روى البخاري وغيره عن عبد الرحمن بن عوف (١) قال اني لفي الصف يوم بدر إذ التفت فاذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن اذ قال لي احدهما سرا من صاحبه ياعم أرني ابا جهل فقلت:يا بن اخي وما تصنع به قال:عاهدت الله إن رأيته أن اقتله أو الموت دونه فقال لي الآخر سرا مثل صاحبه فما سرني اني بين رجلين مكانهما فأشرت لهما إليه فانقضا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه وهما ابنا عفراء معاذ ومعوّذ .

وفي الصحيحين من حديث عبد الرحمن بن عوف أنه قتله معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء وان النبي صلى الله عليه وسلم نظر في سيفيهما وقال كلاكما قتله وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح .

وجمع الحافظ ابن حجر بين الروايتين باحتمال أن معاذ بن عفراء شد عليه مع معاذ بن عمرو وضربه بعد ذلك معوذ بن عفراء حتى اثبته ثم حزّ رأسه ابن مسعود فتجتمع الأقوال كلها وقد سبق ابن حجر الى هذا القول فقال اشترك الثلاثة في قتله لكن ابن الجموح أثخنه فاستحق السلب وانما قال كلاكما قتله تطييبا لقلب الآخر.

ومما يستأنس به في تأييد رأي النووي وابن حجر أن ابا جهل كان الرجال يحيطون به حتى كأنه في مثل الحرجة (١) فلا يمكن في مثل هذه الحال أن يصل اليه واحد او اثنان .

---

(١) : شرح المواهب ج ١ ص ٤٢٨ .

(١) : هي الشجر الملتف لا يوصل اليه .

وقد روى ابن اسحاق (٢) ومن طريقه الحاكم عن ابن عباس قال قال معاذ بن عمرو بن الجموح أخو بني سلمة سمعتهم يقولون وابو جهل في مثل الحرجة ابو جهل لا يخلص اليه فجعلته من شأني فصمدت نحوه فلما أمكنني حملت عليه فضربته ضربة أطنت قدمه (٣) بنصف ساقه قال فوالله ما شبهتها حين طاحت الا بالنواة تطيح (٤) من تحت مرضخة النوى (٥) حين يضرب بها قال:وضربني ابنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي فتعلقت بجلدة من جنبي واجهضني (٦) القتال عنه فلقد قاتلت عامة يومي ، واني لأسحبها خلفي فلما آذتني وضعت عليها قدمي ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها قال ابن اسحاق ثم عاش معاذ بعد ذلك حتى كان زمان عثمان .

يقول ابن اسحاق ثم مر بأبي جهل وهو عقيرٌ معوذ بن عفراء فضربه حتى أثبته فتركه و به رمق ، وقاتل معوذ حتى قتل .

ومعاذ ومعوذ ابنا عفراء وهي بنت عبيد بن ثعلبه من بني مالك بن النجار يقول بشأنها ابن حجر في الاصابة في المبايعات وعفراء هذه لها خصيصة لا توجد لغيرها وهي أنها تزوجت بعد الحارث البكير فولدت له أربعة:اياسا وعاقلا وخالدا وعامرا وكلهم شهدوا بدرا وكذلك اخوتهم لأمهم بنو الحارث معاذ ومعوذ وعوف فانتظم من هذا انها امرأة صحابية لها سبعة اولاد شهدوا كلهم بدرا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد مر بنا أن معوذا استشهد في بدر وكذلك عوف .

قال ابن اسحاق حدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن عوف بن الحارث وهو ابن عفراء قال يارسول الله ما يضحك الرب من عبده ؟ قال غمسه يده في العدو حاسرا فنزع درعا كانت عليه فقذفها ثم اخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل .

قال تعالى : « واذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم وتودون ان غير ذات الشوكة تكون لكم و يريد الله ان يحق الحق بكلماته و يقطع دابر الكافرين ، ليحق الحق و يبطل الباطل ولو كره المجرمون » .

---

(٢) : السيرة النبوية ج ١ ص ٦٣٤ .

(٣) : اطارتها .

(٤) : تذهب .

(٥) : التي يدق بها النوى للعلف .

(٦) : اشتد علي .

كـان الـعـتاب الأول للمؤمنين في سؤالهم عن الأنفال وكان العتاب الثاني في تردد بـعـض الأصـحاب ، حين دعوا الى قتال جيش لم يخرجوا للقائه ، ولم يعدوا عدة لمناجزته ، وكانت صورة العتاب ههنا لا تزيد على وصف ما تم في نفوسهم قال تعالى « وانّ فريقا من المؤمـنين لـكـارهـون » وهـذه الـكـراهـية أمر يستحق العتاب ، وان يذكر على سبيل الـتـأنيب . ووجه العتاب فيه أنهم كرهوا امرا وصفته الآيات الكريمة بوصفين جدير بكل منهـا وحـده أن يـدفـع الـمؤمـن الـى الإقـدام على الأمر الذي كره وهو منشرح الصدر باسم الـشغر: أولهما ان الإخراج كان من قبل الله جل شأنه فلم يكن خروج محمد عليه صلوات الله وسـلامـه لـغـرض فـي نـفسه ولكنه كان امرا يريده الله و يرضاه لما سيكون وراءه من اعـلاء كـلـمـة الله وإحـقـاق الحـق وإبـطال الباطل ، وجاء التعبير عن لفظة الجلالة بصفة الربوبية التي تتضمن غاية العناية واقصى درجات الرعاية واضيف لفظ رب الى محمد عـلـيـه الـصـلاة والـسـلام ليفيد ان الذي اخرجه عليه صلوات الله وسلامه ربه الذي يدبر امـوره ويحـيـطه بلطفه ويحفه بعنايته و يكلؤه و يرعاه ويهدي قلبه و يتولى تدبير اموره . الأمر الأول أن ربـه قـد اخرجه عليه صلوات الله وسلامه والأمر الثاني ان إخراجه لم يكن خطأ ولا ضلالا ولكنه اخراج قد خالط الحق جوانبه وامتزج بكل اجزائه .

وهـكذا وصف فريق من المؤمنين بأنهم كرهوا الخروج الذي امر الله به والذي أُشرب بـالحـق وتـلـبّس به وليس من شك في ان نخوة الايمان تكاد تذيب قلب المؤمن الذي وقعت مـنـه الـكـراهـيـة ، ولا تقتصر الآية الكريمة على ذكر الكراهية ، ولكنها تضيف الى ذلك الجـدال وهـو جـدال فـي موضوع وصفته الآيات الكريمة بأنه حق لأنه امر رسول الله ولأنه حق قـد تـبين ومـا كـان لـلـمؤمنين أن يجادلوا في الحق بعد ما تبين ولكن الآيات الكريمة تفصح عن الدافع الى كراهية الخروج والى الجدال في موضوعه أنه الخوف من الموت .

وهـل لقاء العدو وقتاله الا السّوق إلى الموت ولكن الآية الكريمة بتعريضها وتلميحها تـشنع على الذين يمشون لقتال الأعداء وهم كأنما يساقون الى الموت وتطلب من المؤمن ان يمشي الى الموت بخطا ثابتة وجأش رابط كأنما يسير الى لقيا أحبته .

ولم يـقـتـصر الـعـتاب على كل ما سبق ولكن هنالك الى جانب كل هذا نقطة جديرة بـالـتـأمـل هـي ضعف همة هذا الانسان وقصور غايته اذا ترك لنفسه : لقد كان فريق من

الأصحاب يريد العير ويجادل من اجل ذلك ولكن الله جل شأنه جمع بينهم و بين صناديد قريش على غير ميعاد واراد جل شأنه ان يواجهوا رؤوس الكفر وفراعنة الشرك ليخضدوا شوكتهم و يكسروا شرتهم ، واراد جل شأنه ان تنتصر الفئة القليلة التي تحمل دعوة الله علي الفئة الكثيرة التي تصد عن سبيل الله وتقف في وجه دعوته لينتصر الحق وترتفع رايته ، وليحق الله الحق بكلماته وكلمات الله امره وقضاؤه .

قال صاحب فتح البيان:المراد بالكلمات الآيات التيأنزلها في محاربة ذات الشوكة ووعده جل جلاله بالظفر على ذات الشوكة وقيل الكلمات عداته التي سبق بأنه جل شأنه مظهر دينه ناصر جنده وهكذا قال ابن الجوزي بكلماته اي بعداته التي سبقت من اعزاز الدين كقوله ليظهره على الدين كله .

يقول سيد قطب عليه رحمة الله :

« لقد اراد الله وله الفضل والمنة ان تكون ملحمة لا غنيمة ، وان تكون موقعة بين الحق والباطل » .

الى ان يقول : « فاين ما ارادته العصبة المسلمة لنفسها مما اراده الله ؟ . لقد كانت تمضي ـ لو كانت لهم غير ذات الشوكة ـ قصة غنيمة ، قصة قوم أغاروا على قافلة فغنموها فأما بدر فقد مضت في التاريخ كله قصة عقيدة قصة نصر حاسم وفرقان بين الحق والباطل قصة انتصار القلوب حين تتصل بالله بل قصة انتصار حفنة من القلوب من بينها الكارهون للقتال ولكنها انتصرت على نفسها وخاضت المعركة والكفة راجحة رجحانا ظاهرا في جانب الباطل فقلبت بيقينها ميزان الظاهر فاذا الحق راجح غالب .
أهـ .

أراد فريق من المسلمين أمرا وأراد الله أمرا آخر وأين ما أراده الله مما أرادوه.أراد جل شأنه تثبيت المؤمنين وإرهاب المشركين وان تتم المعجزة وتنتصر القلة على الكثرة تمهيدا لنصر دينه واعلاء كلمته كل هذه المعاني عوتب بها فريق المؤمنين عتابا اليما ممتزجا بالحجة البينة والأدلة القاطعة ، وسجلت هذه المعاني في كتاب الله لتظل عظة للمؤمنين أبدَ الآبدين .

قال تعالى : « ويريد الله ان يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون » .

قال ابن جرير : (و يريد الله أن يحق الإسلام و يعليه بكلماته أي بأمره اياكم أيها المؤمنون بقتال الكفار وأنتم تريدون الغنيمة والمال وقوله تعالى و يقطع دابر الكافرين أي يريد أن يجتث أصل الجاحدين توحيد الله والدابر المتأخر وقطعه الإتيان على الجميع منهم) .

و يقول أيضا : (و يريد الله أن يقطع دابر الكافرين كما يحق الحق كما يعبد الله وحده و يعز الاسلام وذلك هو تحقيق الحق و يبطل الباطل أي يبطل عبادة الآلهة والأوثان والكفر ولو كره الذين أجرموا وهم الكفار فاكتسبوا المآثم والأوزار) .

و يقول رشيد رضا : (الحق الأول هو القتال لطائفة النفير مع ضمان النصر للمؤمنين ومحق الكافرين والحق الثاني هو الاسلام وهو المقصد والأول وسيلة له) يقول رشيد رضا : (وهذا اظهر مما قاله الزمخشري) وخلاصة ما قاله الزمخشري ما يلي : .(ليس في هذه الجملة تكرير لما قبلها لأن الأولى لبيان التفاوت فيما بين الارادتين إرادة الله جل شأنه وإرادة المسلمين والثانية لبيان الحكمة الداعية الى ذلك والعلة المقتضية له والمصلحة المترتبة عليه) .

ولزيادة ايضاح ما سبق نقول الحق الأول هو الحق الذي يختصم فيه المؤمنون والمشركون فالمؤمنون يرون انهم هم اصحاب الحق واتباعه والمشركون يزعمون انهم ذوو الحق وانصاره وقد ورد ان ابا جهل قال يوم بدر اللهم اينا كان اقطع للرحم وآتانا بما لايعرف فأحنه الغداة وقال السدي كان المشركون حين خرجوا من مكة الى بدر اخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا اللهم انصر أعلى الجندين واكرم الفئتين وخير القبيلتين . وقد اراد جل جلاله بأمر المؤمنين بالقتال ولقاء النفير أن ينصر الفئة المستضعفة فيعلم كلا الفريقين أن الله مع المؤمنين ونصر الحق في هذه الموقعة تمهيد للنصر الأكبر والفتح المبين فالحق في الأولى مايختصم فيه المؤمنون والمشركون وإظهاره بغلبة المؤمنين في هذه الدائرة الضيقة والحق في الثانية إظهار الحق في الدنيا بأسرها (ليظهره على الدين كله) بغلبة المؤمنين على المشركين كافة ، وقطع دابر مشركي مكة وسيلة ممهدة للثانية ولابد أن تتم . و يعض المجرمون الأنامل من الغيظ .

و يلحظ في الآيات الكريمة امران :

اولهما لفت نظر المؤمنين في كل عصر وفي كل حين ان مايريده الله جل شأنه هو غير

مـاتـر يـده نـفـوسـهـم الضعيفة ورغباتهم الرخيصة يريد الله من المؤمنين ان يتقدموا فى كل حين الـى مـيـاديـن القتال و يتقدموا بأبنائهم واموالهم ومهجهم ليحموا هذا الحق وليعلوا رايـتـه والـمـؤمـنـون إذا غـفلوا عن معاني الايمان وانحطوا عن معاني القرآن ومتطلباته الرفيعة أخـلـدوا الـى الارض وحـرصـوا عـلى الحياة وآثروا متعها وإذا وقع ذلك كان للباطل دولته وصولته .

وهـكـذا قـارنـت الآيـة الـكـريمة بين إرادتين بـأوجـز عـبـارة وابلغ أداء قال تعالى : « وتودون ان غير ذات الشوكة تكون لكم و يريد الله ان يحق الحق بكلماته » وقد انطوت هـذه الجـمـلـه الـكريمة على التعريض برغبة فريق من المؤمنين وطبيعة هذا الانسان بنهمه الى العاجلة وتطلعاً الى سفاسف الأمور وعزوفه عما يرزؤه في بدنه وماله يقول الزمخشري : (والله يـريـد لـلـمؤمنين معالي الأمور وما يرجع الى عمارة الدين ونصرة الحق وعلو الكلمة والـفـوز في الدارين وشتان بين المرادين ولذلك اختار لأصحاب بدر الطائفة ذات الشوكة وكسر قوة المشركين يضعف المؤمنين وغلب كثرتهم بقلتهم وأعز المؤمنين وأذلهم .

والمـلاحـظـة الـثـانية سمت الآية الكريمة المشركين بالمجرمين وفيها إشارة الى صدودهم عن الحق بأنفسهم وصدهم الناس عنه ومحاربة الحق بكل ما أوتوا من مكر وقوة ، تشير الآية الكريمة الى إجرامهم بفتنتهم المؤمنين ومكرهم بالليل والنهار ليصدوا عن سبيله .

ومـا اشـبـه الـلـيلة بالبارحة ولعل مجرمي اليوم اشد مكرا واشد دهاء من مجرمي الأمس لـقـد بـلـغ مـكـرهـم اليوم ذروته و بلغ بالمسلمين قعودهم وغباؤهم إلى أبعد دركة ، تخاذل المؤمنون اليوم عن حماية الحق ونصرته وعادت الوثنيات أشد ماتكون شرة وفتكا .

قـال تـعـالى : في شأن دعاة الوثنية « فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين » أي ماضين فيما يكره الله وهم اشد مايكونون تمردا وعتّواً .

وقـال تـعـالـى : « فـإن كـذبـوك فـقـل ربـكـم ذو رحمة واسعة ولايرد بأسه عن القوم المجرمين » .

وقال تعالى : « وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلاّ بأنفسهم وما يشعرن »

ولـقـد شـهـد الـتاريخ اليوم من مكر اعداء الله بالمسلمين في انحاء الدنيا ما تشيب له

ناصية الصبي وما يشدهُ عقل الحليم وماالمسؤول عما يقع في المسلمين الا المسلمون انفسهم حين فاتهم إدراك معاني كتابهم .

قال تعالى : « اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم اني ممدكم بألف من الملائكة مردفين » .

روى احمد ومسلم وابو داود والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم وغيرهم (وهذا اللفظ لمسلم) عن عبد الله بن عباس يقول : حدثني عمر بن الخطاب قال لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلا ثمائة وتسعة عشر رجلا فاستقبل نبي الله القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه (١) : « اللهم انجز لي ماوعدتني اللهم ات ما وعدتني اللهم ان تهلك هذه العصابة من اهل الاسلام لا تعبد في الأرض » فما زال يهتف بربه مادا يديه مستقبل القبله حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذرداءهفألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال يانبي الله كذاك مناشدتك ربك . (٢)

وروى البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال (قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر اللهم اني انشدك عهدك ووعدك اللهم ان شئت لم تعبد فأخذ ابو بكر بيده فقال حسبك فخرج وهو يقول « سيهزم الجمع و يولون الدبر »)

يقول السيد رشيد رضا وروى سعيد بن منصور من طريق عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال : (لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المشركين وتكاثرهم والى المسلمين فاستقلهم فركع ركعتين وقام ابو بكر عن يمينه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في صلاته : اللهم لا تودع مني (٣) اللهم لا تخذلني اللهم لا تترني (٤) اللهم

---

(١) : يصيح و يستغيث بالله بالدعاء

(٢) : قال ابن حجر في الفتح وقوله في روايه مسلم « كذاك » وهو بالذال المعجمة وهو بمعنى كفاك قال قاسم بن ثابت : « كذاك » يراد بها الاغراء والأمر بالكف عن الفعل .

قاسم بن ثابت السرقسطي المحدث المالكي رحل مع ابيه الى مصر والحرمين وجمع الحديث ولد سنة ٢٥٥ وتوفي سنة ٣٠٢ صنف الدلائل في شرح غريب الحديث .

(٣) : في اللسان ودعت فلانا اى هجرته ، وقوله تعالى ماودعك قالوا ماتركك ، وفي الحديث اذا لم ينكر الناس المنكر فقد تودع منهم اسلموا الى مااستحقوه من النكير عليهم وتركوا وما استحبوه من المعاصي حتي يكثروا منها فيستوجبوا العقوبة .

(٤) : هو من وتره يتره من باب وعد ومعناه مسه بالأذى ومن معانيه نقصه حقه وظلمه قال تعالى ولن يتركم أعمالكم .

انشدك ماوعدتني) .

وروى ابن اسحاق في سيرته انه صلى الله عليه وسلم قال « اللهم هذه قريش أتت بخيلها وفخرها تحادك وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذى وعدتني » .

قال ابن حجر قال الخطابي : لايجوز أن يتوهم أحد أن ابا بكر كان أوثق بربه من النبي صلي الله عليه وسلم في تلك الحال بل الحامل للنبي صلى الله عليه وسلم على ذلك شفقته على أصحابه وتقويةقلوبهم لأنه كان اول مشهد شهده فبالغ في التوجه والدعاء ليسكن نفوسهم عند ذلك لأنهم كانوا يعلمون أن وسيلته مستجابة فلما قال له أبو بكر ماقال كف عن ذلك وعلم أنه استجيب له لما وجد أبا بكر في ثقة من القوة والطمأنينة فلهذا عقب بقوله (سيهزم الجمع) انتهى ملخصا .

يقول ابن حجر وقال غيره: وكان النبي صلى الله عليه وسلم في تلك الحالة في مقام الخوف وهو أكمل حالات الصلاة وجاز عنده أن لايقع النصر يومئذ لأن وعده بالنصر لم يكن معينا لتلك الواقعة وانما كان مجملا .

والذي يبدو ان السؤال من أصله غير وارد وقد صور الاشكال السيد رشيد رضا فيما يلي :

وقد استشكل ماظهر من خوف النبي صلى الله عليه وسلم مع وعد الله له بالنصر وعدا عاماً ووعداً خاصا ومن طمأنينة أبي بكر رضي الله عنه على خلاف ما كان ليلة الغار اذ كان النبي صلى الله عليه وسلم آمنا مطمئنا متوكلا على ربه وكان أبو بكر خائفا وجلا كما يدل عليه قوله عز وجل « اذ يقول لصاحبه لاتحزن ان الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وايده بجنود لم تروها »

اقول والذي يبدو انه لا إشكال لمَقَامُ الدعاء واللجوء في ساعة الشدائد هو المقام الطبيعي ولقد أخبرتنا آيات الكتاب أن الكفرة الجاحدين اذا وقعوا في ساعات الشدة الملجئة توجهوا بقلوبهم الى من بيده ملكوت السماوات والأرض .

قال تعالى : « واذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين »

اذا كان هذا حال الجاحدين في الشدائد فما يكون حال سيد المقربين وأفضل المرسلين ؟

وهل ينافي الدعاء الطمأنينة وهل ينافي الخوف السكينة ولقد رأينا من قبل ان الذين توجل قلوبهم لذكر الله هم الذين تطمئن قلوبهم لذكر الله ورسول الله اتقى الناس واخوفهم لله وهو أرجاهم لله وأعظمهم ثقة بما عنده .

لقد كان رسول الله عليه صلوات الله وسلامه في خوف على أصحابه وإشفاق على أمته وحزن على الناس جميعا يوضح هذا قوله تعالى « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » ، ولقد كان بعض أصحابه رضوان الله عليهم قبل هذا الموقف بساعات يجادلون رسوله وكانوا كارهين منازلة المشركين وكانوا كأنما يساقون إلى الموت وهو ينظرون .

ولم يكن ابو بكر رضي الله عنه يحمل من الفكر مثل مايحمل رسول الله عليه صلوات الله وسلامه ولكن قلب ابي بكر كان مستغرقا بما يشاهد من خوف رسول الله واشفاقه وكان ممتلئا حبا وتعظيما لرسول الله وخوفاً واشفاقا عليه وهو يرى بعد منزلته من منزلته إذ القلب الكبير الذي حمل مسئولية أصحابه وأمته والدنيا بأسرها لابد وأن تصيبه هزة في الساعة الحاسمة لا يسكنها الا الجؤار الى الله والهتاف بربه جل شأنه والتضرع اليه .

كانت الساعة من أشد الساعات هولا ، وكانت المعركة معركة موت أو حياة فإما أن ترفع راية الايمان فتظل مرفوعة أو يغلب الباطل لا سمح الله ومن العسير جداً بعد ذلك أن تستعيد الفئة المؤمنة ثقتها وتستجمع أمرها حين تصاب بثلمة في بداية انطلاقتها ، لقد كانت ساعة فاصلة وقد سمى القرآن الكريم ذلك اليوم يوم الفرقان فهل يكون عجباً أن يخشع قلب النبي عليه الصلاة والسلام في تلك الساعة الرهيبة و يوجل فؤاده و يعظم همه فيفزع إلى علاّم الغيوب و يلجأ الى مفرج الكروب ؟

إن النفوس الكبيرة التي أرهف إحساسها وعظم إشفاقها تحمل من الهم والفكر مالا يحمله الناس و بذلك تفجر من طاقاتها وطاقات من حولها من الناس مايزلزل البحار و يدك الجبال .

لقد كان صلاح الدين كالنائحة الثكلى فقدت وحيدها لايقر ولايستقر ولايهدأ له بال ، لايستسيغ طعاما ولا شرابا ولايهنأ له نوم ولا يسعه مضجع.ترى أكان يطرد اعداء الله من بيت المقدس لو كان كسائر الناس يستمرئ الطعام والشراب و يتمتع بملذات الدنيا ؟

وان الله تبـاركت أسماؤه يحب من عبده أن يزداد فقره اليه و يعظم اضطراره وتنقطع حباله كيلا يجد سبيلا إلا اللجوء اليه ففي تلك الحال تزداد عبوديته وترفع إنسانيته .

وانه لفهم فى غاية السقم ذلك الفهم الذي كان يرى ان رسول الله عليه صلوات الله كان يحب أن يكون ذلك اليوم هادئا ناعم البال مستريحاً ، لقد كانت خشيته عليه الصلاة والسلام تملأ القلوب خشية ، وقربه من الله يملأ القلوب قربا ، وصلته بعالم الغيبَ تملأ القلوب شوقا إلى مرضاة الله ، فاذا دعا أصحابه الى الجنة كانوا كأنهم يرون الجنة عياناً فلا يطيقون احتمالا للصبر عنها .

الانفعال المتزن يستثير الطاقات الكامنة

إن التوتر النفسي الحازم والانفعال الرصين في ساعات الشدائد يخرجان القوى الكامنة و يثيران الطاقات الدفينة و يرفعان هذا الانسان الى مستوى لم يبلغه من قبل و يأتي الانسان في هذه الحال في تلك الساعات بما يعجب له هو نفسه وبما يعجب له الناس .

لقد خرج عليه الصلاة والسلام من العريش ولفظة العرين هي اللفظة الغالبة على شعوري ، خرج من العرين « اعني العريش » وهو يثب[1] في الدروع و يقول (سيهزم الجمع و يولون الدبر) . ولو ان جيوش الدنيا وقفت في وجهه عليه الصلاة والسلام وهو في خروجه هذا لسحقها وتخطاها وبمثل هذه الروح القوية العالية قابل أصحابه عليه الصلاة والسلام فسرت من نفسه الكريمة الى انفسهم هذه المعاني كما تسري الكهرباء في مسالكها .

أترى بعد هذا أن دعاء الرسول واستغاثته وتضرعه الى ربه مكان للسؤال والاستشكال ؟

لقد تعرض للموضوع صاحب فتح الباري واجاب بما قاله الخطابي والخطابي من علماء القرن الرابع الهجري كانت وفاته عام (٣٨٨) وأغلب ظني ان المسألة من المسائل التي يثيرها أعداء الاسلام و يدسونها في صفوفهم للايقاع بهذا الدين واهله وامثلة ذلك كثيرة

---

(١) : ولفظة يثب اوردها ابن حجر في الفتح وقد رأيت في بعض الروايات ثبت في الدروع وأوثر الأولى فهي التي تناسب المقام وأرى الثانية من خطأ الناسخين .

في عصرنا من المبشر ين الصليبيين والمستشرقين فينبري علماء المسلمين للاجابة عن كثير من المسائل وهي ترهات يضيع فيها الجهد والوقت .

والرسول عليه الصلاة والسلام في سؤاله ينشد ر به عهده ان ينجزله وعده فالله قد وعده والرسول عليه صلوات الله وسلامه واثق بر به .

والذي يؤخذ من الحديث ان يستغل العبد ساعات الشدة ليقبل بقلبه على ر به و يزداد خضوعا وخشيةولجوءاً ليزداد عبودية و يزداد رفعة .

ولقد ظل عليه صلوات الله وسلامه يناشد ر به حتى رأى النصر بأم عينيه.روى النسائي والحاكم عن علي قال (قاتلت يوم بدر شيئا من قتال ثم جئت فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في سجوده ياحي ياقيوم فرجعت فقاتلت ثم جئته فوجدته كذلك) وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كان يوم بدر في العر يش مع الصديق رضي الله عنه أخذت رسول الله صلى الله علية وسلم سنة من النوم ثم استيقظ مبتسما فقال أبشر ياأبا بكر هذا جبر يل على ثناياه النقع (١) . وفي البخاري عن ابن عباس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر هذا جبر يل برأس فرسه عليه اداة الحرب .

يقول ابن حجر وفي روايه ايوب عن عكرمة عن ابن عباس قال عمر فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يثب في الدروع و يقول (سيهزم الجمع) اخرجه الطبرى وابن مردو يه .

كان رسول الله مشغولا بدعاء ر به ، ممتلىء القلب إشفاقاً على اصحابه ومن بعدهم وكان أبو بكر رضي الله عنه منشغلا بالاهتمام برسول الله عليه صلوات الله .

ومقال السيد رشيد رضا في التمييز بين موقف الرسول عليه صلوات الله والصديق في غار ثور وفي بدر مقال حسن ننقل بعض ماجاء فيه : (٢)

• اعطاء كل مقام حقه

قال رحمه الله انه صلى الله عليه وسلم أعطى كل مقام حقه بحسب الحال التى كان

(١) : الغبار يقول الشارح اشارة للاهتمام بمناصرته صلى الله علية وسلم .

(٢) : تفسير المنار ٦٠٥ / ٩

فيها فلما كان عند الخروج الى الهجرة قد عمل ومعه صاحبه كل ما امكنهما من الأسباب لها وهو إعداد الزاد والراحلتين والدليل والاستخفاء في الغار لم يبق عليهما الا التوكل على الله تعالى والثقة بمعونته وتخذيل اعدائه صلى الله عليه وسلم لكمال توكله آمناً مطمئنا بما انزل الله عليه من السكينة وايده به من الملائكة وابو بكر رضي الله عنه لم يرتق الى هذه الدرجة فكان خائفا حزينا محتاجا الى تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام .

واما يوم بدر فكان المقام فيه مقام الخوف لا مقام التوكل المحض وذلك ان التوكل الشرعي بالاستسلام لعناية الله تعالى وحده انما يصح في كل حال بعد اتخاذ الأسباب المعلومة من شرع الله ومن سننه في خلقه .

ومن المعلوم بالقطع ان اسباب النصر والغلب لم تكن تامة عند المسلمين في ذلك الوقت ، لا من الجهة المادية كالعدد والعُدَد والغذاء والعتاد والخيل والابل بل لم يكن من هذه الجهة الا شيء ضعيف ولا من الجهة المعنوية لما تقدم من كراهة بعضهم للقتال وجدال النبي صلى الله علية وسلم فيه ، لهذا خشي صلى الله عليه وسلم أن يصيب اصحابه تهلكة على قلتهم لتقصيرهم في بعض الأسباب المعنوية فوق التقصير غير الاختياري في الاسباب المادية فكان يدعو بأن لا يؤاخذهم الله تعالى بتقصير بعضهم في إقامة سننه عقابا لهم كما عاقبهم بعد ذلك في غزوة أحد ذلك العقاب المشار اليه بقوله تعالى « أو لما اصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند انفسكم »

وأما ابو بكر رضي الله عنه فلم يكن يعلم من ذلك كل مايعلمه الرسول صلى الله عليه وسلم وقد رآه منزعجا خائفا فكان همه تسليته صلى الله عليه وسلم وتذكيره بوعد ربه لشدة حبه له ، وفي الغار كان خائفا عليه ، ولكنه رآه مطمئنا فلم يحتج الى تسليته بل كان صلى الله عليه وسلم هو المسلي له لما رأى من خوفه ان تعرض له ألَمٌ او اذى .

فالرسول هو الذي اعطى كل مقام حقه : مقام التوكل المحض بعد استيفاء اسباب اتقاء اذى المشركين عند الهجرة ومقام الخوف على جماعة المؤمنين لما ذكرنا آنفا من كراهة بعضهم للقتال ومجادلتهم له فيه بعد ماتبين لهم انه الحق الذى يريده الله تعالى بوعده إياهم إحدى الطائفتين .

الى ان يقول : وجملة القول في هذا المقام ان الرسول صلوات الله عليه وسلامه كان

يعلم بإعلام القرآن أن للنصر أسبابا حسية ومعنوية وان لله تعالى فيها سننا مطردة ، وكان يعلم أيضاً أن لله تعالى عناية وتوفيقا يمنحه من شاء من خلقه فينصر الضعفاء على الأقوياء والفئة القليلة على الفئة الكثيرة وانه جل جلاله له فوق كل هذا آيات يؤيد بها رسله .

فلما عرف من ضعف المؤمنين وقلتهم ما عرف استغاث الله تعالى ودعاه ليؤيدهم بالقوة المعنوية ويحفهم بالعناية الربانية التي تكون بها القوة الروحانية أجدر بالنصر من القوة المادية وكان كل من علم بدعائه يؤمّن عليه وكانوا يتأسون به في هذا الدعاة فيستغيثون ربهم كما استغاثه وقد اسند الله اليهم الاستغاثة « إذ تستغيثون ربكم ».

قال تعالى : « اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين وما جعله الله الا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر الا من عند الله إن الله عزيز حكيم » .

الاستغاثة طلب الغوث والنصر وغوّث الرجل قال : واغوثاه .

ولقد استغاث رسول الله واصحابه بربهم في الساعة الرهيبة واستجاروا به جل شأنه ودعوه للنصر فأجاب دعاءهم الذي يجيب المضطر اذا دعاه بقوله تعالى : « فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين » أي يردف بعضهم بعضا و يتلو بعضهم بعضا .

وقوله تعالى : « وما جعله الله الا بشرى » أي لم يجعل تعالى ذكره الإ مداد الذي أمدكم الا بشارة تبشركم بنصر الله .

وقال ابن جرير:المعنى لم يجعل الله إرداف الملائكة بعضها بعضا وتتابعها بالمصير اليكم أيها المؤمنون مداداً لكم إلا بشرى لكم أي بشارة تبشركم بنصر الله إياكم على اعدائكم لتسكن قلوبكم وتوقن بنصر الله وما النصر الا من عند الله يقول جل شأنه وما تنصرون على عدوكم أيها المؤمنين الا أن ينصركم الله عليهم لا بشدة بأسكم وقواكم بل بنصر الله لكم لأن ذلك بيده واليه ينصر من يشاء من خلقه ان الله عزيز لا يقهره شيء ولا يغلبه غالب « حكيم » في تدبيره ونصره من نصر وخذلانه من خذل لا يدخل تدبيره وهن ولا خلل .

يقول صاحب فتح البيان وفي هذا إشعار بأن الملائكة لم يقاتلوا بل امد الله المسلمين بهم للبشرى لهم ولتثبت قلوبهم قال قتادة وذكر لنا ان عمر قال أما يوم بدر فلا نشك ان الملائكة كانوا معنا واما بعد ذلك فالله اعلم .

يقول ابن جرير ايضا عند قوله تعالى « وما النصر الا من عند الله » يعني وما ظفركم إن ظفرتم بعدوكم إلا بعون الله لا من قبل العدد الذي يأتيكم من الملائكة .

أقاتلت الملائكة يوم بدر

و يقول صاحب تفسير المنار :
روي عن ابن عباس ان الملائكة لم تقاتل الا يوم بدر وفيما عداه كانوا عددا ومددا لا يقاتلون .

يقول : وانكر ابو بكر الأصم قتال الملائكة وقال:ان الملك الواحد يكفي في إهلاك اهل الأرض كما فعل جبريل بمدائن قوم لوط فإذا حضر هو يوم بدر فأي حاجة الى مقاتلة الناس مع الكفار و بتقدير حضوره اي فائدة في ارسال سائر الملائكة ؟ وايضا فان اكابر الكفار كانوا مشهورين وقاتل كل منهم من الصحابة معلوم وايضا لو قاتلوا فإما أن يكونوا بحيث يراهم الناس أولا وعلى الأول يكون المشاهد من عسكر الرسول ثلاثة آلاف واكثر ولم يقل بذلك احد وانه خلاف قوله تعالى « و يقللكم في اعينهم » ولو كانوا في غير صورة الناس لزم وقوع الرعب الشديد في قلوب الخلق ولم ينقل ذلك البتة ... الى آخر ما يقول وقد اورد الرازي هذا الذي سبق عن الأصم وذكر حججه مفصلة كعادته الحجة الأولى ، والثانية ... الخ واعترض الرازي عليه بأن مثل هذا انما يصدر عن غير المؤمنين .

و ينتصر رشيد رضا للأصم و يقول ليس في القرآن الكريم نص ناطق بأن الملائكة قاتلت بالفعل و يقول:فسر إمداد الملائكة في بدر بقوله تعالى « فثبتوا الذين آمنوا » و يقول ابن جرير في معناه « قروا عزمهم وصححوا نياتهم في قتال عدوهم من المشركين وقيل كان ذلك معونتهم اياهم بقتال اعدائهم يقول رشيد رضا : « فأنت ترى انه جزم بأن عمل الملائكة في ذلك اليوم انما كان موضوعه القلوب بتقوية عزيمتهم وتصحيح نيتها »

وأقول ليس في هذا النزاع كبير جدوى فليس من شك في أن الملائكة شهدت بدرا وليس من شك في أنها أمدت المؤمنين وهيأت أسباب النصر اما الكيفية التي أمدت بها

فليس ذلك من شأننا فلو أن انسانا أعرف لديه القدرة الخارقة قال لي سأكون معك في قتال عدوك وسأنصرك عليه وأنا اعلم ان وجوده كاف لنصرتي ومعونته مؤكدة لغلبتي فإن قلت احب ان اعرف الوسائل التي تستعملها والطريقة التي تريد ان تسلكها كان ذلك تطفلا مني ودخولا في غير ما يعنيني فكيف الشيء بالملائكة الكرام الذين هم من عالم الغيب وتصرفاتهم من عالم الغيب ووسائلهم لا تعد ولا تحصى ولا نستطيع ادراكها . فالتسليم بأنهم شهدوا و بأنهم هيأوا اسباب النصر هو الذي يعنينا ولا طائل فيما وراء ذلك .

وقد بوب البخاري بقوله « باب شهود الملائكة بدر»

وروى في صحيحه عن معاذ بن رفاعة عن ابيه وكان ابوه من اهل بدر قال جاء جبريل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ما تعدون اهل بدر فيكم ؟ قال من افضل المسلمين او كلمة نحوها قال وكذلك من شهد بدرا من الملائكة .

وقال ابن كثير روى الامام ابو جعفر ومسلم من حديث عكرمة بن عمار عن ابي زميل سماك بن وليد الحنفي قال حدثنا عبد الله بن عباس قال بينما رجل من المسلمين يشتد في اثر رجل من المشركين امامه اذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول اقدم حيزوم (١) فنظر المشرك أمامه فخرّ مستلقيا فنظر اليه فاذا هو قد خطم انفه وشق وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك أجمع فجاء الانصاري فحدث بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « صدقت ذلك من مداد السماء الثالثة » فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين .

ولم يشر صاحب المنار الى هذين الحديثين وفي اسناد حديث مسلم عكرمة بن عمار قالوا عنه ابن حجر صدوق يغلط روى له البخاري تعليقا ومسلم وأصحاب السنن جميعا وأبو زميل قال ابن حجر ليس به بأس روى له البخاري في الأدب المفرد ومسلم وأصحاب السنن جميعا فالحديث في درجة الحسن .

قال تعالى : « وما النصر الا من عند الله »

قال صاحب فتح البيان النصر من عند الله لا من عند غيره ليس للملائكة في ذلك أثر فهو الناصر على الحقيقة وليست الملائكة الا سبباً من اسباب النصر التي سببها الله

---

(١) : اقدم كلمة زجر للفرس معلومة في كلامهم وحيزوم اسم فرس الملك .

وامدكم بها وفيه تنبيه على ان الواجب على المسلم ألا يتوكل إلا على الله في جميع احواله ولا يثق بغيره فان الله تعالى بيده الظفر والإعانة .

و يقول صاحب الظلال عليه رحمة الله : (انها المعركة كلها تدار بأمر الله ومشيئته وتدبيره وقدره ، وتسير بجند الله وتوجيهه) .

وهكذا يربى المؤمن على ان لا يرى قوة الى جانب قوة الله ولا ارادة الى جانب ارادته فهو الفعال وحده واليه يرد الأمر كله .

وهكذا تحذر الآيات الكريمة ان يظن ان الملائكة تملك امرا او تقدم نصرا إنها بكل ما أوتيت من قوة إنما تفعل بأمر الله وتسير بإرادة الله .
وهذا هو التوحيد الخالص والايمان المحض ان يقطع المؤمن رجاءه من المال والأهل والولد والجاه والسلطان بل يقطع رجاءه من نفسه ايضا و يعتقد انه لا يملك حولا ولا طَوْلاً ولا قوة الا باذن الله وامره .

دعـــوة باطـلـة

ولقد وجد اناس في الأيام الأخيرة في بلاد الضلال يدعون هذا الانسان الى الايمان بنفسه كيلا يرى في هذا الكون عقبة تقف في وجهه وكيلا يرى في الكون قوة فوق قوته وكيلا يجد نفسه مكبلا بإرادة من الإرادات وذلك ان ايمانه بقوة فوق قوته تحد من طاقته وتضعف من قوته وتحول بينه و بين الانطلاق الذي لا يعرف حدا ولا قيدا .

ولقد انبثقت هذه الدعوة من فيلسوف ألماني عاش في نهاية القرن الماضي من عام ١٨٤٤م الى ١٩٠٠م وكان ابن قس وحفيد قس واراد ان يصير قسيسا فكان في اول امره مستمسكا بالدين ثم خرج على الدين والأخلاق وصار علما من اعلام الكفر ذلك هو نيتشه الذي كان يعرض فلسفته على انها رسالة و وحي وكان يرمي الى تعليم الانسان كيف يكتشف نفسه فيجد فيها ارادة القوة غاية بذاتها و ينكر القيم الاخلاقية كما ينكر العالم الأخروي و يزعم ان المعاني الأخلاقية اوجدها أناسٌ ليحتفظوا بسيادتهم على جمهور المساكين .

وهذا الذي يدعو الانسان الى الايمان بقوته عوجل بعقوبته في الدنيا قبل الآخرة فلقد

عاش ستا وخمسين عاماً هدمته الأمراض فيها وهو في عنفوان شبابه وظل عشر سنوات يشكو العلل فاضطر الى الانقطاع عن التدريس وهو في سن الخامسة والثلاثين ثم انتهى به المرض إلى الشلل التام والجنون وظل على هذه الحال عشر سنوات أخرى حتى وافاه اجله .

وما كنت لأضيع الوقت بذكره لولا أن بلادا اسلامية في مثل هذه الأيام تتبنى مثل هذه الفلسفة رسميا وتربي الأجيال عليها تربي ابناء المسلمين على الكفر بمبادئهم والتنكر لأيامهم الزاهية .

لقد نشرت مجلة رسمية في بلد اسلامي مقالا جاء فيه :

« استنجدت امة العرب بالاله ... فتشت عن القيم القديمة في الاسلام والمسيحية استعانت بالنظام الاقطاعي والرأسمالي و بعض النظم المعروفة في العصور الوسطى كل ذلك لم يُجْدِ فتيلا .

الى ان يقول : ان ضالته الانسان المتمرد على جميع القيم المريضة الهزيلة في مجتمعه التي هي ليست الا وليدة الإقطاع والرأسمال والاستعمار... تلك القيم التي جعلت من الانسان العربي انسانا متخاذلا متوكلا انسانا جبريا مستسلما للقدر لا يعرف الا ان يقول : « لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم » .

كتب هذا المقال منذ سنوات قريبه وقد يحسب العاقل انها رعونة قامت في رأس صاحبها وطواها الزمن ولكن اصحاب الباطل ما يزالون يعملون « ليطفئوا نور الله و يأبى الله إلا ان يتم نوره » مايزال اصحاب الباطل جادين في وسائلهم ومن وسائلهم الجديدة إصدار مجلات للأطفال تبدو بمظهر تربية الأطفال وتوجيههم تدس فيها المعاني التي تهدم القلوب يتحدث فيها أصحابها عن نشأة هذا الانسان والأدوار التي مر بها في جذور التاريخ البعيدة و يلقنون الناشئة النظرية التي تزعم أن هذا الانسان خلق من غير خالق ، وصاحب المقال السابق ينطلق من هذه البداءة فأول ما جاء في كلامه ما يلي : الانسان كوحدة فيزيولوجية يتجدد كل ثانية بل كل لحظة ولن اخوض هنا في معركة أصل الانسان .. بل لا يهمني كليا تأكيد العلم أن نقطة انطلاق الانسان كانت الخلية الحيوانية الدقيقة ومن ثم تطور وارتقى عبر العصور الى ان اصبح بتكوينه الحالي .

أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ... أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون .

لست ألوم هؤلاء الذين خربت عقولهم ومرضت قلوبهم ولكني أجد مر الأسى أني واخواني لا نستطيع أن نقدم لهؤلاء مثال الرجل المؤمن في انتظاره للحق وذوده عن حماه وفي شجاعته واقدامه في سبيله وفي انصبابه على الشدائد ومواجهته لعظائم الأمور وهو يقول لا حول ولا قوة الا بالله « وما النصر الا من عند الله ... » « اذ يغشيكم النعاس أمنة منه »

ومن منّه تعالى على المؤمنين إلقاؤه النعاس عليهم حتى غشيهم أي غلب عليهم فكان كالغاشية تستر الشيء وتغطيه .

قال أبو جعفر يغشيكم النعاس يلقي عليكم النعاس وقوله تعالى أمنة أي أماناً من الله لكم من عدوكم أن يغلبكم .

والنعاس أول النوم وهو أن يحتاج الانسان الى النوم فاذا ثقل النعاس كان وسنا فاذا خالط النعاس العين فهو ترنيق و بعده الكرى والغمض وهو أن يكون الانسان بين النائم واليقظان و بعده العفق وهو النوم وأنت تسمع كلام القوم و بعد الهجود والهجوع والنعاس اسم مصدر لنعس من باب فتح .

يقول ابن كثير :
وقال الحافظ ابو يعلي حدثنا زهير حدثنا ابن مهدي عن شعبة عن ابي اسحاق عن حارثة بن مراجع بن كثير عن علي رضي الله عنه قال : (ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ولقد رأيتنا وما فينا الا نائم الا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي تحت شجرة و يبكي حتى أصبح) والإسناد السابق رجاله ثقات كلهم .

يقول السيد رشيد:وظاهر عبارة علي رضي الله عنه انهم ناموا في الليل والمتبادر ان نعاسهم كان في اثناء القتال ولكن السيد رشيد يرجح تبعا لشيخه الإمام محمد عبده أن النعاس في بدر كان ليلة القتال وذلك الذي يؤخذ من ظاهر قول علي رضي الله عنه .

يقول السيد رشيد نقلا عن الامام محمد عبده : وقد مضت سنة الله في الخلق بأن من

يتوقع في صبيحة ليلة هولا كبيرا ومصابا عظيما فإنه يتجافى جنبه عن مضجعه و يبيت بليلة الملسوع فيصبح خاملاً ضعيفا وقد كان المؤمنون يوم بدر يتوقعون مثل ذلك إذ بلغهم أن جيشا يز يد عن عددهم ثلاثة اضعاف سيحاربهم غدا وهو أشد منهم قوة وأعظم عدة فكان من مقتضى العادة ان يناموا على بساط الأرق و يفكروا بما سيلاقون في غدهم من الشدة واليأس ولكن الله رحمهم بما انزل عليهم من النعاس غشيهم فناموا واثقين بالله تعالى مطمئنين لوعده واصبحوا على همة ونشاط في لقاء عدوهم وعدوه فالنعاس لم يكن يوم بدر في وقت الحرب بل قبلها ، ومثله المطر الذي أنزل عليهم عند شدة حاجتهم إليه وقد قرن ذكره به في الآية التي ذكرتهم بعناية الله بهم .

وقال ابن كثير قال سفيان الثوري عن عاصم عن ابي رز ين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال النعاس في القتال أمنة من الله وفي الصلاة من الشيطان .

ثم يقول : والآية الشريفة انما هي في سياق بدر وهي دالة على وقوع ذلك ايضا وكأن ذلك كائن للمؤمنين عند شدة اليأس لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله وهذا من فضل الله ورحمته بهم ونعمته عليهم وكما قال تعالى : « فإن مع العسر يسرا »

والذي يبدو ان الأصحاب رضوان الله عليهم بعد المؤتمر الذى عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم والمشورة التي أقامها و بعد كلام ابي بكر وعمر والمقداد وسعد بن معاذ ثابت القلوب ورجعت الطمأنينة ، وحين علم الأصحاب ان رغبة رسول الله في السير للقاء المشركين وحين اعلن عليه صلوات الله ان الله وعده إحدى الطائفتين حين قال سيروا وأبشروا ان الله وعدني إحدى الطائفتين والله لكأني انظر الى مصارع القوم انقطع دابر التردد وحلت العزيمة وكان الإقدام وساروا جميعا موقنين بأن النصر معهم وقد اسلموا نفوسهم للذي برأهم وفوضوا أمورهم الى الذى يحسن تدبيرها ، وهنالك ثابت النفوس واستقرت القلوب .

الهدوء في ساعات الشدة

والآية الكريمة ترشد الى معنى جليل قد لا يقدره المرء قدره ، الهدوء في ساعات الشدائد التي يخشى أن تذهب بالأنفس والطمأنينة إلى قدر الله .

هذا الهدوء الذي يقترن بعدم المبالاة بالأخطار لأن الأخطار يملكها من بيده ناصية

كل شيء ولأن الأمور تفوض اليه جل شأنه ولا يأتي من قبله إلا الخير والرحمة هذا الهدوء يكسب المرء رباطة جأش وتصرفا عن وعي وانتباه ومهارة في حين يفزع الناس حتى يكاد الفزع يقتلهم فيضطربون في أمورهم .

وليس مثل هذا الهدوء وهذه السكينة لغير المؤمنين .

قال تعالى : « و ينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به و يذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم و يثبت به الأقدام » .

ارتحل عليه الصلاة والسلام بعد المؤتمر الذي اقامه في وادي ذفران وهو قريب من الصفراء على مسافة تقرب من اربعين ميلا من المدينة وسار عليه صلوات الله وسلامه حتى نزل قريبا من بدر ونزلت قريش بالعدوة القصوى والعدوة جانب الوادى وحافته والقصوى أي البعدى من المدينة ونزل المسلمون على كثيب اعفر(١) تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب وسبقهم المشركون الى ماء بدر فأحرزوا وحفروا القلب لأنفسهم (٢) واصبح المسلمون بعضهم محدث و بعضهم جنب وأصابهم الظمأ وهم لا يصلون إلى الماء لسبق المشركين اليه ووسوس الشيطان لبعضهم وقال تزعمون انكم على الحق وفيكم نبي الله وتزعمون أنكم أولياء الله وقد غلبكم المشركون على الماء وانتم عطاش وتصلون محدثين مجنبين ولم تكن آية التيمم نزلت فأرسل الله عليهم مطرا سال منه الوادى فشرب المسلمون واغتسلوا وتوضئوا وسقوا الركاب (١) وملئوا الأسقية وأطفأ المطر الغبار ولبد الأرض حتى ثبتت عليها الأقدام وزالت عنهم وسوسة الشيطان وطابت نفوسهم .

يقول ابن القيم عليه رحمة الله : وانزل الله عز وجل في تلك الليلة مطرا واحدا فكان على المشركين وابلاً شديدا منعهم من التقدم وكان على المسلمين طلاً طهرهم به وأذهب عنهم رجس الشيطان ووطأ به الأرض وصلب به الرمل وثبت الأقدام ومهد به المنزل وربط به على قلوبهم فسبق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الى الماء فنزلوا عليه شطر الليل وصنعوا الحياض ثم غوروا ما عداها من المياه .

وروى ابن جرير بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال نزل النبي صلى

---

(١) : رمل مجتمع احمر او ابيض ليس بالشديد.

(٢) : القلب جمع قليب البئر قبل ان تبنى بالحجارة ونحوها .

(١) : الركاب الابل التي يسار عليها واحدتها راحلة ولا واحد لها من لفظها .

الله عليه وسلم يعني حين سار الى بدر والمسلمين بينهم و بين الماء رملة دعصة (١) فأصاب المسلمين ضعف شديد وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ فوسوس بينهم تزعمون انكم اولياء الله وفيكم رسوله وقد غلبكم المشركون على الماء وانتم تصلون مجنبين ، فأمطر الله عليهم مطرا شديداً فشرب المسلمون وتطهروا واذهب الله عنهم رجس الشيطان وثبت الرمل حين أصابه المطر ومشى الناس عليه والدواب فساروا الى القوم وامد الله نبيه بألف من الملائكة فكان جبريل عليه السلام في خمسمائة من الملائكة مجنبة وميكائيل فيّ خمسمائة مجنبة .

يقول صاحب تفسير المنار « ولولا هذا المطر لما امكن المسلمين القتال لأنهم كانوا رجالة ليس فيهم الا فارس واحد هو المقداد وكانت الأرض دهاسا تسيخ فيها الأقدام ولا تثبت عليها .

قال ابن اسحاق فخرج صلى الله عليه وسلم يبادرهم الى الماء حتى جاء ادنى ماء من بدر فنزل به فقال الحباب بن المنذر يا رسول الله هذا منزل انزلكه الله لا تتقدمه ولا تتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة فقال بل هو الرأي والحرب والمكيدة قال فان هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من القلب ثم نبني عليه حوضا فنملؤه ماء فنشرب ولا يشربون فقال صلى الله عليه وسلم أشرت بالرأي(٢) .أ

قال رشيد رضا : ذكر تعالى لذلك المطر اربع منافع الأولى تطهيرهم به تطهيرا حسيا بالنظافة التي تشرح الصدر وتنشط الأعضاء في كل عمل وشرعيا بالغسل من الجنابة والوضوء من الحدث الأصغر الثانية إذهاب رجز الشيطان والرجز والرجس والركس كلها بمعنى وهو الشيء المستقذر حساً أو معنى والمراد هنا وسوسة الشيطان كما تقدم في الأثر الذى أورده ابن جرير الثالثة الربط على القلوب وهو تعبير عن تثبيتها وتوطينها على الصبر الرابعة تثبيت الأقدام فإن من كان يعلم أنه يقاتل في ارض تسوخ فيها قدمه كلما تحرك

(١) جاء في اللسان للدعص جبل صغير من الرمل مجتمع والطائفة منه دعصة .

(٢) يروى هذا الحديث ابن اسحاق يقول فحدثت عن رجال من بنى سلمة . يقول ناصر الدين الألباني وهذا سند ضعيف لجهالة الواسطة بين ابن اسحاق والرجال من بنى سلمة والحديث يورده ابن حجر في الاصابة في ترجمة الحباب بن المنذر وقد ذكر الواسطة في السند الذى اورده يقول : قال ابن اسحاق في السيرة حدثني يزيد بن رومان عن عروة وغير واحد في قضية بدر ، فذكر قول الحباب ، وبهذا يزول ضعف السند الذى ذكر .

وهو قد يقاتل فارساً لا رجلاً لا يكون الا رجلا مضطرب القلب .

قال تعالى : « اذ يوحي ربك الى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » .

يقول ابن كثير عليه الرحمة : هذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى للمؤمنين ليشكروه تعالى عليها وهو انه تعالى وتقدس وتبارك وتمجد أوحى الى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين أوحى اليهم فيما بينه و بينهم أن يثبتوا الذين آمنوا . قال ابن اسحاق أي آزروهم وقال غيره قاتلوا معهم وقيل كثروا سوادهم وقيل كان ذلك بأن الملك كان يأتي الرجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيقول سمعت هؤلاء القوم يعني المشركين يقولون والله لئن حملوا علينا لننكشفن فيحدث المسلمون بعضهم بعضا بذلك فتقوى أنفسهم حكاه ابن جرير.

وارتباط الآية الكريمة بما قبلها أنها من جملة المنن التي وقعت في بدر يذكر الله بها عباده المؤمنين يقول لهم تباركت أسماؤه اذكروا إذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم إذ تستغيثون ربكم واذكروا إذ يغشيكم النعاس أمنة منه واذكروا اذ يوحي جل شأنه الى الملائكة اني معكم وجعل صاحب فتح البيان التذكير الأخير لمحمد عليه الصلاة والسلام معنى الآية ذاكر يا محمد وقت ايحاء ربك الى الملائكة أني معكم و يبين علة ذلك بقوله : (لأنه لا يقف على ذلك سواه) ، يعني أن الأصحاب رضوان الله عليهم ما عملوا حين القتال بما أوحى الله تباركت اسماؤه إلى الملائكة وقد علم بذلك رسول الله فالتذكير انما يكون له عليه صلوات الله وسلامه وبهذا التذكير علم أصحابه رضوان الله عليهم بنعمة الله على رسوله وعليهم .

و يذهب السيد رشيد رضا الى ان الآية الكريمة مرتبطة بالآية التي قبلها يعني بتثبيت الأقدام يقول والمعنى انه يثبت الأقدام بالمطر في وقت الكفاح الذي يوحي ربك فيه الى الملائكة آمراً لهم ان يثبتوا الذين آمنوا .

فتثبيت الأقدام كان في المعركة حين أوحى الله الى الملائكة بتثبيت الذين آمنوا والذي ذهب اليه المفسرون الآخرون عدم التقييد والمتبادر أن الله ذكر المؤمنين بإنزال المطر وما كان له من نتائج في غلبتهم على عدوهم ومنها تثبيت اقدامهم ساعة القتال ثم

ذكر هم جل شأنه بإمدادهم بالملائكة . والمعنى الذى يريده السيد رشيد لا يتم على هذا الوجه وقد قال صاحب فتح البيان (وقيل يثبت الأقدام وقت الوحي وليس لهذا التقييد معنى) .

وقوله تعالى الى الملائكة قالوا أي الملائكة الذين سبق ذكرهم بقوله تعالى « اني ممدكم بألف من الملائكة » وقوله تعالى « أني معكم » هذا هو الموحى به الى الملائكة واكثر المفسرين على ان الموحى به من قوله تعالى (اني معكم الى قوله تعالى كل بنان) .

وخالف في هذا صاحب تفسير المنار ليتم له رأيه الذي سبق بأن الملائكة لم تقاتل فهو يقول : مقتضى السياق أن وحي الله للملائكة قد تم بأمره إياهم بتثبيت المؤمنين كما يدل عليه الحصر في قوله عن امداد الملائكة (وما جعله الله إلآ بشرى)

يقول : وقوله تعالى « سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب » بدء كلام خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون تتمة للبشرى فيكون الأمر بالضرب موجها الى المؤمنين قطعاً وعليه المحققون الذين جزموا بأن الملائكة لم تقاتل يوم بدر .

و يذهب ابن جرير في تفسيره الى ما يؤيد ما قاله صاحب تفسير المنار يقول القول في تأويل قوله « سألقى في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » .

يقول تعالى ذكره سأرعب قلوب الذين كفروا بي ، ايها المؤمنون ، منكم واملؤها فَرَقاً حتى ينهزموا عنكم . الى ان يقول : ان الله امر المؤمنين ، فعلمهم كيفية قتل المشركين وضربهم بالسيف ان يضربوا فوق الأعناق منهم والأيدي والأرجل .

و يؤخذ من كلام ابن كثير انه يرى ان قوله تعالى (ثبتوا) خطاب للملائكة و يلحق بذلك قوله تعالى فاضربوا فوق الأعناق .

يقول عليه الرحمة ثبتوا انتم المؤمنين وقووا انفسهم على اعدائهم عن امري لكم بذلك سألقي الرعب والذلة والصغار على من خالف امري وكذب رسولي فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان أى اضربوا الهام ففلقوها واحتزوا الرقاب فقطعوها وقطعوا الأطراف منهم وهي أيديهم وأرجلهم .

والذي نميل اليه الأخذ برأي جمهور المفسرين من أن الأمر بالضرب فوق الأعناق داخل فيما أوحى الله به الى الملائكة ذلك هو المتبادر من الآيات الكريمة وما ذهب إليه صاحب تفسير المنار يحتاج إلى تكلف غير يسير والأخذ المتبادر والبعد عن التكلف هو الأولى .

قال تعالى « ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإنّ الله شديد العقاب » .

امر الله تباركت اسماؤه في الآية السابقة بأن يضرب الذين كفروا فوق الأعناق أي يضربوا في المكان الذى هو فوق الأعناق وذلك هو الرأس او يضربوا فوق الأعناق نفسها اى على الأعناق لتفلق هاماتهم وتحتز رقابهم وامر جل شأنه بأن يضرب منهم كل بنان .

قال في اللسان : والبنان الأصابع وقيل اطرافها واحدتها بنانة وقال قوله عز وجل فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان قال ابو اسحاق البنان ههنا جميع اعضاء البدن وقال الليث اطراف الأصابع من اليدين والرجلين قال والبنان في كتاب الله وهي الأيدى والأرجل وهذا الذي اختاره ابن كثير قال وقطعوا اطرافاً منهم وهي أيديهم وأرجلهم . وكل هذا بعد ان وعد جل شأنه بإلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا والرعب هو الخوف الذي يملأ القلوب ومادة رعب تفيد الملء يقال رعب السيل الوادي أي ملاه وهي تفيد القطع أيضاً ولذا فسر الراغب الخوف بالانقطاع من امتلاء الخوف .

وهكذا جزاء الذين كفروا أن تضرب هامهم وتقطع أطرافهم وهذا الوصف يملأ المؤمن شدة على الكافرين وبهذا وصف الله المؤمنين بأنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم وقد فارقت هذه المعاني قلوب المؤمنين في الأيام المتأخرة وازداد أهل الكفر ضراوة على المؤمنين ونزع الله مهابتهم من قلوبهم .

والاسلام يعرف المسلمين بالسبيل الأقوم ففي النزاع بين الحق والباطل يجب ان يجد المبطل شدة وطأة الحق ليذعن له شاء أم أبى فإن لم يفعل فالباطل غايته أن يجتث شجرة الخير في أصولها والاسلام يريد من أتباعه أن يعرضوا أنفسهم للابتلاء ولفتن أعداء الاسلام وكيدهم وشدتهم وعداوتهم متوكلين على الله واثقين بنصره ويحذرهم أشد تحذير أن يؤثروا العافية ويخلدوا للراحة والدعة والشر يستشري و يستفحل أمره .

قال تعالى « ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله » والمشاقة والشقاق غلبة العداوة والخلاف ، وشاقه : خالفه ، وقال الزجاج الشقاق : العداوة بين فريقين والخلاف بين اثنين سمي ذلك شقاقا لأن كل فريق قد اتخذ شقا أي ناحية غير شق صاحبه .

فهؤلاء الذين استحقوا فلق الهام واحتزاز الرقاب وقطع الأطراف إنما استحقوا ذلك بتصريح القرآن بسبب غلبة العداوة على قلوبهم لله ولرسوله فلا يأمر الله ورسوله بسبيل الا و يسلكون سبيلا مخالفة معادية .

لقد وجد هؤلاء ليبتلي الله بهم المؤمنين واقتضت حكمته جل شأنه ان يذيق هؤلاء الكفرة المؤمنين أنواع البأس والوان العذاب ليقابل المؤمنون بأسهم ببأس اشد وليواجهوا عنادهم وكفرهم واستمساكهم بباطلهم بصبر يغلب عنادهم وثبات على الايمان يزعزع باطلهم و يصدع قلوبهم .

هذه تعاليم الاسلام واضحة جلية من شاق الله ورسوله فليس له إلا أن يضرب فوق الرقاب و يضرب منه كل بنان فلا هوادة ولا ملاينة بعد أن يبدي الباطل ناجذيه و يكشر الشر عن أنيابه .

ومتى وجد الباطل وجد مسلحا بأسلحة الشر كلها جامحا شديدا مستكبرا طاغياً لا يقر ولا يستقر وقد علمنا القرآن الكريم أن نقطع دابره ونعفي على اثره فان لم نفعل فلننتظر شراً كبيرا و بلاءً مستطيرا .

قال تعالى « ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب » قال ابن كثير هو الطالب جل شأنه الغالب لمن خالفه وناوأه لا يفوته شيء ولا يقوم لغضبه شيء تبارك وتعالى لا إله غيره ولا رب سواه .

ولا يقال للمسلمين اليوم في مجتمعاتهم إنهم ليسوا مشاقين لله ورسوله ذلك أنه لا يخلو مجتمع من المجتمعات الاسلامية من ضرب أو ضروب من الجاهلية التي تتابع جاهلية المدنية الغربية وتنافي الاسلام وتعارض مبادئه وقواعده وأسسه ، وأفراد ذلك المجتمع راضون ساكتون لا يبذلون جهداً في تغيير منكر ولا يقدمون في سبيل ذلك عزيزا .

وهذه الخاتمة التي ختمت بها الآية الكريمة أعني قوله تعالى « ومن يشاقق الله

ورسوله فإن الله شديد العقاب » لتطمين قلوب المؤمنين وتثبيت أفئدتهم في صراعهم مع الباطل وأهله فهم يعملون في مرضاة الله والله معهم وأهل الباطل يعملون فيا يغضب الله والله منزل عليهم عقابه يحل بهم سخطه . يقول سيد قطب عليه رحمة الله : (قاعدة وسنة لا فلتة ولا مصادفة ، قاعدة وسنة أنه حيثما انطلقت العصبة المسلمة في الأرض لتقرير ألوهية الله وحده وإقامة منهج الله وحده ثم وقف منها عدو لها موقف المشاقة لله ورسوله ، كان التثبيت والنصر للعصبة المسلمة وكان الرعب والهزيمة للذين يشاقون الله ورسوله ما استقامت العصبة على الطريق واطمأنت إلى ربها وتوكلت عليه وحده) .

ومن الأمثلة التي شاهدها المؤمنون ما وقع لمشركي قريش في بدر ، ويخاطب الله جل شأنه المشركين في هذه المناسبة فيقول لهم في كتابه المنزل « ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار » والمعنى العقاب ذلكم ، والأمر ذلكم الذي وقع بكم وشاهدتموه وقوله تعالى فذوقوه كلام مستأنف لزيادة إيلامهم وتبكيتهم وقوله تعالى (وان للكافرين عذاب النار) معطوف على ذلكم فالمعنى العقاب ذلكم الذى عجل لكم في الدنيا والعقاب إن لكم أيضا أيها الكافرون عذاب النار ، فبعد أن ذكر الله جل شأنه انه شديد العقاب بين لهم مثلا من العقاب في الدنيا وأعلمهم بأنه مشفوع بعقاب آخر في الآخرة .

قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار » .

لا فرار يوم الزحف

الزحف مصدر زحف إذا مشى على بطنه كالحية أو دبّ على مقعده كالصبي أو على ركبتيه ، والمشي بثقل في الحركة واتصال وتقارب في الخطو كزحف الدبى وهي صغار الجراد قبل طيرانها وزحف العسكر الى العدو مشوا إليهم في ثقل لكثرتهم والزحف الجيش ويجمع على زحوف .

والأدبار جمع دبر وهو الخلف ومقابلة القبل وهو القدام ولذلك يكنى بالقبل والدبر عن السوءتين وتولية الدبر والأدبار كناية عن الهزيمة .

قال ابن كثير : يقول تعالى متوعدا على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك « يا أيها الذين آمنو إذا لقيتم الذين كفروا زحفا » أي تقاربتم منهم ودنوتم اليهم متزاحفا بعضكم الى بعض فلا تولوهم الأدبار قال ابن جرير : فلا تفروا وتتركوا أصحابكم .

و يقول صاحب تفسير المنار: اذا لقيتموهم حال كونهم زاحفين زحفا لقتالكم (كما كان الحال في غزوة بدر فإن الكفار هم الذين زحفوا من مكة الى المدينة لقتال المؤمنين فشقفوهم في بدر) إذا لقيتموهم زاحفين لقتالكم زحفا فلا تولوهم ظهوركم وأقفيتكم منهزمين منهم وإن كانوا أكثر منكم عددا وعُدَداً. واذا كان التزاحف من الفريقين أو كان الزحف من المؤمنين فتحريم الفرار والهزيمة أولى ولفظ لقيتموهم زحفا يصلح للأحوال الثلاثة ورجح الأول هنا بقرينة الحال التي نزلت فيها الآية.

والآية الكريمة توحي بأسئلة عدة أولها ارتباط الآية بما سبقها ومكانها في السورة الكريمة.

والثاني الأحكام الفقهية التي تؤخذ من الآية الكريمة والثالث ما هو موقف المسلمين اليوم من الآية الكريمة.

وللإجابة عن السؤال الأول نقول:

عوقب الأصحاب على سؤالهم عن الأنفال في مطلع السورة و وجهوا ذلك التوجيه الرائع الى تبوُّؤ مراتب الايمان الرفيعة ثم عوتبوا على كراهية فريق منهم للقتال وجدالهم رسول الله في شأنه وهو حق أراده الله ثم ذكروا بنعم الله عليهم الجسيمة تذكيرا يعيد الى الذهن ما وقع من المؤمنين قبل المعركة من رغبتهم في الغلبة على العير وإرادة الله جل شأنه أمراً جليا يمهد للقضاء على الكفر وإخماد أنفاسه ذكروا باستغاثتهم ربهم وذكروا بما غشي قلوبهم من هدوء وطمأنينة وبما أُلقيَ عليهم من النعاس وذكروا بالمطر الذى أنعش قلوبهم وطمأن نفوسهم وطهر أجسادهم وثبت أقدامهم وأذهب عنهم رجس الشيطان وذكروا بأن الله أوحى الى الملائكة بأنه جل شأنه معهم في نصرة المؤمنين وإنزال العذاب بالكافرين وماذا يكون بعد إمداد الله المؤمنين بالملائكة وأمرهم جل شأنه بضرب الكافرين فوق الرقاب وضرب كل بنان كان من بعد ذلك ايمان المؤمنين ايمانا مبنيا على ما جربوه وشاهدوه بأن الله معهم في جهادهم للكافرين و بأن الله ناصرهم في كل موقعة يتصدون فيها لانزال العذاب بالمجرمين وما هي النتيجة التي تترتب على ذلك؟ يترتب على ذلك أن يتقدم المؤمنون لملاقاة أعداء الله غير هيابين ولا وجلين ولو كان الأعداء زاحفين زحف الجراد.

هذه النتيجة هي النتيجة الحتمية للتجربة الواقعية التي تمت صيغت بنداء موجه

للمؤمنين يعطي حكماً شرعياً و يضع قاعدة فقهية ليس للمؤمن أن يفر من الزحف وليس له أن يفر من لقاء العدو.

ولقد جاء الحكم مدعما بأدلته التي تؤ يده وتبين أسبابه ليس للمؤمن أن يفر من لقاء العدو لأن هذا الفرار جبن لا يتصف به المؤمن ولأنه خوف من لقاء العدو وحرص على الحياة وجزع من الموت وضعف ثقة بالله و بنصره، كل ذلك انطوت عليه الآيات السابقة التي مهدت لهذا الحكم الجليل الذي يجعل التولّي يوم الزحف مما يتوعد به الله المؤمن بأنه يبوء بغضب الله ومأواه جهنم .

اذا كان الله مع المؤمنين وهو ناصرهم ومؤ يدهم فكيف يخالفون عن أمره و كيف يضنّون بأرواحهم في سبيله .

وقد أعقب هذا النداء نداءات أربع تؤ يد معناه وتدعم غايته ثم ذُكِّرَ المؤمنون بما كانوا عليه من قبل من قلة وضعف فآواهم جل شأنه وأيدهم ونصر قضيتهم ونمّى دعوتهم وذكروا ايضاً بما كان عليه المشركون من قبل من شدة على المؤمنين ومكرهم بهم و برسول الله وقد أخزاهم الله اليوم في بدر وأذلّهم وكل هذا يؤ يد قضية واحدة هي أن يكون المؤمن في امتثال مرضاة الله ولن يضيعه الله ولن يخذله .

وتعود الآيات ثانية إلى الغنائم وإلى الموقعة و يعود النداء ثانية بعد ذكر الموقعة إلى القضية الهامة وإلى المسألة التي كأنها غرض السورة كلها .

« يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون »
و يعود السياق إلى المشركين وكفرهم واخذ الله إياهم بذنوبهم وتذكر خيانتهم و ينادى بالمؤمنين ثالثة ان يعدوا العدة لمقابلتهم وخضد شوكتهم « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة »

و يتخلل ذلك قواعد حربية تتعلق بالسلم و بالأسرى والتحريض على القتال وقوة المؤمنين في مقابلة المشركين وتختم السورة الكريمة بولاية المؤمنين بعضهم لبعض ومن هذا الاستعراض يمكن ان تدرك أن الآية التي نحن بصددها هي محور البحث وهي الغرض الرئيسي في السورة كلها .

قال تعالى « ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال او متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم و بئس المصير»

المتحرف للقتال هو المنحرف من جانب الى آخر وأصله من الحرف وهو الطرف وصيغة التفعيل تعطيه معنى التكلف أو معاناة الفعل المرة بعد المرة أو بالتدريج .

والمتحيز في معناه وهو المنتقل من حيز إلى آخر والحيز المكان وأصل مادته بالواو والحوز المكان يبنى حوله حائط .

وانحاز عن القوم اعتزلهم وانحاز اليهم وتحيز انضم والفئة الطائفة من الناس والمأوى الملجأ الذي يأوي اليه الانسان و ينضم .

وقوله تعالى الا متحرفا لقتال أي متحرفا لمكان من أمكنة القتال رآه أحوج الى القتال فيه أو متحرفا لضرب من ضروب القتال رآه أبلغ في النكاية بالعدو .

وقوله تعالى أو متحيزا الى فئة أي متنقلا الى فئة من المؤمنين في حيز غير الذي كان فيه لينصرهم على عدو تكاثر جمعه عليهم فصاروا أحوج اليه ممن كان في حيزهم .

وقوله تعالى فقد باء بغضب الله أي فقد رجع متلبساً بغضب عظيم من الله عليه .

ومأواه جهنم و بئس المصير ومأواه الذي يلجأ اليه في الآخرة جهنم دار العقاب و بئس المصير جهنم كأن المنهزم أراد ان يأوي الى مكان يأمن فيه من الهلاك فعوقب على ذلك بجعل عاقبته التي يصير إليها دار الهلاك والعذاب الدائم أي جوزي بضد غرضه من معصية الفرار .

والآية تدل على أن الفرار من الزحف من كبائر المعاصي وقد جاء التصريح بذلك في احاديث أصحها عن ابي هريرة مرفوعاً عند الشيخين « اجتنبوا السبع الموبقات (اي المهلكات) قالوا يارسول الله وما هن قال الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات » .

يقول ابن جرير :

واختلف أهل العلم في حكم الله عز وجل « ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم » أهو خاص في أهل بدر أم هو في

المؤمنين جميعا ؟ فقال قوم هو لأهل بدر خاصة لأنه لم يكن لهم ان يتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عدوه و ينهزموا عنه فأما اليوم فلهم الانهزام و يروي ابن جرير بإسناده عن ابي نضرة في قول الله عز وجل ومن يولهم يومئذ دبره قال ذاك يوم بدر ولم يكن لهم أن ينحازوا ولو انحاز أحد لم ينحز إلاّ الى المشركين .

يقول ابن جرير وقال آخرون بل هذه الآية حكمها عام في كل من ولى الدبر عن العدو منهزما و يروي ابن جرير بسنده عن علي بن ابي طلحة عن ابن عباس قال اكبر الكبائر الشرك بالله ، والفرار من الزحف لأن الله عز وجل يقول : « ومن يولهم يومئذ دبره فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم » .

قال ابو جعفر وأولى التأويلين في هذه الآية بالصواب عندي قول من قال حكمها محكم وأنها نزلت في أهل بدر وحكمها ثابت في جميع المؤمنين وان الله حرم على المؤمنين اذا لقوا العدو أن يولوهم الدبر منهزمين إلا لتجرف لقتال او لتحيز الى فئة من المؤمنين حيث كانت من أرض الاسلام ، وأن من ولاّهم الدبر بعد الزحف لقتال منهزما بغير نية إحدى الخلتين اللتين أباح الله التولية بها فقد استوجب من الله وعيده إلا أن يتفضل عليه بعفوه .

يقول : وإنما قلنا هي محكمة غير منسوخة ، لما قد بينا في غير موضع من كتابنا هذا وغيره أنه لا يجوز أن يحكم لحكم آية بنسخ ، وله في غير النسخ وجه إلاّ بحجة يجب التسليم لها من خبر يقطع العذر أو حجة عقل ، ولا حجة من هذين المعنيين تدل على نسخ حكم قول الله عز وجل « ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال او متحيزا الى فئة فقد باء بغضب الله »

قول ابن العربي

و يقول ابن العربي في احكام القرآن :
اختلف الناس في الفرار يوم الزحف أمخصوص هو بيوم بدر أم عام في الزحوف كلها الى يوم القيامة ؟

فروي عن ابي سعيد الخدري أن ذلك يوم بدر، لم يكن لهم فئة إلا رسول الله و به قال نافع والحسن وقتادة و يزيد بن حبيب والضحاك و يروى عن ابن عباس وسائر العلماء أن

الآية باقية الى يوم القيامة وانما شذ من شذ بقوله تعالى « ومن يولهم يومئذ دبره فظن قوم أن ذلك اشارة الى يوم بدر وليس به وإنما ذلك إشارة إلى يوم الزحف .

والدليل عليه أن الآية نزلت بعد القتال وانقضاء الحرب ، وذهاب اليوم بما فيه وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح ان الكبائر كذا ... وعد الفرار يوم الزحف ، وهذا نصّ في المسألة يرفع الخلاف و يبين الحكم .

والقول الذي لا يحتمل الخلاف في نظرنا ما ذهب اليه ابن جرير وابن العربي وما نقلاه عن ابن عباس وسائر العلماء بأن التولي يوم الزحف على إطلاقه يستحق هذا التشديد لضخامة الآثار التي يترتب عليها ولمساسه بأصل الاعتقاد ولذا كان في التعبير القرآني شدة في التحذير وتغليظ في العقوبة ، وتهديد بغضب من الله وإيواء في السعير.

قال القاسمي في تفسيره : (دلت الآية الكريمة على وجوب مصابرة العدو والثبات عند القتال وتحريم الفرار من العدو يوم الزحف وعلى أن الفرار من الكبائر لأنه توعد عليه وعيدا شديدا) وإلى أن يقول : (والآية الكريمة تفيد العموم بمعنى أن النهي فيها يشمل المؤمنين في كل زمان وعلى كل حال إلا في الحالتين اللتين استثنتها الآية الكريمة . وهذا القول مروي عن ابن عباس وعليه أكثر الفقهاء) .

وأراد قوم تخصيص حكم الآية في بعض الأحوال دون بعض ورووا عن عطاء أن حكم هذه الآية منسوخ بقوله تعالى (الآن خفف الله عنكم) وهذا ليس لأن النسخ هو رفع الحكم بدليل شرعي والذي ذهب إليه عطاء ليس رفعا للحكم الوارد في الآية الكريمة ولكنه تخصيص له في حال معينة وهي إذا كان عدد الكافرين لا يزيد عن ضعفي عدد المسلمين فإذا زاد فالمقاتلون في مثل هذه الحال لا يدخلون في الوعيد الذي جاء في الآية الكريمة إذا لم يثبتوا أمام الأعداء وذلك مأخوذ من قوله تعالى (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ... الخ) .

حرمت الآية الكريمة الفرار ولم تحدد عددا فيؤخذ منها تحريم الفرار على المؤمنين حين مقابلة المشركين مهما كان عدد هؤلاء وآية التخفيف في السورة نفسها حددت عددا فيحمل المطلق على المقيد والعام على الخاص وليس هذا نسخا وان سماه بعض السلف بذلك .

قال القاسمي : قال بعض الأئمة : هذه الآية عامة تقضي بوجوب المصابرة على المؤمنين وإن تضاعف عدد المشركين أضعافا كثيرة ثم قال تعالى « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا » فأوجب الله المصابرة على الواحد للعشرة لأنه خبر معناه الأمر فلما شق ذلك على المسلمين رحمهم الله تعالى وأوجب على الواحد مصابرة الاثنين فقال تعالى « الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين » .

قال الشافعي رحمه الله : إذا غزا المسلمون فلقوا ضعفهم من العدو حرم عليهم أن يولوا إلا متحرفين لقتال أو متحيز ين إلى فئة ، وإن كان المشركون أكثر من ضعفهم لما أوجب لهم أن يولوا.ولا يستوجبون السخط عندي من الله لو ولوا عنهم على غير تحرف للقتال أو التحيز إلى فئة .

وروى الشافعي وابن ابي شيبة عن ابن عباس قال : من فر من ثلاثة فلم يفر ومن فر من اثنين فقد فر .

وفي المهذب : إن زاد عدد العدو على مِثْلَيْ عدد المسلمين جاز الفرار لكن إن غلب على ظنهم أنهم لا يهلكون فالأفضل الثبات وإن ظنوا الهلاك فوجهان:أولهما يلزم الانصراف لقوله تعالى (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) والثاني يستحب ولا يجب لأنهم إن قتلوا فازوا بالشهادة وان لم يزد عدد الكفار على مثلي عدد المسلمين فالأصح في المذهب أنه لا يجوز الفرار حتى ولو ظن المسلمون الهلاك أخذا بظاهر الآية الكريمة .

و يقول الجصاص (١) بأن محمد بن الحسن صاحب ابي حنيفة ذكر أن الجيش إذا بلغوا اثني عشر الفا فليس لهم أن يفروا من عدوهم وإن كثر عددهم . يقول:ولم يذكر خلاف بين أصحابنا فيه يعني الحنفية واحتج الزهري عن عبيد الله بن عبد الله أن ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:خير الصحابة أربعة وخير السرايا أربعمائة وخير الجيوش أربعة آلاف ولن يؤتى اثنا عشر ألفاً من قلة ولن يغلب وفي بعضها ما غلب قوم يبلغون إثني عشر ألفاً إذا اجتمعت كلمتهم .

وذكر الطحاوي أن مالكا سئل فقيل له أيسعنا التخلف من قتال من خرج عن أحكام الله وحكم بغيرها فقال له مالك إن كان معك إثنا عشر الفا مثلك لم يسعك

(١) : في احكام القرآن ج ٣ ص ٦٠ .

التخلف والا فأنت في سعة من التخلف وكان السائل له عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر وهذا المذهب موافق لما ذكر محمد بن الحسن والذي روى عن النبي صلى الله عليه وسلم في إثني عشر الفا فهو أصل في هذا الباب وإن كثر عدد المشركين فغير جائز لهم أن يفروا منهم وإن كانوا أضعافهم لقوله صلى الله عليه وسلم إذا اجتمعت كلمتهم وقد اوجب عليهم بذلك جمع كلمتهم(١).

يتصل بالحكم الفقهي الذي يؤخذ من الآية الكريمة تحديد معنى التحرف والتحيز وقد أضيف التحرف للقتال وأضيف التحيز إلى فئة فكان في الفئة التي ينحاز إليها المقاتل بعض خلاف.

قال صاحب المغني ابن قدا عليه رحمة الله: (٢).

معنى التحرف للقتال أن ينحاز إلى موضع يكون القتال فيه أمكن مثل أن ينحاز من مواجهة الشمس أو الريح إلى استدبارهما أو من نزلة إلى علو أو من معطشة إلى موضع ماء أو يفر بين أيديهم لتنتقض صفوفهم أو تنفرد خيلهم من رجالتهم أو ليجد فيهم فرصة أو ليستند إلى جبل ونحو ذلك مما جرت به عادة أهل الحرب وقد روي عن عمر رضي الله عنه أنه كان يوما في خطبته إذ قال:ياسارية بن زينم الجبل. ظلم الذئب من استرعاه الغنم فأنكرها الناس فقال علي رضي الله عنه دعوه فلما نزل سألوه عما قال فلم يعترف به،

---

(١): الحديث رواه أبو داود والترمذي والحاكم عن ابن عباس ورمز له السيوطي بالصحة وقال الترمذى حسن غريب ولم يحكم عليه بالصحة لأنه يروى مسندا ومرسلا ومعضلا قال ابن القطان لكن هذا ليس بعلة فالأقرب صحته.

وقال الحاكم في المستدرك (ج ٣ ص ١٠١): هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه لخلاف بين الناقلين فيه عن الزهرى واقره الذهبي على ذلك.

واخرجه الترمذى (ج ٥ ص ١٦٦) وقال حسن غريب لا يسنده كبير احد غير جرير بن حازم وانما روى هذا الحديث عن الزهرى عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا وقد رواه حبان بن على العنزى عن عقيل عن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم ورواه الليث ابن سعد عن عقيل عن الزهرى عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا.

وبعد هذا نميل إلى الحكم بالضعف على الحديث لأنه مرسل على رواية الثقات الأعلام والذين رووه متصلا لا يخلو حالهم من ضعف فجرير بن حازم يقول فيه ابن حجر ثقة وله اوهام وحبان بن علي العنزى ضعيف، والحكم الفقهي الذي يؤخذ من الحديث ليس حكما مقطوعا به بل هو مكان للنظر.

(٢): ج ٩ ص ٣٠٨.

وكان قد بعث سارية إلى ناحية العراق لغزوهم فلما قدم ذلك الجيش أخبروا أنهم لقوا عدوهم يوم الجمعة فظهروا عليهم فسمعوا صوت عمر فتحيزوا إلى الجبل فنجوا من عدوهم فانتصروا عليهم .(١) .

قال ابن قدامة : وأما التحيز إلى فئة أن يصير إلى فئة من المسلمين ليكون معهم فيقوى بهم على عدوهم سواء بعدت المسافة أم قربت .

قال القاضي : لو كانت الفئة بخراسان والفئة بالحجاز جاز التحيز إليها ونحوه ذكر الشافعي لأن ابن عمر روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إني فئة لكم وكانوا بمكان بعيد منه وقال عمر إنا فئة كل مسلم وكان بالمدينة وجيوشه بمصر والشام والعراق وخراسان(٢) .

وقد ذهب كثير من العلماء أن لمقاتل أن يدع فئته المقاتلة و يلتحق بفئة أخرى بعيدة أو قريبة وله أيضاً أن يلحق بإمامه ، ولقد نقلنا من قبل قول الضحاك : المتحيز إلى فئة الفار إلى النبي وأصحابه وكذلك من فر اليوم إلى اميره أو أصحابه وجنح إلى هذا ابن كثير قال من فر من سرية إلى أميره أو إمام المسلمين دخل في هذه الرخصة ثم أورد حديث عبد الله بن عمر .

---

(١) : سارية ترجم له ابن حجر وقال قال ابن عساكر له صحبة ، وقال ولاه عمر ناحية فارس وقال العسكرى روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يلقه وذكر الواقدى وسيف بن عمر انه كان في الجاهلية عداء يسبق الخيل عدوا على رجليه ثم اسلم وحسن اسلامه و يذكر ابن حجر القصة السابقة و يأتي علي سرد أسماء الذين رووها ويحسن بعض اسانيدها و يروي القصة عن ابن مردويه من طريق ميمون بن مهران عن ابن عمر .

(٢) : حديث عبد الله بن عمر رواه الامام احمد وابو داود والترمذى وغيرهم . ولفظ الترمذى عن عبد الرحمن ابن ابي يعلى عن ابن عمر قال بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية فحاص الناس حيصة (يعني انهم فروا من القتال) فقدمنا المدينة فاختبأنا بها وقلنا هلكنا ثم أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا يارسول الله نحن الفرارون قال بل انتم العكارون (أى أنتم العائدون إلى القتال والعاطفون) وإنا فئتكم .

قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب لا تعرفه إلا من حديث يزيد بن ابي زياد . ورواية الامام احمد عن يزيد بن ابي زياد هذا وكذا رواية ابي داود .

و يزيد بن أبي زياد تكلم فيه قوم و يقول بشأن الحديث الشيخ أحمد محمد شاكر اسناده صحيح

الارتباط بالقيادة

والسؤال الذي يرد ههنا : أيحق لفرد من أفراد جيش أرسله الامام بقيادة قائد إلى جهة ما أن يدع أفراد الجيش و يلتحق بالإمام دون إذن قائده وهو مأمور بالسمع والطاعة لقائده ، ألا يعتبر فراره في مثل هذه الحال فراراً من الزحف ، هذا الذي يبدو جلياً أما عودته إلى الإمام فعناها تسليمه نفسه إلى الامام ليرى فيه رأيه ولينزل به ما يستحق من عقوبة .

ولا يرضى السيد رشيد رضا عن الفهم السابق لمعنى التحيز يقول : تأول بعضهم هذا الحديث (حديث ابن عمر) بتوسع في التحيز إلى فئة ، لا يبقى معه للوعيد معنى ولا للغة حكم و يقول : يز يد بن ابي ز ياد مختلف فيه ، ضعفه الكثيرون وقال ابن حبان كان صدوقاً إلا أنه لما كبر ساء حفظه وتغير فوقعت المناكير في حديثه فن سمع منه قبل التغير فسماعه صحيح .

يقول رشيد رضا:وجملة القول أن هذا الحديث لا وزن له في هذه المسأله لا متناً ولا سنداً . يقول وفي معناه أثر عن عمر هو دونه فلا يوضع في ميزان هذه المسألة .

والأثر الذي يشير إليه يرو يه ابن جر ير عن محمد أن عمر رحمة الله عليه بلغه قتل أبي عبيد فقال لو تحيز إلي ! ان كنت لفئة(١) .

وقد فسر المفسرون قوله تعالى أو متحيزا إلى فئة بقولهم أي متنقلا إلى فئة من المؤمنين في حيز غير الذي كان فيه لينصرهم على عدو تكاثر جمعه عليهم فصاروا أحوج إليه ممن كان في حيزهم . وهذا يغاير القول السابق .

إن للمقاتل أن يفر من سر ية ليلحق بإمامه . والذي يبدو لنا ضرورة التمييز بين الفرد في الجيش والجيش كله . فالفرد من أفراد الجيش ليس له بدون إذن قائده أن يدع إخوانه

---

(١) : وابو عبيد هو ابن مسعود الثقفي صحابي وهو صاحب يوم الجسر المعروف بجسر ابي عبيد وكان عمر لما ولى الخلافة عزل خالد بن الوليد عن العراق والأعنة وولى ابا عبيد ابن مسعود الثقفى سنة ١٣ ثلاث عشرة هـ واما وجه يزد حرد جموعه الى جيش ابي عبيد غبر ابو عبيد الجسر في المضيق فاقتتلوا قتالا شديدا وانكى ابو عبيد في الفرس وضرب ابو عبيد مشفر الفيل فبرك عليه الفيل فقتله ، واستشهد من المسلمين يومئذ الف وثمانمائة و يقال اربعة آلاف ما بين قتيل وغر يق .

وقائده ليلتحق بجيش آخر أو يلتحق بالامام وإلا لانفرط عقد الجيش وضاع نظامه . أما السرية بكاملها والجيش بقائده وجميع افراده فلهم أن ينسحبوا من وجه العدو إذا أيقنوا بالهلاك أو ضياع أكثرهم ، ونقول ينسحبوا ولا نقول يفروا والانسحاب هو ما فعله خالد رضي الله عنه في غزوة مؤته ، حين أخذ الراية ودافع القوم وحاشى بهم ثم انحاز وانحيز عنه حتى انصرف بالناس ، ومع كل هذا فقد كان يفهم أصحاب رسول الله أن هؤلاء قد فروا .

وعلى هذا الفهم نحمل حديث ابن عمر الذي جاء فيه فحاص الناس حيصة وجاء فيه كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب والذي يبدو لنا فيه أن السرية بكاملها رجعت إلى رسول الله عليه صلوات الله ولا نفهم مما جاء في الحديث أن فريقا صمدوا للعدو وآخرين فروا وتركوا إخوانهم وقد قال أبو بكر بن العربي في شرحه على الجامع للترمذي بشأن هذا الحديث : يحتمل أن يكون القوم فروا في موضع الفرار يريد فرارا يعذرون فيه فلذلك لم يلمهم النبي عليه الصلاة والسلام ويحتمل أنهم فروا في غير موضعه فعفا النبي عليه الصلاة والسلام عنهم والأول أظهر ، أي أنه يؤثر أنهم فروا فراراً لا لوم عليهم فيه وعلى هذا الفهم ننزل كلام عمر رضي الله عنه الذي يروى عنه لو تحيز لي ابو عبيد إن كنت لفئة وقد كان أبو عبيد قائد الجيش .

قال القاسمي في مسألة الفرار إن ذلك يرجع إلى ظن المقاتل واجتهاده فإن ظن المقاومة لم يحل له الفرار وإن ظن الهلاك جاز الفرار إلى فئة وإن بعدت إذا لم يقصد الإقلاع عن الجهاد وحمل عليه حديث ابن عمر المذكور أقول وكل هذا الذي ذكر إذا لم يكن المقاتل فرداً من أفراد جيش منظم فإذا كان كذلك فعليه الاتباع والتزام ما عليه الجيش الذي ينتمي اليه إلى النهاية وأما إذا كان منفردا أو كان هو قائد الجيش فما ذكر صحيح . يقول القاسمي وعن الكرخي أن الثبات واجب والمصابرة كذلك إلا إذا خشي الاستئصال وعرف عدم نكايته للكفار والتجأ إلى مصرٍ للمسلمين أو جيش وهكذا أطلق فلم يبح الفرار إلا بهذه الشروط الثلاثة ولم يعتبر العدد الذي سبق ذكره .

ونجد القول الأخير أقرب إلى الصواب فليس العدد المقياس الأخير للحكم ولا سيا في أيامنا هذه التي توصل الأعداء فيها إلى سبق الصوت وتفجير الذرة والسبح في الفضاء .

وخلاصة القول الذي ارتضينا : إذا خشيت الفئة المقاتلة المسلمة الاستئصال وتيقنت في الوقت نفسه أنها ولو استؤصلت لن تبلغ في النكاية بالعدو مبلغا ذا غناء فلها أن تدع ميدان القتال ولكن لا لاستسلام للعدو ولا لترك الجهاد بل للحاق بأرض أخرى والانضمام إلى فئة أخرى لشق ميدان جديد وفتح جبهة ثانية وكل هذا لا يتم على مستوى الأفراد ولكنه يتم في رأي الجماعة .

وهذه الشروط على غاية من الأهمية ويجب أن تتم كلها معاً ومعنى هذه الشروط أن المسلمين لا يمكن أن يستسلموا كاستسلامهم الحاضر و يطمئنوا كاطمئنانهم المقترن بالذل والموت ولكنهم في حركة دائمة وفكر دائم وجهاد لا ينقطع .

« يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم و بئس المصير» .

ما هو موقف المسلمين من الحكم الإلهي الذي تضمنته الآية الكريمة ؟

تشمل الإجابة نقاطاً أربعاً :

اولها موقف المسلمين الأولين من الآية الكريمة .

وثانيها تربية الأصحاب رضوان الله عليهم تربية بيع النفس في سبيل الله وهذه التربية ذات فرعين أولها التربية المكية والثانية التربية المدنية .

الثالث موقف المسلمين الحالي من الآية الكريمة .

الرابع ما يجب أن يكون عليه موقف المسلمين من الآية الكريمة في الأيام التي يغلب فيها المسلمون على أمرهم .

موقف المسلمين الأولين من الآية الكريمة :

أوجدت الآية الكريمة بندائها الحازم وجوها الرهيب وتهديدها المريع لدى المسلمين الأولين شعورا بأنه لا يجوز للمؤمن أن يفر من زحف المشركين وإن كان عددهم بعدد

الرمل والحصا وإن ملأوا السهل والجبل ، ولم يكن ليقوم في أذهان المؤمنين السابقين في مواطن اللقاء أن العدو أكثر منهم عددًا وأقوى عُدَداً ذلك لأن النصر بيد الله والغلبة بعونه وإنه لما يخدش في عقيدة المسلم أن يخشى مناجزة الكافرين ، وان كثر عددهم واشتد بأسهم ، والله تباركت أسماؤه يعتب على المؤمنين أن يخشوا الناس يقول تعالى « أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين » ، وفي الآية إنكار وتعجب ووعيد ، وفي قوله تعالى : « فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية » تعنيف وزراية بأولئك الذين يخشون الناس والآية الكريمة نفسها تبين سر الضعف قال تعالى :

« وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب ؟ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً » ، مفتاح السر في قوله تعالى متاع الدنيا قليل وعليه مدار الأمر كله .

وهكذا كان أمر الفرار من الزحف متصلا بالعقيدة اتصالاً واضحا ذلك أن الباعث له الحرص على متاع الدنيا والزهد في الآخرة ، والثبات يوم الزحف مبعثه الايمان بقوة الله جل شأنه وأنه الغالب على أمره القاهر فوق عباده والطمأنينة إلى نصره والثقة بما عنده وما عند الله خير وأبقى وأن الموت لا يعجل به إقدام ولا يبطيء به قعود وإحجام .

من هنا كان المسلمون في مؤتة ثلاثة آلاف ، لما بلغوا معان من أرض الشام بلغهم أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم ، وانضم إليهم من لخم وجذام والقين وبهراء وبليّ مائة ألف ، فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين يفكرون في أمرهم وقالوا نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنخبره بعدد عدونا فإما أن يمدنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له .

وهنا نجد منطقا معقولا لاغبار عليه ولا ثلمة فيه ولكنه لم يوضع موضع التنفيذ وكان العامل في ذلك اقتراح تقدم به عبد الله بن رواحة إذ قام فقال : ياقوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة وما نقاتل الناس بعدد ولاقوة ولا كثرة مانقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين إما ظهور وإما شهادة فقال الناس قد صدق والله ابن رواحة فمضى الناس .

وقد استشهد في الموقعة زيد بن حارثة واستشهد جعفر بن ابي طالب واستشهد عبد الله بن رواحة . يروي البخاري في صحيحة عن عبد الله بن عمر قال:كنت فيهم في تلك الغزوة فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى ووجدنا ما في جسده بضعا وتسعين من طعنة ورمية .

ولقي الروم من شدة وطأة المسلمين ماجعلهم يرضون من الغنيمة بالإياب وبأن يكف المسلمون عنهم : يقول ابن اسحاق « فحاش خالد الناس ودافع وانحاز وانحيز عنه » وهذه المدافعة تشير إلى ماأبدى خالد للعدو من البأس ، يروي البخاري في صحيحه عن قيس قال سمعت خالد بن الوليد يقول : « لقد دقّ في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف وصبرت في يدي صفيحة لي يمانية » و يقول البخاري أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم يقول ابن حجر « فمن يومئذ سمي سيف الله » . ثم انحاز خالد رضي الله عنه فرأى الروم في انحيازه متنفسا للضيق الذي كانوا فيه فلما انحاز انحاز الأعداء . يقول ابن حجر وقع في المغازي لموسى بن عقبة(وهي أصح المغازي) مانصه : « ثم اصطلح المسلمون على خالد بن الوليد فهزم الله العدو وأظهر المسلمين » و يبدو بأن قوله عليه الصلاة والسلام حتى فتح الله عليه المراد به انحيازه بالمسلمين حتى رجعوا سالمين .(١)

يقول ابن اسحاق حتى انصرف خالد بالناس ووصل المدينة واستقبلهم الناس وجعلوا يحثون على الجيش التراب و يقولون يافرار، فررتم في سبيل الله فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى .

وقد ذكرنا حديث ابن عمر رضي الله عنهما وقد جاء فيه « فررنا من الزحف و بؤنا بالغضب » وهكذا كان يفهم أصحاب رسول الله أنه لاعذر لهم في الفرار مهما كانت الظروف والأحوال .

---

(١) : نقل ابن حجر رواية ابن اسحاق بالنص التالى : « فحاش خالد الناس ودافع وانحاز وانحيز عنه » وفي اللسان : يحوشهم أي يجمعهم والمعنى على هذا جمع أصحابه ودافع الأعداء ثم انحاز عنهم فانحازوا عنه وعن أصحابه .

تربية بيع النفس لدى أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم

كان الأصحاب في مكة رضوان الله عليهم يمثلون الجماعة التي أخذت على نفسها حماية الحق الذي آمنت به وإن كان من وراء ذلك جفوة الأهل وسخط العشيرة وإن كان من وراء ذلك العذاب والنكال .

وكانت آيات الكتاب الحكيم تقص عليهم نبأ الذين كانوا من قبلهم تتفتح قلوبهم لدعوة الحق والإيمان بالله فيفتنهم الذين كفروا فلا يصرفهم العذاب عن ايمانهم ، كان الأصحاب يتلون تلك الآيات و يعاهدون على الثبات كما ثبت المؤمنون من قبلهم .

ولم تكن نفوسهم تلك النفوس التي ترضى بأن تحتمل ضيا ، ولكنها التربية الحكيمة الكاملة ، الطاعة لله ولرسوله والضبط والإحكام ، قيل لهم كفوا أيديكم فكفوا أيديهم وأخذوا يروضون أنفسهم على الصبر والأناة واحتمال جهل الجاهلين و بغي الطاغين .

ماذا يكون لو أن مؤمنا من المؤمنين غضب غضبة في سبيل الحق يومئذ فامتدت يده إلى رأس من رؤوس الكفر فأزاله ، لو وقع شيء من ذلك لاتخذ المشركون ذلك ذريعة لإفناء المؤمنين جميعا وهو في قلتهم حينذاك .

ولم يكن المؤمنون ذاك اليوم في ذل ولا استخذاء ولا يأس ولا وهن ولكنهم كانوا يحتملون الأذى والموت في سبيل الله وعيونهم قريرة وقلوبهم مطمئنة إلى نصر الله ونفوسهم مستعلية على شرك المشركين وضلالهم وفتنتهم .

ثلاثة عشر عاما تمر في تربية الضبط والإحكام وتمهد للأعوام العشرة المدنية التي تلتها التي تم فيها فتح الجزيرة العربية وهذه تمهد للأعوام التي تلتها أيضا التي امتد فيها الاسلام إلى أقصى المشرق وأقصى المغرب .

انتهت المرحلة الأولى ببيعة العقبة الكبرى حين بايع أصحاب العقبة رسول الله عليه صلوات الله وسلامه عليه على السمع والطاعة في المنشط والمكره والعسر واليسر وأثره عليهم وأن يقولوا بالحق أينما كانوا لا يخشون في الحق لومة لائم .

وهنالك أذن للذين يقاتلون .

وانتهت المرحلة الأولى وكان الإذن من عند الله العلي القدير.

وإنه لأمر عظيم أن يضع مخطط المعركة الحكيم الخبير وذلك لتظل تلك الفئة المؤمنة نموذجا في الحياة الانسانية يتطلع المؤمنون إليه كلما أرادوا العود إلى الحياة الحقيقية.

أُذِنَ للذين يقاتلون بسبب أنهم ظلموا ولو أنهم لم يظلموا ولم يفتنوا عن دينهم ولم يخرجوا من ديارهم لما كانت هنالك حاجة لقتال ولكنها سنة الله في خلقه : ما وجد دعاة الحق في قطر من الأقطار أو عصر من الأعصار إلا صُب عليهم العذاب والطرد والإيذاء والاستهزاء وفي حديث عائشة عند البخاري قال رسول الله عليه الصلاة والسلام لورقة بن نوفل « أو مخرجي هم ؟ قال نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ».

وفي مدينة رسول الله عليه صلوات الله وسلامه تربية ثانية يؤخذ بها المؤمنون تختلف عن التربية الأولى قليلاً في مظهرها واتجاهها لا في روحها وحقيقتها.

كانت التربية الأولى ضبطاً للنفس وصبراً على الأذى وتبليغاً للدعوة وإعداداً للعدة مع حبس دواعي الانطلاق وكف حدة الإقدام أما التربية الثانية فهي تبني على الأسس السابقة ثم تدفع المؤمنين دفعاً قوياً إلى الانطلاق في سبيل الله للضرب على أيدي أعداء الله بقوة لا تعرف الضعف وعزيمة لا تعرف الوهن.

كان طابع التربية في المدينة طابع الإقدام والموت في سبيل الله وبيع النفس ابتغاء مرضاة الله ليطمئن المؤمنون في ديارهم وليقضي على الشر والشرك والباطل والطواغيت، وكل هذا يحتاج إلى سهر دائم وتحفز مستمر ودفع قوي وفي كل هذا يجب أن يكون لدى المؤمنين منعة في نفوسهم وقوة في أرواحهم تربأ بهم أن يخلدوا إلى الأرض أو يضعفوا أو يستكينوا.

كان أول ما قرع اسماعهم في المرحلة الثانية الإذن : « اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وقبل أن يؤذن لهم اعلموا في الآية نفسها تثبيتا لقلوبهم بأن الله يدافع عن الذين آمنوا وبعد أن أذن لهم بشروا بأن الله على نصرهم لقدير.

وبعد أن أذن لهم وبعد أن بشروا بنصر الله ذكرت لهم أسباب مقاتلة هؤلاء قيل لهم « إن تركتم هؤلاء الآثمين فستهدم بيوت الله التي يذكر فيها اسم الله » (ولولا دفع الله

الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامعُ و بيعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يذكر فيها اسم الله كثيرا)
وتعود الآيات الكريمة ثانية وثالثة فتطمئن المؤمنين وتقر في قلوبهم السكينة « ولينصرَن الله
من ينصره إن الله لقوي عز يز » .

والله تبارك اسماؤه خلق هذا الانسان وهو أعلم به يهدئ روعه و يسكن فؤاده
و يعده جل شأنه و يوثقُ موعده بأنه معه و بأنه ناصره كأنما يشير ذلك إلى أن ما ركب فيه
من ضعف وهلع وجزع بحاجة شديدة إلى التثبيت والتأييد والعون الدائم والتطمين .

أذن للمؤمنين في المدينة بالقتال ثم أمروا به ثم نهوا وهم في غمرة النداء الا يعتدوا
فليس الاذن بالقتال إذنا بالاعتداء ، أين هذا من مكر الأعداء الذين يزعمون أنهم تسنموا
ذروة المدنية اليوم حين يعترفون أنفسهم بأنهم للوصول إلى أغراضهم من تسيير الشعوب كما
ير يدون واللعب بها كما يشاؤون لا يبالون باللجوء إلى وسائل شر يفة أو غير شر يفة .

أذن بالقتال ثم أمر به وفرض على المسلمين فرضاً فهو أمر في كتاب الله كما فرضت
الفرائض وشرعت الأركان ولكن الله الخبير بالنفوس يقول انه شيء مكروه و يبين جل
شأنه أن هذا المكروه هو خير . « كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا
وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

والجهاد وإن كان مكروهاً من بعض النفوس فهو محبوب من نفوس أخرى « ومن
الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد » وهو وسيلة دخول الجنة
ولابد للمؤمن من أن تمسه البأساء والضراء و يزلزل زلزالا شديدا في سبيل الله ، قال
تعالى : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء
والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله
قر يب »

ويحول بين المؤمن و بين الجهاد خوف الموت ولذا ضرب الله للمؤمنين الأمثال في
الأمم التي قد خلت : خرج أناس وهو ألوف من ديارهم فار ين من الموت فأدركهم
الموت جميعاً في خروجهم وفي فرارهم ثم أحياهم جل شأنه ليروا معنى الحياة و يدركوا
معنى الموت و يتبين لهم وللناس من بعدهم أن الموت ليس بذلك الشبح الذي يخافه المؤمن
ويجزع للقياه .

« ألم تروا إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون » وتلا هذه الآية الأمر بالقتال والامر بالانفاق : « وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم » .

أذن جل شأنه بالقتال ثم أمر به وفرضه على مؤمني المدينة ثم أمر بالإنفاق في سبيل الله وسمى تباركت اسماؤه ترك الانفاق إلقاءً باليد إلى التهلكة قال تعالى « وانفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين »

وهذا المفهوم أعني تسمية ترك الانفاق القاء باليد إلى التهلكة هو الذي تعطيه الآية الكريمة وهو التفسير الذي ذهب إليه أبو أيوب الأنصاري صاحب رسول الله في حديث يرويه عنه أبو داود في سننه قال فيه : إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار لما نصر الله نبيه وأظهر الاسلام قلنا هلمّ نقيم في أموالنا ونصلحها فأنزل الله تعالى : « وانفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » فالإلقاء بالأيدي إلى التهلكة أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد ، قال ابو عمران وهو الراوي عن ابي أيوب : فلم يزل أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية . اخرجه الترمذي والنسائي وقال الترمذي حسن صحيح .

كل هذه الآيات الكريمة التي تلوناها في سورة البقرة ، وقد جاء في الجزء الأخير من السورة الكريمة دعوة إلى الإنفاق حازمة نتلو من بعض آياتها قوله تعالى « وانفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتيَ يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون » ونتلو أيضا « الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية لهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وكان محور السورة الكريمة الجهاد والإنفاق في سبيل الله كما مر بنا من قبل .

وقد ابتدئ نزول هذه السورة الكريمة أي سورة البقرة في السنة الأولى من الهجرة تمهيدا للأيام المقبلة ، وكانت آيات الله تتنزل على المؤمنين فتبلغ قرارة نفوسهم وتستقر في أعماق افئدتهم حتى إذا كانت السنة الثانية جنى المسلمون ثمرات تلك التربية وكان يوم الفرقان وكان النصر الأكبر .

ولم تبنته المهمة ههنا ولكنها بدئت ، يوم بدر وكان يوم الفرقان أول السبيل التي

تشرف علي فتح مشارق الأرض ومغاربها ولقد استقر الايمان في قلوب المؤمنين بعد الموقعة ورأوا بأعينهم نصر الله وأيقنوا أن الله معهم وأن الملائكة تثبتهم وتؤ يدهم فماذا بعد هذا ؟ ليس بعد الايمان بنصر الله إلا الإقدام وليس للمؤمنين بعد رؤ ية النصر أن يفروا من موقعة أو يخشوا عدوا ، وها هو حكم الله من علياء سمائه حازما صارما يفادى المسلمين ويحكم عليهم أبد الدهر بأن من يفر من الزحف فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم و بئس المصير. ولم يوضح الحكم بصيغة الأحكام ولكن صور الكافر ين وهم زاحفون كموج البحر والمؤمنون في لقائهم واستقبالهم ، وفي هذه الصورة التي تضع المشهد أمام أعين المؤمنين يأتي الأمر من عند الله بأنه من يولهم دبره في هذه الحال فقد باء بغضب من الله .

وانه لحكم صارم وأمر شديد ولكن المؤمن يمتثل أمر الله و يسلم نفسه الى الله وهنالك تتغير المقاييس و يصبح الصعب سهلا والعسير يسيرا .

وإذن فلا بد من طاعة الله والتزام أمره ولابد من السماع لآيات الله بقلوب واعية وآذان صاغية ، إن هنالك أناسا يسمعون ولكنهم لايسمعون وينظرون ولكنهم لاينظرون ، والله جل ثناؤه يصف هؤلاء و يعيذنا أن نكون منهم إن هؤلاء هم شر الدواب .

قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وانتم تسمعون ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لايسمعون إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لايعقلون» .

ولايكفي في الأمر الطاعة فحسب أو دعوى الطاعة ، إن الطاعة الحقيقية لابد أن تثمر تلبية واستجابة ،والاستجابة أبلغ من الإجابة فهي طاعة والتزام وامتثال وتعجيل بالتنفيذ ، وهذه الاستجابة استجابة لله وللرسول إذا دعانا الله ورسوله ، وهذه الاستجابة فيها الحياة وفي تركها الموت وهذا الحكم ينطبق على كل أمر يأمرنا به الله وكل دعاء يدعونا اليه .

والأمر هنا عدم الفرار من الزحف . وهذا هو النداء الثاني بعد الأول : « ياايها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم»

ويجب أن يعلم المؤمن أن حق الله على عباده المؤمنين أن يطيعوه والعهد اليهم أن يمتثلوا أمره فإن لم يفعلوا فقد خانوا الله ورسوله . فمجانبة أمر الله خيانة وأمره ههنا جهاد وموت في سبيله فالجهاد في الآيات الكريمة محور الموضوع وعليه مدار الحديث وتركه خيانة لله ورسوله .قالى تعالى :

« ياأيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وانتم تعلمون » وثمرة الطاعة والاستجابة التقوى وثمرة التقوى نور في وجه المؤمن وفي سلوكه وفي قلبه و بصيرته نور يفرق به بين الحق والباطل و يفترق به عن غير أمثاله من المتقين ، وهذا النور سماه الله تعالي فرقانا قال تعالى : « ياأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا و يكفر عنكم سيئاتكم و يغفر لكم والله ذو الفضل العظيم » .

وهكذا اتبع النداء الذي يحذر من الفرار يوم الزحف بأربع نداءات متلاحقه تؤيده وتؤكده تدعو الى الطاعة والاستجابة وعدم الخيانة والتقوى .

وفي السياق الكريم يؤمر المؤمنون ثانية بعد آيات أن يثبتوا عند لقاء الكافرين ثم يؤمرون أن يعدوا العدة للقائهم ثم يؤمرون بأن يقابل الواحد منهم عشرة من الأعداء ويخفف الحكم فيجعل للواحد اثنان .

قال تعالي : « ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » .

قال تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم »

وقال تعالى : « ياأيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لايفقهون الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله والله مع الصابرين »

ولما جاءت السنة الثالثة كان ثمرة هذه التربية ثبات المؤمنين حول رسول الله عليه صلوات الله وسلامه بعد أن أصابهم القرح و بعد أن تصدع بناء جيش المسلمين في أحد

وكانت تلك التربية كفيلة بلم الشعث وإعادة البناء ولولا فضل الله وثبات رسوله عليه صلوات الله وسلامه وثبات النفر اليسير حوله يبيعون أرواحهم في سبيل الله و يتساقطون عند قدمي رسول الله لما قامت للمؤمنين قائمة وتنزلت الآيات الكريمة بعد الموقعة هادية مرشدة تهيب بالمؤمنين ألا يهنوا ولايحزنوا .

قال تعالى : « ولاتهنوا ولاتحزنوا وانتم الأعلون ان كنتم مؤمنين » وفي السنة الرابعة طرد المومنون يهود بني النضير من المدينة ونزلت الآيات مفتتحة بنشيد قدسي ليس فيه ثناء على الظافرين وليس فيه إطراء للفاتحين ولكن الذي يستحق الثناء هو الله وحده .

« سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم هو الذي أخرج الذين كفروا من اهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ماظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وايدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار» .

وفي السنة الخامسة للهجرة ظهرت ثمرات التربية كلّها في موقعة الأحزاب لقد اجتمع العرب جميعا على المسلمين ورموهم عن قوس واحدة وما كان أحد ليصبركصبرهم على الخوف والشدائد والجوع والبرد كان ليلهم نهارا وكانوا يبيتون في حراسة المدينة من المشركين ومن اليهود الغادرين ولم تكن موقعة أشد على رسول الله وأخوف على المسلمين من موقعة الأحزاب .

قال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا ، إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار و بلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا »

هذه خمس سنوات تنقضي في جهاد المؤمنين واستبسالهم ، وهزيمة الأحزاب هي الحد الفاصل بين عهدين أيضا فلقد اعتدلت الكفة وتغيرت الوجهة واصبح المسلمون يُرهبون ولا يَرهبون ويهاجِمون ولا يُهاجمون قال عليه الصلاة والسلام حين رأى الأحزاب قد انكشفت « اليوم نغزوهم ولايغزوننا »

و بعد سورة الأحزاب نزلت سورة الممتحنة و بعدها سورة النساء وفي سورة النساء

دعوة للمؤمنين لإنقاذ إخوانهم المستضعفين المعذبين في مكة .

قال تعالى : « فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتلْ او يغلبْ فسوف نؤتيه اجرا عظيما وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا »

وفي السنة السادسة بدئت خطة الإنقاذ وكان صلح الحديبية وكان فتحا مبينا وكان تمهيدا لدخول الناس في دين الله افواجا .

قال تعالى : « إنّا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر و يتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما و ينصرك الله نصرا عزيزا »

وفي السنة السابعة توجه المسلمون من المدينة الى مشارف الشام لغزو الروم.وفي السنة الثامنة دخل محمد عليه الصلاة والسلام مكة مع عشرة آلاف من أصحابه خاشعاً لله مطأطئا رأسه ليرى الذين أخرجوه وقاتلوه ونابذوه ويقول لهم اذهبوا فأنتم الطلقاء .

وفي السنة التاسعة يعاود الكرّةَ عليه صلوات الله وسلامه في جيش عظيم يقوده بنفسه الى بلاد الروم و يرسل في ذلك العام أبابكر ليحج بالناس فيعقبه بعلي يتلو صدرا من سورة براءة ويخبر المشركين بأنه لايدخل المسجد الحرام بعد اليوم مشرك ولايطوف بالبيت عريان ومن كان له عهد عند رسول الله فعهده الى أجله وتتم الغلبة للمسلمين و يعلي الله كلمته فيتبرأ الله من المشركين و يعطون مهلة مقدارها أربعة اشهر يسيحون فيها في الأرض كما يشاؤون فاذا انتهت الأشهر الأربعة أُخذ المشركون وحصروا وقتلوا وقعد المسلمون لهم كل مرصد .

قال تعالى :

« براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا في الأرض اربعة اشهر واعلموا انكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين » والى قوله تعالى « فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتُوا الزكاة فخلواسبيلهم ان الله غفور رحيم » .

وهكذا ارتفع لواء الاسلام ، وأعلى الله منارته ، وما كان الاسلام دين عبادة فحسب وصلاة وصيام وحج وزكاة ولكنه قبل هذه الفرائض والى جانب هذه الأركان ، كان حركة دائمة منظمة ترمي الى جمع قوى الخير في الدنيا وتنظيمها لضرب قوى الشر ودفعها وتحطيمها .

وهذا المعنى فقده المسلمون بكل أسف وأضاعوه واستناموا واستكانوا وكفوا ايديهم ورضوا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وما هي بالصلاة التي أمر بها الله ولابالزكاة التي يحبها الله وعدو الله رابض بالقرب منهم يراوغهم مراوغة الثعلب و يأخذ في كل يوم جزءا من دينهم و يقتطع قطعة من عقيدتهم و يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان الا غرورا .

وان الدعاة الذين لايعرضون الاسلام هذا العرض ولايفهمونه هذا الفهم ولايبلغونه هذا التبليغ مسئولون عند الله محاسبون أمام ربهم .

موقف المسلمين اليوم من الآية الكريمة

موقف المسلمين اليوم في البلاد الاسلامية واحد : عدو غاشم يكتسح الديار يوما بعد يوم و يستحل الحرمات الواحدة تلو الأخرى ولاينقطع عن النكاية والعداوة بكل أصناف النكاية والعداوة ، وهو لايبدو اليوم مباشرا العداء بنفسه ولكنه يعمل خلف الستار يبعث أعوانه و يبث أجناده و يتلاعب بالشعوب .

والمسلمون اليوم قد نسوا أمرا واحداً:صناعة الموت وحرفة القتال .

وان المرحلة التي يمر بها المسلمون اليوم لم يسبق لها مثيل في التاريخ أبدا ذلك أن كيد العدو مابلغ في يوم في إحكامه ونفاذه واتساع مداه مابلغ اليوم ، وما بلغ استسلام المسلمين في يوم مابلغه استسلامهم اليوم . . . وما يؤذن كل ذلك إلاباقتراب الفرج ذلك أن الأزمة قد بلغت غايتها والعدو قد بلغ في تطويقه النهاية . . . وههنا يزداد المؤمن ثقة بالله و بعونه ونصره و يستبشر المؤمن كما كان يستبشر رسول الله عليه صلوات الله وسلامه حينما تحدق الخطوب وتشتد الكروب .

إن بشائر الأمل لا تنقطع ولكن ساعة الانطلاق لم تؤذن بعد ومازلنا في مرحلة لايشعر الفرد منا فيها أن عليه أن يحمل التبعة ولو كان وحده ولكنا يلوم بعضنا بعضا و يلقي كل منا التبعة على غيره .

وإن الأجيال ستوجه الينا العتاب الطويل وان الله تباركت أسماؤه سيسألنا كيف أسلمنا الأمر بأيدينا لخصومنا ؟ وكيف سلونا عن واجبنا وكيف لهونا عن عدونا أين كنا حين سطا الأعداء وماذا فعلنا حين غلب الدخلاء وكيف استقرت بنا الأرض بعد أن قَهَرَنا الأذلآء.

وإن كثيرين من ابناء هذا الجيل الذين أشرفوا على آخر العمر من أمثالي لايحبون أن يسمعوا كلمة القتال ولايروق لهم أن يُتَحدَّث عن الجهاد ولقد سمعت اللوم من كثيرين من عامة الناس وخاصتهم ؟ سمعت من كثيرين من الأماثل يقولون : أليس هنالك موضوع غير الجهاد ؟أليس في الإسلام فريضة إلآ فريضة الجهاد ؟

كيف يمكن الجهاد والمسلمون مشتتون وقلوبهم متفرقة والجهل غالب والبعد عن الروح الإسلامية عام شامل ؟

ألايشبه حال المسلمين اليوم حال أهل مكة وقد قيل لهم « كفوا ايديكم واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة»

وأقول إن العلة الحقيقية هي ماغلب على قلوب المسلمين،علمائهم وعامتهم من حب للدنيا وكراهية للموت ، والذي يحول بيننا و بين العمل في سبيل الله والدعوة الى الله والصدع بالحق هو الخوف على الدنيا والخوف من الموت .

إن التربية على حب الدنيا وكراهية الموت غرست في قلوبنا واحكم غراسها في اعماق نفوسنا اتفق على ذلك آباؤنا ومعلومنا واخواننا ومجتمعنا ، على ذلك ربينا نحن أيضا الأبناء ونشأنا الأجيال .

إن الجهاد اليوم حق على المسلمين جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها وهو موضوع الساعة وليس هنالك اليوم بعد الايمان بالله وأداء الأركان فريضة آكد من فريضة الجهاد ذلك أنه الوسيلة اليوم لحفظ إيمان المؤمنين وتركه يؤدي الى ضياع الفرائض كلها إذ يسمح لأعداء الله بفتنة المسلمين وإخراجهم من دينهم .

ولقد جُحِدَ الإله جل شأنه في الصحف الرسمية في بعض البلاد الاسلامية واستهزئ به تباركت اسماؤه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا وحرق المسجد الأقصى على مرأى ومسمع من المسلمين كل ذلك لأن مهابة المسلمين قد نزعت من صدور الكافرين ، ولكن الأدهى من كل هذا أن تخطيط الأعداء ومكرهم لم ينته عند هذا الحد ذلك أنه ماتزال في

المسلمين بقية يخشى الأعداء نموها وعودتها الى أيامها الأولى ولن يطمئن هؤلاء حتى تزول البقية الباقية ، ولكن الله غالب على أمره واننا كما نؤمن بأن الله ربنا نؤمن بأن الله ناصر دينه معلٍ كلمته وسيكون ذلك بالمسلمين أنفسهم وإن اصابهم اليوم ما أصابهم .

إن الله قد فرض علينا القتال وان المسلمين يدفعون اليوم هذه الفريضة بأعذار واهية ولو أنهم آمنوا بالله وامتثلوا أمره لوجدوا السبيل لدفع الأعذار وقطع دابرها .

واما القائلون كيف يمكن الجهادوالمسلمون مشتتون جاهلون بعيدون من معاني دينهم والجواب علاج هذه كلها بالدخول في ميادين القتال ، لقد عرف النصارى الصليبيون الغربيون أنفسهم ووجدوا وحدتهم وخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه بعد أن خرجوا من قتال المسلمين مائتي عام لقد بدأت يقظتهم بعد تلك الأعوام بأعوام يسيرة وكانت نهضتهم التي استمرت إلى أيامنا هذه .

إن المسلمين لم يشعروا بَعْدُ بالنكبات التي حلت بهم والخطر الذي يحفهم وما تزال وسائل التخدير ماضية لا تسمح للمسلمين أن يفتحوا عقولهماو أبصارهم ، ولو شعر المسلمون بالخطر لاجتمعت قلوبهم فليس شيء يجمع القلوب كالمحنة حين تعم .

لم يشعر المسلمون بالمحنة لأنهم لم يدخلوا جميعا في صف واحد في قتال العدو ولو دخلوا لشعروا بوطأة المحنة .

إن العدو اليوم لايستعمل أسلحته المادية في قتال المسلمين ولكن لديه إلى جانب ذلك أسلحة نفسية ومكتشفات علمية وهو أمضى من الأسلحة الأولى وغرض الثانيةأن يستسلم المسلمون إلى نومتهم ويظلوا في رقادهم .

إن أعظم ميدان للتربية ميادين القتال ذلك أن الذي قدم نفسه للموت في سبيل الله واستطاع أن يجاهد نفسه حتى وصل إلى هذه الغاية يهون عليه أي جهاد آخر ففى هذه الميادين تخلص النفوس وتمحص النوايا وتصدق العزائم وتصفو القلوب وانه لمن الخطأ الكبير أن يقول بعض شباننا الصالحين يجب أن نكمل تربية نفوسنا لندخل الميدان بل الصواب أن يقال يجب أن ندخل نحن المؤمنين الميدان ليتم ايماننا وتكمل تربيتنا .

وأما قول القائلين بأنالمسلميناليوم في مرحلة تشبه المرحلة المكية فهو خطأ من وجوه :

أولها: أن الأصحاب رضوان الله عليهم لم يكونوا في مكة في نوم ولا استسلام لأعداء الله ولكنهم كانوا في أعلى درجات الجهاد معلنين ايمانهم بالله وكفرهم بالطواغيت

و بأنظمة المجتمع الجاهلي وعقائده وأعرافه منسحبين منه انسحابا تاما محاربين له مجاهرين بازدرائهم إياه خارجين عليه خروجا تاماً في عقيدته ومثله وأعرافه وتقاليدهولقد كانوا لكل هذا في تحد دائم ، وصبر مستمر على العذاب والأذى والاضطهاد ، لقد صبروا وهاجروا مرتين وأوذوا وقوطعوا حتى أكلوا أوراق الشجر.

إن الموضوع اليوم موضوع القتالوإنها ساعة النفير العام وإنها ساعة الجهاد والتنافس في الجهاد والساعة التي يجب أن تسري فيها عدوى الجهاد في قلوب المؤمنين من فئة الى فئة .

وإن العدو اليوم لا يجد في أمر المسلمين حيرة ولا يجد عناء بل المسلمون اليوم كما يريد الأعداء هادئون مطمئنون يساقون الى الموت وهم غافلون ولو فزع كل مسلم إلى سلاحه كما أمر الله لتحير العدو ودهش .

أين المسلمون اليوم من كل هذا في استسلامهم لجاهلية اليوم وسكوتهم عنها ومشاركتهم فيها وتأثرهم بها .

لقد كان أصحاب رسول الله في مكة جادين عازمين مصممين و يعدون العدة ويجمعون القوى لليوم الذي يواجهون فيه العدو ، والمسلمون اليوم في لعب .

ولابد من الخروج من دور اللعب ودور الأماني إلى دور الجد والعزيمة والاستخفاف بالموت وهنالك يضع المسلمون قدمهم علىالجادة التي لا عثار فيها .

الأمر الثاني : إن الله قد أتم دينه وأكمل نعمته وحد حدوده وفرض فرائضه وأحكم شريعته وحكم القتال اليوم في شرعة الله فرض عين في رقبة كل مسلم من تركه كان مخالفاً لأمر الله واقعاً في الإثم ، والقتال في المرحلة المكية كان منهيا عنه لم يؤذن به ولم يسمح للمؤمنين فكيف يصح أن تقاس الحال التي لم يفرض فيها القتال ولم يؤذن به بالحال التي يكون القتال فيها فرضاً عينيا من قصرفيه كان من أهل الاثم والوعيد .

الأمر الثالث : كان عدد الأصحابفي العهدالمكي لا يزيد عن بضع مئات وعدد المسلمين اليوم سبعمائة مليون كلهم رجالا ونساء شباباً وشيوخا فرض الله جل شأنه عليهم القتال فرض عين في هذه الساعات الرهيبة فكيف تقاس مئات الملايين على بضع مئين ؟

ما يجب أن يكون عليه موقف المسلمين اليوم من الآية الكريمة يبينه قوله تعالى:
« وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا و يتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين »

كل أمر في هذا الكون لا يتم الا بتدبيره جل شأنه وتقديره وفي كل ذلك تحاط الوقائع بحكمته و يتخللها منّه وكرمه ورحمته ومن الحوادث أن يرفع أقواماً جل شأنه و يضع آخرين ، وقد يكون اولئك الذين رفعهم وأعلى ألويتهم أنصار الباطل دعاة الشر، وما يرفع الله ألوية هؤلاء لأنهم أثيرون لديه جل شأنه (والله لا يحب الظالمين) ولكن الموضوع أمر آخر هو أنه لابد من أن تنفذ سنن الله في مخلوقاته والآية التي سبقت هذه الآية هي قوله تعالى (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) فللأمم سنن وللمجتمعات قوانين وضعها الخالق البارىء جل شأنه ومن أمثلة هذه السنن قوله تعالى « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » والآية الكريمة تدل دلالة واضحة على أن المترفين هم الآلة المسخرة بيد القدرة الإلهية لتدمير قرية وإفناء أمة . والمترفون هم الذين يجمعون بين النعمة والرخاء والتوسع في ملاذ الدنيا وشهواتها وقد أبطرتهم النعمة وأطغتهم الشهوات ووسيلة هؤلاء الفسوق وهو الخروج عن طاعة الله جل شأنه .

والآيات الكريمة نزلت بعد غزوة أحد وقد كان النصر فيها للمؤمنين ولكن أسباباً وقعت حولت ميزان النصر وغيرت اتجاه الغلبة واضاع المسلمون النصر وكان الأمر لهم فأصبح عليهم والأسباب جلية فيما أخبر به تعالى من أن الله صدق المؤمنين وعده فأخذوا بقتل المشركين واخماد أنفاسهم ثم حدث أمر توجزه الآية الكريمة قال تعالى : « حتى اذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة »

حين وقع الفشل وهو الكسل والضعف والتراخي والجبن ، والتنازع والعصيان وإرادة الدنيا أضاع النصر أصحاب رسول الله .

وهكذا ترشد الآيات الكريمة الى ان لله سنناً اجتماعية تنطبق على المجتمعات الإسلامية وعلى غير المجتمعات الإسلامية وأن هنالك شروطا إذا أضاعتها الجماعات

المسلمة فقدت قيادتها وأسلمت القيادة إلى أعدائها .

ولكن الآية الكريمة ترشد إلى أمر آخر لا يقل أهمية عن الأول وهو مندرج في سنن الله جل شأنه ونظامه الكوني وهو أن المحن والشدائد التي تصيب المسلمين ليست شرا كلها وحين يغلب المسلمون و يدال عليهم فليس معنى ذلك ان الأمة قد تودع منها .

إن للشدائد غرضاً هاماً جدا أن توقظ العيون النائمة وتؤجج الضمائر الهادئه وتثير إيمان ذوي الإيمان فتدفعهم إلى الوقوف أمام الباطل لمناجزته .

وهنا تقدم الضحايا وتقدم الشهداء ويميز الله الخبيث من الطيب و يعلو صوت الايمان وتشتد الأمور حتى يدرك الخطر الجميع وحينما يضيق الخناق و يشعر الأفراد جميعا بشدة وطأة الأعداء تنطلق الصيحات مستغيثة مستجيرة وتشرئب الأعناق لترى تباشير النصر وتطلع القلوب لتنظر آفاق الأمل وهنالك تتقدم طلائع الايمان تستقبل الموت وتحمل في اعماق نفوسها الثقة والرجاء والأمل .

« وتلك الايام نداولها بين الناس » هذه الكلمات اليسيرة تنطوي على تقلبات الأيام وعاديات الزمان وتشير الى التاريخ الطويل في حساب الناس حين تصل أمة الى الذروة ثم تطرأ عليها الطوارئ وتعصف بها العواصف فتتغير القلوب على مر الزمن وتتبدل النفوس وتنحدر الأمة ثم تفيق من غفوتها فإذا هي مستذلة مغلوبة مقهورة .

فمداولة الأيام يقدرها الله لحكم يعلمها جل شأنه .

وقد أشاد تباركت اسماؤه بذكر صنفين من الناس يعلو شأنهم في أيام الشدائد وتسمو مكانتهم اولئك المؤمنون والشهداء قال تعالى : « وليعلم الذين آمنوا و يتخذ منكم شهداء » .

وهكذا كان من حكمة الشدائد التي تصيب الأمة أن يعلم حال الذين آمنوا وأن يتكرم الله جل شأنه فيتخذ الشهداء منهم كما يتخذ أحدنا الأصفياء والأخلاء ولله المثل الأعلى .

وان الآية الكريمة لجديرة بأن تدفع المؤمنين دفعاً قويا إلى إدارك مراميها والعمل بهديها .

والآية الكريمة ترشد المؤمنين إلى ما يجب عمله في مثل هذه الأحوال التي يدال فيها على المؤمنين و يغلبون على أمرهم فلها أغراض كريمة في ثنايا هديها :

الغرض الأول أن يعلم المؤمنون أن لله سننا لا تختلف فالعاملون المجدون يجنون ثمرات عملهم والخاسرون الفاشلون الذين لا يعملون والذين ينتظرون فرج الله و يرجون بزعمهم نصراً دون أن يبذلوا جهدا أو مالاً أو نفساً هؤلاء يكذبون على أنفسهم ويخادعونها و يتجاهلون أن نصر الله لا يكون إلا لمن ينصر الله .

الغرض الثاني أن يعلم المؤمن أن الشدائد التي تصيب المؤمنين ير يد الله جل شأنه بها تمحيص قلوب المؤمنين بتنقية الضمائر من الأغراض الدنيو ية والمنافع الشخصية وتطهير النفوس من أوشابها برجوعها بسبب الشدائد إلى ربها واخلاصها لخالقها ، و بعد ذلك كله ير يد الله جل شأنه أن يتبارى المؤمنون و يتقدم المخلصون الذين هم طلائع الخير ورواد الحق ووسيلة إنقاذ الأمة .

إن الشدائد تخرج أبطالاً وتقدم رجالاً ينسون أنفسهم ومصالحهم و يدعون أغراضهم و يعملون في سبيل الله و يرضى عنهم الله جل شأنه و يرضى عنهم الناس و يعلي الله شأنهم و يكثر أتباعهم و ينصر الله بهم ، كل هذه المعاني مندرجة في قوله تعالى : « وليعلم الله الذين آمنوا و يتخذ منكم شهداء » وفي قوله : « وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافر ين »

والغرض الثالث من هدي الآيات الكريمة ألا يتسرب الوهن في الساعات الرهيبة الى قلوب المؤمنين ولا يغلب عليهم الحزن ولا يجد اليأس اليها سبيلا .

إن الوهن من صفات النفوس الضعيفة التي عدمت ثقتها بنفسها وضعفت صلتها بخالقها ولم يكن لديها ذلك الإدراك النافذ والنظر الثاقب والرأي الحصيف ولم يكن لديها ذلك الضمير النقي الخالص وتلك العزيمة الماضية،تلك هي النفوس التي غلبت عليها شهواتها .

أما النفوس المؤمنة فهي النفوس الواعية اليقظة المدركة النقية الخالصة التي تؤمن بأن الأمور مهما عظمت فهي حقيرة بجانب عون الله ، وهذه النفوس هي التي غلب عليها ايمانها فلا تهن ولا تحزن وتؤمن أنها الغالبة المستعلية باذن الله .

لا يجوز للمؤمن أن يتسرب الوهن إلى قلبه.والسبيل لذلك أن يكون مع الفئة المؤمنة

تـلك الفئة التي ذكرها رسول الله عليه صلوات الله وسلامه ووصفها ليعلم الناس ما يجب أن يـكـونـوا عليه في أيام الشدائد والخطوب قال عليه الصلاة والسلام « لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهر ين إلى يوم القيامة » والراو ية الثانية في صحيح مسلم قال رسـول الله صـلـى الله عـليه وسلم « لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله قاهر ين لعدوهم لايضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك » .

وكثير مـن المسـلمين يظنون بأنفسهم خيرا ويحسبون أنهم من الطائفة التي ذكر رسول الله عـلـيـه صـلوت الله وسلامه ولكنْ المؤمن فطن لقن يحسن محاسبة نفسه ولا تغره دعاويها وفي هذه الروايات الثلاث وصفت الطائفة بأنها تقاتل على الحق و بأنها غالبة .

وأقـول ، أفراد هذه الطائفة هم المؤمنون وهم الشهداء الذين ذكر الله تباركت اسماؤه وهؤلاء لا يهنون ولا يحزنون وهم الأعلون .

الـغـرض الـرابـع في هدي الآيات الكريمة أن يعلم المؤمنون أن ايام الشدائد لابد فيها مـن تـضـحـيات في الأموال والأنفس قال تعالى (ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم و يعلم الصابر ين) .

و يـتـصـل بهـذا ان يرى المؤمن الحياة رخيصة في سبيل الله وان يصدق في عدم خوفه مـن الموت فاذا ادعى أنه لا يخاف الموت في ساعات الأمن فيجب ان يصدّق قوله فعله في سـاعات اللقاء . قال تعالى : « ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وانتم تنظرون » .

و يـؤكد عدم الخوف من الموت قوله تعالى : « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كـتـابـا مـؤجـلاً ومـن يـرد ثـواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكر ين »

الغرض الخامس في هدي الآيات الكريمة في الساعات التي يدال فيها على المؤمنين أنـه لا عـذر للـمـؤمنين في قولهم ليس لنا قيادة نقاتل تحت لوائها ولا نعرف جماعة نطمئن الى الانـضـواء تحـت رايتها لا عذر لهم في ذلك لأن أصحاب رسول الله حين قعد بعضهم وتـركـوا الـقـتـال فـي غزوة أحد حين نادى مناد بأن محمدا عليه الصلاة والسلام قد مات عـنـفـوا عـلـى قعودهم وعوتبوا عتابا شديدا قال تعالى : « وما محمد الا رسول قد خلت من

قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين » .

والغرض الآخير في هذه الآيات الكريمة:التأكيد على وجود الطليعة وأنصار الحق الذين يتقدمون و يستبقون الناس.وصفات هؤلاء أنهم ربيون غلبت عليهم النسبة لله جل شأنه لإ يشار جانب الله عندهم على كل جانب سواه لا يهنون ولا يضعفون ولا يستكينون . قال تعالى : « وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين وما كان قولهم الا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين » .

والخلاصة أن الأمة لا ينقذها في مثل هذه الأيام الا طليعة تتصف بصفات المؤمنين والشهداء تجمع شمل المؤمنين وتكون مع الصادقين تدعو الى الله وتحتمل أنواع الأذى في سبيل ذ لك .

قال تعالى :

« فلم تقتلهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى »

يقول السيد رشيد في تفسيره :

كأنه تعالى يقول : « يا أيها المؤمنون لا تولوا الكفار ظهوركم في القتال أبدا أنتم أولى منهم بالثبات والصبر ثم بنصر الله فها أنتم أولاء قد انتصرتم عليهم على قلة عددكم وعددكم وكثرتهم واستعدادهم وإنما ذلك بتأييد الله لكم وربطه على قلوبكم وتثبيت اقدامكم ، فلم تقتلوهم ذلك القتل الذريع بمحض قوتكم واستعدادكم المادي ولكن الله قتلهم بما كان من تثبيت قلوبكم وإمدادكم بالملائكة وإلقاء الرعب في قلوبهم » .

فالآية بمعنى قوله « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم »

وقال ابن كثير :

يبين تعالى أنه خالق أفعال العباد وأنه المحمود على جميع ما صدر منهم من خير لأنه هو الذي وفقهم لذلك وأعانهم ولهذا قال (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) أي ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم أي بل هو الذي أظفركم عليهم كما

قال (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم اذلة) .
وقال المفسرون الفاء جواب شرط مقدر، والتقدير اذا كان الأمر كذلك **فلم تقتلوهم** بقوتكم وقدرتكم واذا كان الله جل شأنه هو الذي أخرج رسوله من بيته وهو الذي أراد أمراً غير الذي أراده المؤمنون حين أرادوا الفوز بالعير وأراد الله أن يحق الحق وهو جل شأنه الذي غشاهم النعاس وأنزل عليهم الماء من السماء يطهرهم و يثبت أقدامهم وهو الذي أمدهم بالملائكة وأوحى إليهم أن ثبتوا الذين آمنوا والقى الرعب في قلوب الذين كفروا ، اذا كان الله جل شأنه برحمته قد يسر كل هذا فما الذي فعله المؤمنون وما هي مكانتهم في هذا الأمر العظيم الذي تم ؟ أجاب تباركت أسماؤه بقوله : « **فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم** »

الآية ذات غرضين

والإجابة الكريمة تنزع من المؤمن غروره أولا وتدفعه دفعا قو يا في مواطن البأس التي يرضى بها الله ثانيا .
وهكذا كانت الآية الكريمة ذات غرض مزدوج وكانت تر بيتها للمؤمنين في **موطنين:** **أولها** موطن الظفر تطمئن من غلواء المؤمن وكبر يائه ساعة النصر **وثانيها** في **موطن الإقدام** تدفع بالمؤمن دفعا لا تردد فيه ولا وجل .

ومن أجل هذا كان ارتباطها بكل ما سبق و بالآية التي قبلها ارتباطا **وثيقا محكما** فهي خلاصة ما جاء في الآيات الكريمة من ذكر منّ الله ومعونته وهي لذلك **من تمام** الدفع الذي جاء في الآية التي سبقتها دفع المؤمنين للهجوم على اعداء الله **والاستبسال في** ذلك . وأنه لعجب أمر المؤمن في صلته بالذي خلقه فهو:

١ ـــ يبذل نفسه و يقدم مهجته في سبيل الله رب **الخلائق مصدر الخير والرحمة باذل** الفضل ناصر الحق .

٢ ـــ والمؤمن في بذله هذا لا يستقل بإرادته ولا يصدر عن رأيه ولكنه يستمد كل حركة من حركاته وكل نفس من أنفاسه من الذي خلقه و يوقن بأن الأمر له جل شأنه فهو يتبرأ من حوله وقوته و يلجأ إلى حول الله وقوته و يوقن بأن الذي تم كله إنما هو بإرادة الله وتدبيره .

٣ ــ وحين يكتب له النصر فالنصر من عند الله وقد صنع بيد الله ليس للمؤمن منه إلا أنه جل شأنه اختاره موضعاً لإنفاذ إرادته ومكانا لإتمام أمره فهو الذي هدى قلبه وربط جأشه وقوى عزيمته .

٤ ــ فالمؤمن أداة بيد الله يسير قلبه ويملك ناصيته و يوجه جل شأنه إرادته و يده.وهذا المعنى يحمل المؤمن على الإقدام في أمر الله وليس أمر الله بالهوى ولا اللعب ولكنه الحق والخير يقدم المؤمن على أمر الله راضياً مطمئناً لا يتردد ولا يخلف ولا يخشى لأنه إنما يفعل ما يريد الله ولأن الله معه يرعاه فكل ما يصيبه من أذى فالله جل شأنه أولى بعونه .

٥ ــ وهذا الاعتقاد دافع للمؤمن قبل الإقدام دفعا قويا ينزع من نفسه كل جبن ضعف وتردد ثم إنه بعد الفوز يناديه لست الظافر بقدرتك ولست المنتصر بقوتك ولكن هنالك قدرة الله وقوته قد يسرتا لك أسباب الفوز والنجاة فاسجد للذي أعانك و يسر لك وهكذا يطأطىء المسلم الفاتح رأسه خاشعاً لله متواضعاً أمام عظمته .

٦ ــ وليس معنى كل ما سبق أن المؤمنين أشباح لا أرواح فيها وصور لا معنى لها وجمادات لا إرادة تحركها ليس شيء من ذلك كذلك ولكنهم ذوو قلوب ربط الله عليها وثبتها وذوو إرادات قواها الله وأيدها وذوو عزائم شحذها الله وأمضاها .

وقد أودع الله جل شأنه كل نفس من القوى والطاقات ما لا يعرف حدوده ومداه الا الذي برأه فلدى العبد قدرة وقوة وإرادة منحها إياه القادر القوي المريد .

ولكن أكثر الناس يستمرئون الكسل و يسلمون أنفسهم الى الأرض و يعيشون لشهواتهم الرخيصة ويحرصون على دنيا مهينة لا تعدل جناح بعوضة فتفسد القيم الحقيقية لديهم ولا يدركون الحق حقاً ولا الباطل باطلاً وهؤلاء لا يعرفون جهادا! ولا يغرمون بقتال وتظل قواهم التي أودعها الله في نفوسهم معطلة وطاقتهم دفينة .

أما المؤمنون فيدركون المعاني السامية يدركون معاني الخير والحق والمثل القوية فتملأ قلوبهم و يعيشون للنضال في سبيل الحق ...

وهؤلاء تنطلق قواهم وتوضع طاقاتهم كاملة في موضع العمل والتنفيذ .

فالقوى من عند الله والاستعدادات من خلقه واختيار العبد يتم بصنعه وكسبه واجتهاده يشعر به كما يشعر بوجوده ولا يرضى انسان بأن يوصف بفقدان الإرادة والاختيار ذلك أن فقدانهما لغير الانسان السوي .

ولا يزال العبد في امتحان وابتلاء يصارع هواه ويجادل شهواته فإن غلبها بحول الله سار في ركب عباد الله المقربين وكان في زمرة المخلصين .

والأمر معجز لمن أراد الوصول الى كنهه وكشف سره وكيف يتاح للمخلوق ان يعرف سر الخالق وكنه تدبيره والحجة قائمة.وخير للعبد أن ينصرف لجهاده ولما خلق له من ان يشغل نفسه بما لا يعنيه ولا يجديه نفعا .

« وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى »

روى ابن جرير وابن كثير قالا:قال علي بن ابي طلحة عن ابن عباس:رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه يوم بدر فقال « يارب ان تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبدا » فقال له جبريل « خذ قبضة من التراب فارم بها في وجوههم » فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين .

وعن السدي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين التقى الجمعان يوم بدر لعلي « اعطني حصا من الأرض » فناوله حصا عليه تراب فرمى به وجوه القوم ، فلم يبق مشرك الا دخل في عينيه من ذلك التراب شيء ثم ردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم فذكر تعالى رمية النبي صلى الله عليه وسلم فقال « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى »

وقال ابو معشر المدني عن محمد بن قيس ومحمد بن كعب القرظي قالا:لما دنا القوم بعضهم من بعض أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبضة من تراب فرمى بها في وجوه القوم وقال شاهت الوجوه ! فدخلت في أعينهم كلهم وأقبل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتلونهم ويأسرونهم ، وكانت هزيمتهم في رمية رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنزل الله « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى »

قرن جل شأنه في الآية الكريمة بين فعلين أولهما صدر عن رسول الله عليه صلوات الله وسلامه فأمر خارق ومعجزة تمت بأمر الله وعونه وأما فعل الأصحاب وهو قتل المشركين

فأمر جرت به العادة وألفه الناس وإن كان الغريب فيه انتصار الفئة القليلة على الفئة الكثيرة .

وهذا الاقتران بين الموضوعين يوحي بمعان منها أن كل ما يتم إنما يتم بأمر الله سواء في ذلك الأمور الخارقة للعادة والأمور المعتادة المألوفة فليست الأمور الخارقة للعادة وحدها من صنع الله ولكن كل ما يتم سواء أكان من صنع البشر أو من غير صنعهم إنما يتم بأمره « والله خلقكم وما تعملون » .

الأمور الخارقة التي تبدو لنا غريبة معجزة ليست الأمور المعتادة المألوفة بأقل منها غرابة وإعجازا ولو أن إنسانا عاقلا قيل له إن بذرة صغيرة تلقى في الأرض ستكون منها بعد قليل شجرة عظيمة باسقة ذات أغصان وفروع لاستبعد ذلك وكذبه فإذا قيل له إن هذه النطفة التي ألقيت في الرحم سيكون منها بعد قليل انسان مثلك يفكر و يغضب ويملأ الدنيا خيراً و براً أو يعيث في الأرض فسادا ويملؤها شرا و بطرا لأنكر ذلك واستبعده وليس أمر النطفة بأقل إعجازا من حفنة من تراب يرمي بها رسول الله فيصيب بها عيون ألف من البشر .

كان قتل المؤمنين للمشركين أمراً داخلاً في نطاق القدرة البشرية ورمي الرسول وإصابته العيون جميعا أمراً بعيداً كل البعد عن الطاقة البشرية وقد قرن بين الأمرين ليستوثق الذين آمنوا بأن الفرق بينهما ضئيل جدا في ميزان الإرادة الالهية والتدبير الإلهي ، والكتاب الحكيم بدقة أسلوبه وإحكام تعبيره يقرن بينهما ليعلم أنهما في الأصل لا يختلفان ثم يتأمل المتأمل فاذا التعبيران متمايزان.وتمايز التعبيرين ليعطي فرقا دقيقاً بين المعنيين أما التمايز ففي أمرين أولهما أن رمي الرسول عليه صلوات الله وسلامه وجوه المشركين لم يذكر له مفعول فقال تعالى « وما رميت » في شأن الرسول وفي شأن الأصحاب « فلم تقتلوهم » وفي ذكر المفعول هنا إيناس للسامع وإشارة بأن القتل الذي وقع من الأصحاب هو قتل قد أوقعه المسلمون بالمشركين إيقاعاً محسوساً مشاهداً ولكن رمي الرسول عليه الصلاة والسلام وإن كان مشاهدا ولكن يد القدرة الخفية كانت من ورائه ولذا نفي أصل الرمي عن الرسول عليه الصلاة والسلام ولم ينف أصل القتل بالنسبة للمؤمنين ولكن نفي تعلقه ليؤدي المعنى الذي سبق وخلاصته ان قتلكم المشركين المشاهد المحسوس لستم انتم الفاعلين له حقيقة ولكن الفاعل الحقيقي هو الله الذي أوجد أسبابه وأراد إيقاعه

فالجانب البشري في قتل المؤمنين للمشركين أشد ظهورا من رمي الرسول وجوه المشركين .

والأمر الثاني قيل بشأن الرسول « وما رميت إذ رميت » ولم يقل بشأن الأصحاب « فلم تقتلوا حين قتلتم » إذ المعنى رميتك التي رميتها لست أنت الذي رميتها فهو نفي للمشاهد المحسوس ولو قال ما قتلتم حين قتلتم لكان تناقضاً لأنه يكون نفيا للقتل المحسوس المشاهد ولا يصح ذلك إذ المراد في حق الأصحاب إثبات القتل المشاهد ونفي كون المؤمنين هم الفاعلين له حقيقة و بالنسبة لرمي الرسول عليه الصلاة والسلام نفي الرمي حتى المشاهد المحسوس منه لأنه كان معجزة وراء الأسباب الظاهرة . وهكذا اجتمع الموضوعان وافترقا ، اجتمعا في الأصل وافترقا في الفروع وهذا إعجاز الله جل شأنه في خلقه وفي كتابه .

الآية الكريمة تدل على صدق الروايات التي وردت في موضوع رمية الرسول عليه صلوات الله وسلامه في غزوة بدر والروايات التي سبقت أسانيدها صحيحة لا غبار عليها وإن المتأمل ليعجب لما لقيت الفئة القليلة المستضعفة من عناية الله ومَنّه وجزيل إحسانه ، غشاهم النعاس وأنزل الله عليهم من السماء ماء ثبت به أقدام المسلمين وكان الماء عذاباً على الكافرين وأمدهم بالملائكة تثبت قلوبهم وأوحى جل شأنه الى الملائكة أنه معهم وأنه سيلقي الرعب في قلوب الكافرين وأمر الملائكة بضرب الرؤوس وتفليق هام المشركين وحز رقابهم و بعد هذا كله أوحى إلى نبيه أن يرمي المشركين بالتراب والحصباء فلا يبقى مشرك إلا وقد دخل التراب في عينيه وفمه ومنخريه . التراب في العيون والفزع في القلوب والملائكة تقبل من السماء ، لقد أطبقت المصائب إطباقا فلم تدع لهم متنفسا .

كل هذا لأن الفئة القليلة أمتثلت أمر الله وأطاعت رسوله وانتهى به الأمر إلى ساعة من ساعات الشدة التي يفزع فيها المؤمن إلى الله و يستغيث بمن يجيب المضطر إذا دعاه فكان ما كان من عون الله ولطفه وحسن رعايته أما الذين يأوون اليوم إلى فراشهم آمنين رافلين بالنعمة لاهين عن المصيبة يسألون الله بألسنتهم لا بقلوبهم أن يدفع كيد الظالمين وهم في منازلهم دون أن يصل إليهم أذى ودون أن يمسهم سوء هؤلاء قد زين الشيطان أعمالهم وصرفهم عن فهم كتاب ربهم وطاعته وامتثال أمره .

قال تعالى :

« وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا إن الله سميع عليم ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين » .

خلق الله جل شأنه الموت والحياة ليبلو الناس أيهم أحسن عملا ولذا كان غرض الحياة الجهاد وليس لمخلوق لا يناضل مكان فوق الأرض ، وأشرف أنواع الجهاد الجهاد في سبيل الحق ، ولا يزال الصراع قائما لا ينقطع ولا يهدأ بين أولياء الرحمن وأعدائه ، والمؤمن في كنف الله ورعايته وهب نفسه لخالقه وقدم حياته في سبيله والله من رحمته بالمؤمنين يثبت قلوبهم و يطمئن نفوسهم بأنه معهم ... ذلك أن المجاهد في سبيل الله أشد ما يكون حاجة إلى رعاية الله تثبت فؤاده وتربط على قلبه.وهذا غرض القرآن دفع المؤمنين إلى الجهاد ثم تثبيت قلوبهم ففي كل طائفة من آيات الكتاب نداء للمؤمنين بأنه جل شأنه معهم وأنه ناصرهم وخاذل أعدائهم ومعذبهم .

كل ذلك ليثوب قلب المؤمن إلى ربه ولتسكن نفسه إلى خالقها وليتقدم في سبيل الله لا يعرف عجزاً ولا وهناً .

والآية الكريمة التي نحن بصددها تصرخ بالمسلمين بأن الله جل شأنه قتل الكافرين في الموقعة التي تمت وهو قاتلهم في كل موقعة يتقابل فيها الفريقان:المؤمنون وهم صادقون مخلصون،والكافرون وهم مستكبرون ظالمون .

ثم قال تعالى : « وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً » .

أي أنه جل شأنه فعل ما ذكر لأمور يقدرها النظر منها : إقامة حجته وتأييد رسوله وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا بالنصر والغنيمة وحسن السمعة ، و بالسيء ، فهو يستعمل في الخير والشر على حد قوله تعالى في بني إسرائيل « و بلوناهم بالحسنات والسيئات »

وفسر ابن جرير الآية بأثر يرويه عن ابن اسحاق عن عروة بن الزبير قال أي ليعرف المؤمنين نعمته عليهم في إظهارهم على عدوهم مع كثرة عددهم وقلة عددهم ليعرفوا بذلك حقه وليشكروا بذلك نعمته .

وقال ابو السعود : ليبلي المؤمنين أي ليعطيهم من عنده جل شأنه (بلاء حسنا) أي عطاء جميلاً غير مشوب بمقاساة الشدائد والمكاره .

والتقدير رمى جل شأنه ليمحق الكافر ين وليبلي المؤمنين .
قال في اللسان :
أبلى بمعنى أخبر وفي حديث ام سلمة : إن من أصحابي من لا يراني بعد أن فارقني فقال لها عمر بالله أمنهم أنا ؟ قالت لا ولن أبلي احدا بعدك أي لا اخبر بعدك أحداً وأصله من قولهم أبليت فلانا يمينا إذا حلفت له بيمين طيبت بها نفسه .

ثم قال :
والله تعالى يبلي العبد بلاء حسناً و يبليه بلاء سيئا وفي الحديث:اللهم لا تبلنا إلا بالتي هي أحسن أي لا تمتحنا . و يقال أبلاه يبليه إبلاء حسنا إذا صنع به صنعا جميلاً .

والإبلاء الإنعام والإحسان والبلاء الاسم وهو الإنعام يقال:أبلاه بلاء حسنا وأبليته معروفا وأبلاه خير البلاء أي صنعت به خير الصنيع .

وعلى هذا فأبلى بمعنى أخبر وبمعنى امتحن وبمعنى أنعم وأحسن وقد اختار الزمخشري الثالث ففسر ليبلي بلاء حسنا بقوله ليعطي عطاء جميلا وتابعه ابو السعود في ذلك والكلمة في أصل معناها تفيد الاختيار والامتحان وقد ضمن معنى العطاء ولذا كان البلاء بمعنى النعمة كما في الآية الكريمة ويجيء بمعنى النقمة .

والآية الكريمة تشعر بالإحسان من قبل الله جل شأنه وتشعر بالاختبار بالإحسان ليظل المؤمن في حال الإحسان إليه يقظ الضمير واعي الفؤاد لا يسترسل في النعمة ولا يركن إلى البحبوحة ولكنه يرى في أعماق نفسه أنه مبتلى بها ، موضوع تحت الاختبار والتجر بة .

وهكذا لا يغفل المؤمنون ساعة النصر عن ذكر الله ولا ينسون شكر نعمته و يزدادون إيمانا بحمل رسالة الحق و يزدادون إمعانا في تقديم أنفسهم في سبيلها ، وذيلت الآية الكريمة بقوله تعالى « إن الله سميع عليم » فهو جل شأنه سميع الدعاء عليم بمن يستحق النصر والغلب ، وقد سمع جل شأنه استغاثة المؤمنين ربهم ودعاءهم إياه وحده وعلم صدقهم وإخلاصهم وهو جل شأنه سميع لكل دعاء ونداء يصدر منهم بعد ذلك اليوم ومن إخوانهم الذين يأتون من بعدهم وهو يسمع تباركت اسماؤه نداء المسلمين اليوم وهو عليم بما تنطوي عليه نفوسهم من ضعف ووهن ولن يغير الله ما بهم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

قال تعالى « ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين » :

الأمر ذلكم الذي سبق والذي رأيتم وعلمتم في كل نزاع بين الحق والباطل والإيمان والكفر،ينصر الله الإيمان و يعلي كلمة الحق والأمر ذلكم الذي تحقق لديكم أيها المؤمنون إعزاز دينه ونصر كلمته والأمر أيضاً أن الله موهن أي مضعف كيد الكافرين يقول ابن كثير وهذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر أنه أعلمهم تعالى بأنه مضعف كيد الكافرين مصغر أمرهم وتأكيد في أثر تأكيد ونص صريح بأن الله مع المؤمنين وأن كيد الكافرين مهما عظم فمآله إلى الدمار وقد بلغ كيد أعداء الاسلام اليوم غايته تسنّم ذروته وأضحى المسلمون يكادون يرتابون في وعد الله و يكادون لا يصدقون بأن هؤلاء الذين ملكوا البحار والسهول والجبال و بلغ غزوهم الفضاء ما بلغ قد تكون ساعة دمارهم قريبة جدا فهي قوة مادية تبهر الانظار وتأخذ بالألباب ولكنها ليست مقترنة بالأمن ولا بالسلام بل هي قوة تجعل العالم كله على بركان مستعر لا يدرى متى تنطلق حممه وتنقذف نيرانه ومهما بلغ إليه حال المسلمين فبقية الخير لا تزال كامنة فيهم والحق الأبلج لا يزال فيما انطوى عليه كتابهم والأمل الوحيد في انتباهتهم .

قال تعالى « إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وان تنتهوا فهو خير لكم وإن تعودوا نعد ولن تغني عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت وإن الله مع المؤمنين » .

روى ابن جرير وابن كثير عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير العدوي حليف بني زهرة أن المستفتح يومئذ أبو جهل وأنه قال حين التقى القوم : « أينا أقطع للرحم وآتانا بما لا يعرف فأحنه الغداة »فكان ذلك استفتاحه فأنزل الله في ذلك « إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح » الآية (١) .

---

(١) قال الشيخ احمد محمد شاكر في تعليقه على تفسير ابن جرير : « عبد الله بن ثعلبة بن صعير العدوي مسح رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهه ورأسه زمن الفتح وقال ابو حاتم : رأى النبي صلى الله عليه وسلم وهو صغير »

وقال البخاري في التاريخ : « عبد الله بن ثعلبة عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل إلا أن يكون عن ابيه وهو أشبه (وقد ذكرت ترجمته في الإصابة والتهذيب ، وأسد الغابة ، والاستيعاب) .

وهذا الخبر رواه ابن اسحاق عن الزهري ورواه احمد في مسنده (٥ : ٤٣١) عن ابن اسحاق عن الزهري . ورواه الحاكم في المستدرك (٢ : ٣٢٨) عن محمد بن اسحاق عن الزهري . وقال « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » ووافقه الذهبي .

وقولهم أحنه أي أهلكه من حان الرجل أي هلك وأحانه الله أهلكه .

وروى ابن جرير عن السدي قال : كان المشركون حين خرجوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم من مكة أخذوا بأستار الكعبة واستنصروا الله وقالوا : « اللهم انصر أعز الجندين ، وأكرم الفئتين وخير القبيلتين » فقال الله « إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح » يقول نصرت ما قلتم وهو محمد صلى الله عليه وسلم .

وروى ابن جرير عن يزيد بن رومان وغيره قال : قال ابو جهل يوم بدر:اللهم انصر احب الدينين اليك ديننا العتيق أم دينهم الحديث فأنزل الله : « إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح »

يقول رشيد رضا وهذا يدل على أن أبا جهل كان مغرورا بشركه واثقا بدينه ولم يكن أكثر أكابر مجرمي مكة كذلك بل كان كفرهم عن كبر وعلو وحسد للنبي صلى الله عليه وسلم وأقول هذا الذي ذكر من الكبر والعلو والحسد إنما كان يتمثل في ابي جهل في أقوى درجاته أليس هو القائل (١) حين سئل عما سمع من رسول الله عليه صلوات الله وسلامه من القرآن : «تنازعنا نحن و بنو عبد مناف الشرف ، اطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه من السماء فتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به ابداً ولا نصدقه » .

ولعل استفتاح أبي جهل ودعاءه السابق إنما كان يمليه عليه الغرور والتفاهم أمام أصحابه وأتباعه بأنه ما يريد إلا الحق وما يبغي إلا الخير وقد سبق إلى هذا فرعون إذ قال للملأ من قومه « ما أُريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد » وهذا شأن أنصار الباطل اليوم يحملون شعارات هم أبعد الناس عنها و ينادون بمبادىء هم أعدى أعدائها ينادون بجمع شمل الأمة وهم الذين مزقوا شملها و يدعون أنهم ينصرون الحرية وهم يطمسون معالمها .

يقول صاحب المنار:

وقيل إن الخطاب في الآية للمؤمنين كسابقه ولاحقه والمعنى إن تستنصروا ربكم وتستغيثوه عند شعوركم بالضعف والقلة فقد جاءكم النصر وإن تنتهوا عن التكاسل في القتال والرغبة عما يأمر به الرسول ومجادلته في الحق بعد ما تبين فهو خير لكم ، وإن تعودوا إليه نعد عليكم بالإنكار أو تهييج العدو ولن تغني عنكم كثرتكم إذا لم يكن الله معكم بالنصر فها نحن اولاء قد ناصرناكم على قلتكم وضعفكم . يقول هذا أقوى من كل ما

(١) : ابن هشام ج١ ص ٣١٦

رأيناه في تصوير المعنى فأكثر ما قالوه ظاهر التكلف ولولا السياق لكان المعنى الأول أرجح لأنه أظهر. و يقول صديق حسن خان ولا يخفى أنه يأبى هذا القول معنى قوله تعالى (ولن تغني عنكم فئتكم شيئا) و يأباه أيضا « وأن الله مع المؤمنين » وتوجيه ذلك لا يمكن إلا بتكلف .

أقول و يؤ يد المعنى الأول الروايات الكثيرة التي سبق ذكرها وفيها ما هو على شرط الصحيحين كما أشرنا و يؤ يده السياق أيضا إذ الكلام متصل تمام الا تصال بالآيات التي سبقت وهي توهين كيد المشركين .

سياق الآيات التي سبقت فيما امتن الله به على المؤمنين من إمدادهم بكل الوسائل المادية والمعنو ية التي انتهت إلى الغلب على أعدائهم وقد وضعت الآية الكريمة حكما بأن الأمر كذلك في كل موقعة يواجه فيها المؤمنون الصادقون المخلصون أعداء الله ونصت الآية الكريمة على أنه تباركت أسماؤه موهن أمر الكافر ين وكيدهم وقد كانت الموقعة نفسها أعظم موهن لكيد الكافر ين . فلقد كان من ثمراتها رعب ملأ قلوب المشركين ولازم افئدتهم وكان من ثمراتها أن استيقن الذين عاشوا من المشركين بعد الموقعة أن ما كان يحدثهم به زعماء الكفر وطواغيت الضلال أبو جهل وأصحابه من انتصارهم على أصحاب محمد عليه صلوات الله وسلامه ما كان الا غرورا ولعل أبلغ ما وقع من ذلك استفتاح أبي جهل ودعاؤه عندعزيمته على القتال بأن ينصر الله فئته . لقد استفتح وجاءه الفتح وكان فتحاً إلى مقره في جهنم وليس من شك في أن المشركين أنفسهم كانوا يتحدثون بكل ما قال ابو جهل و بكل أنواع كيده وتغر يره وقد انتهى كله إلى ما انتهى إليه أبو جهل وهذا أكبر الوهن في صفوف المشركين فالآية مرتبطة بأوثق ر باط بالآية التي سبقتها والحديث كله موجه إلى المؤمنين يتخلله شئون تتصل بالمشركين .

ذكر جل شأنه في الآية الأولى أنه موهن كيد الكافر ين ثم التفت الخطاب للمشركين يذكرهم باستفتاحهم ، والاستفتاح الاستنصار وفي الحديث انه كان يستفتح بصعاليك المهاجر ين أي يستنصر بهم والرواية التي جاء فيها اللهم انصر أفضل الدينين وأحقه بالنصر تؤ يد هذا المعنى ومعها الرواية الثانية التي جاء فيها اللهم انصر احب الفئتين إليك ، يقول صاحب لسان العرب : ويجوز أن يكون معناه إن تستقضوا فقد جاءكم القضاء . يقول وقد جاء التفسير بالمعنيين جميعا . روي أن أبا جهل قال يومئذ : اللهم

أقطعنا للرحم وأفسدنا للجماعة فأحنه اليوم فسأل الله ان يحكم بحين من كان كذلك ، فنصر الله النبي صلى الله عليه وسلم وناله هو الحين يقول صاحب اللسان وكلا القولين جيد .

التفت الخطاب للمشركين يذكرهم باستفتاحهم ولم يكن التذكير بصورة الأخبار ولكنه جاء بصيغة الشرط والاستفهام وكان الجواب تهكماً بالغا غايته فقد جاءهم الفتح الذي طلبوه وكان الفتح الذي توقعوه ما رجعوا به من ذل وانكسار وصغار، وفي هذا تثبيط لعزائم المشركين ليس بعده تثبيط وتيئيس لهم ، وكل ذلك توهين لكيدهم وإضعاف لأمرهم .

و بعد هذا كله فباب الرجوع إلى الحق مفتوح أمامهم ولا تألوا الآيات الكريمة جهدا في دعوتهم إلى نبذ ضلالهم قال تعالى : « وإن تنتهوا فهو خير لكم » يقول ابن جرير معناه يامعشر قريش وجماعة الكفار إن تنتهوا عن الكفر بالله ورسوله وقتال نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به « فهو خير لكم » في دنياكم وآخرتكم ، ودعوة الناصح لابد فيها من قول مرير ولابد من بيان عاقبة المبطل إذا أصر على باطله وكان عازمًا على الاستمرار في شروره قال تعالى « وإن تعودوا نعد » أي إن تعودوا لحربه عليه الصلاة والسلام وقتاله وقتال أتباعه نعد لمثل الوقيعة التي أُوقِعَتْ بكم يوم بدر.

« ولن تغني عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت » والفئة الطائفة يقول ابن جرير: وإن تعودوا نعد لهلاككم بأيدي أولياء الله وهزيمتكم ولن تغني عنكم عند العود إلى قتلكم وسبيكم « فئتكم شيئا ولو كثرت » أي جندكم وجماعتكم كما لم يغنوا شيئا يوم بدر مع كثرة عددهم وقلة عدد المؤمنين « وأن الله مع المؤمنين » يقول جل ذكره وان الله مع من آمن به من عباده على من كفر به منهم ينصرهم عليهم و يظهرهم كما أظهرهم يوم بدر على المشركين والهمزة مفتوحة والتقدير ولأن الله مع المؤمنين كان كل ما ذكر.

و بعد هذا كله أفلا يجدر بالمؤمنين أن يكونوا حزب الله وأنصار رسوله أفلا يجدر بهم أن يسمعوا و يطيعوا وألا يتولوا عن أمر الله وأمر رسوله وهم معرضون يسمعون وكأنهم لا يسمعون . وإنها لصورة من أشنع الصور وأقبحها أن يسمع المؤمن نداء الله يناديه باسمه ثم يصم أذنيه و ينكس رأسه ويمضي في سبيله صامتاً متجاهلا أن النداء نداء القاهر فوق

عبادة وأن الصمت صمت القسوة والغفلة والإعراض إعراض العناد، وأن هذا الذي يدعي الايمان و يسمع نداء الله ثم يصم اذنيه لهو جامد القلب متبلد الحس يخشى أن تكون هنالك وصلة بينه و بين الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون وهؤلاء عند الله شر مخلوق يدب على وجه الأرض .

« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » .

بعد الذي سبق كله ، من الآيات البينة والوعود الصادقة والتثبيت والتأييد وأنه جل شأنه مع المؤمنين بعد هذا كله ينادي الله المؤمنين بقوله : « يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله ورسوله » .

إنه نداء الحليم الرحيم المشفق على أوليائه أن يتصفوا في حال من الأحوال بصفات الصم عن سماع الحق ، البكم عن النطق به ، والدعوة إليه ، الذين لا يعقلون للحق معنى ، ولا يدركون له غرضا .

إنه نداء المشفق على أوليائه المحذر لهم الذي يخشى أن يقع من بعضهم شيء مما يقع من اولئك الذين يخالفونهم في الإيمان و يباينونهم في إدراك الحق اولئك الذين فارقوا صفات البشرية وانحطوا إلى أدنى الدركات واستحقوا أن يوصفوا بأنهم شر الدواب : إنهم ينظرون ولكنهم لا يبصرون و يسمعون ولكنهم لا يعون و يفكرون ولكنهم لا يعقلون « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أُولئك كالأنعام بل هم أضل اولئك هم الغافلون » . وإن الذين يحملون اسم الايمان إذا سمعوا نداء الله ونداء رسوله فتولوا وأعرضوا عنه فشأنهم شأن الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون .

والأمر بطاعة الله في أمر الجهاد فهو موضوع الآيات وعليه يدور الحديث .

نهى الله المؤمنين عن التولي وهو الانصراف والإعراض قال تعالى (ولا تولوا عنه) أي عن الرسول لأن طاعة الرسول عليه صلوات الله وسلامه من طاعة الله ، قال تعالى (ومن يطع الرسول فقد أطاع الله) ، : نهى الله المؤمنين عن التولي والحال أنهم يسمعون ما يتلى عليهم من الحجج والبراهين والقرآن والمواعظ وفيها الأمر بوجوب طاعته وموالاته واتباعه ونصره وهم يصدقون بها وليسوا كالصم البكم .

والسماع ههنا سماع الفهم والتصديق والإذعان الذي هو شأن المؤمنين الذين يقولون « سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير» الذي يصفهم جل شأنه بقوله « فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، اولئك الذين هداهم الله واولئك هم أولو الألباب » .

وحذر الله المؤمنين أن يكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون قال تعالى « ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون » هؤلاء هم اليهود والمشركون المعاندون والمنافقون.وقد قال تباركت أسماؤه في الفريق الأول « من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه و يقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بالسنتهم وطعنا في الدين ولو انهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ، ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا » وقال تعالى في المنافقين « ومنهم من يستمع اليك حتى اذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا ؟ »

نهى الله المؤمنين أن يكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون و بين جل شأنه أن هؤلاء هم الصم البكم الذين لا يعقلون وهم شر الدواب قال تعالى « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » الدواب جمع دابة وهي كل ما يدب على وجه الأرض قال تعالى « والله خلق كل دابة من ماء فنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع » وقيل يستعمل هذا اللفظ (الدواب) في الإنسان وحده وإنما يغلب في الحشرات ودواب الركوب فإذا استعمل في الدلالة على الإنسان كما هو الشأن في الآية الكريمة فهو يشعر بالاحتقار، على أن إطلاق الدابة على الإنسان حقيقة لا مجاز، جاء في المصباح الدابة كل حيوان في الأرض مميزا أو غير مميز. والمعنى على هذا إن شر ما يدب على الأرض في حكم الله جل شأنه هم الأشرار من البشر « الصم » الذين لا يلقون السمع لمعرفة الحق والاعتبار بالموعظة الحسنة فكانوا بفقد منفعة السمع كالذين فقدوا حاسته « البكم » الذين لايقولون الحق كأنهم فقدوا قوة النطق « الذين لايعقلون » أى فقدوا فضيلة العقل الذى يميز بين الحق والباطل و يفرق بين الخير والشر.

قال القرطبي :

دلت الآية على أن قول المؤمن سمعت وأطعت لا فائدة فيه ما لم يظهر أثر ذلك عليه

بامتثال فعله فإذا قصر في الأوامر فلم يأتها واعتمد النواهي فاقتحمها فأي سمع عنده وأي طاعة ؟ وإنما يكون حينئذ بمنزلة المنافق الذي يظهر الإيمان و يسر الكفر وذلك هو المراد بقوله « ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون » يعني بذلك المنافقين أو اليهود أو المشركين . ثم أخبر الله تعالى أن الكفار شر ما دب على الأرض . وفي البخاري عن ابن عباس « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » قال هم نفر من بني عبد الدار.

والآية الكريمة تشير إلى موضوع هام يتصل بهذه النفوس البشر ية وموقفها من كلمة الحق فبعض النفوس إذا إستمعت إلى نداء الحق كانت كالأرض الخصبة الندية الطيبة تهش للفكرة الصالحة كما تهش الأرض الطيبة لقطرة الغيث ثم تهتز وتر بو ثم تنبت أطيب النبات . تتقبل الأرض الطيبة قطرة الغيث فتدخل في ثناياها وتختلط في أجزائها وتتحد وعناصرها وتكون وحدة متداخلة متمازجة لا يمكن فك عنصر منها من العناصر الأخرى ومن هذا الامتزاج يتغذى النبات و ينمو و يزدهر و يثمر . و بعض النفوس إذا استمعت إلى صرخة الحق كانت كالأرض الصلبة القاسية تماسكت ذراتها وغلفت قشرتها فهي لا تسمح بقطرة تنفذ إلى داخلها وذرات القطر مهما انهمرت فوقها لا تلبث أن تمر على قشرتها وتزول على سطحها .

وهكذا تدخل دعوة الحق إلى بعض النفوس فتتغلغل في ثناياها وتختلط بأجزائها وتتحد بعناصرها وتصبح جزءا من النفس فعالا مؤثرا فيها دافعا قو يا بل قد تهيمن الفكرة على النفس حتى تكون شغل المرء الشاغل ليله ونهاره غدوه ورواحه وتصبح غاية الجهد وأمل الحياة .

وهكذا تلقى أصحاب محمد عليه صلوات الله وسلامه دعوة الإيمان ، فتحوا لها قلوبهم فاستقرت في أعماقها واختلطت بأجزائها وعاشوا من أجلها وماتوا في سبيلها . وصد عن دعوة الحق أكابر مجرمي قر يش فلم يفقهوا لها معنى ولم يفتحوا لها قلبا ولم يسمحوا لقطرة من دعوة الحق أن تجد سبيلا إلى نفوسهم ولم يقتصروا على ذلك ولكنهم صدوا الناس عنها و بذلوا دماءهم في حربها ومات كثير منهم وقلوبهم خواء مظلمة .

لم يقبل بعض الناس دعوة الحق ولم يعرض عنها آخرون ، يقابل كل انسان كل دعوة

تعرض عليه وكل فكرة تقدم إليه بالرصيد النفسي الذي لديه والرصيد النفسي يتكون من المواهب التي منحها الله جل شأنه كل إنسان والاستعدادات التي فطر الله كل انسان عليها يضاف إلى ذلك البيئة التي يعيش فيها الانسان والظروف التي يتقلب فيها والتربية التي يتلقاها . وكل هذه العوامل والأسباب تجعل الناس مختلفين متباينين فكل انسان عالم مستقل لا يصل إلى داخله إلا صاحبه ولا يدري بحقيقته إلا الذي خلقه وصوره فإذا ألقينا فكرة واحدة على عشرين انسانا تقبلها كل إنسان تقبلا خاصا وفهمها فهما خاصا وكان لدينا مقابل فكرة واحدة يعرضها إنسان واحد عشرون فهما يتقارب بعضها و يتباعد بعضها الآخر حسب تقارب الأفراد في الذكاء وظروف الحياة والتربية والثقافة .

إنك لتلقي فكرة على جمهور من الناس يعد بالمئات فتجد أن الذين استجابوا لك استجابة تامة وفهموا عنك فهما تاما لا يكادون يجاوزون أصابع اليد وهكذا كانت استجابة قريش لدعوة رسول الله عليه صلوات الله وسلامه .

يتقبل المرء الفكرة بالرصيد النفسي الذي لديه وتنزل الفكرة فتجد أفكاراً سابقة وعواطف متعددة واستعدادا خاصا فإما أن تجد لها مكانا بين هذا كله وإما أن تنبذ وتستبعد وتطرح ، فالفكرة الجديدة كقادم جديد يأتي جماعة إما أن يجد الإلف لديهم وحسن الصحبة فيألف و يؤلف وإما أن يجد فيهم جفوة ويجدوا فيه نبوة فيلفظوه و يبعدوه .

ومن كل هذا يتبين أثر الرصيد النفسي في تقبل دعوة تطرق باب نفس من النفوس فهي إما أن تجد لها أنصارا وأعواناً ومعارف وإما أن تجد أعداء منابذين منكرين .

والذي نشيء على الجشع والطمع والحرص على دنياه وملذاته ومنافعه ماذا يكون موقفه إذا دعي للخروج من ماله في سبيل الله أو تقديم نفسه أو ولده ؟ لا تجد هذه الدعوة أنصاراً في نفسه ولا تجد لها مكانا في قلبه وهي دعوة حق يجب أن تنفذ ولكن النفس تأباها ولا تألفها ، فهي وإن كانت حقا فلتجد النفس التعلات للخروج منها .

عرض عتبة بن ربيعة على رسول الله أمورا وهو يرجو أن يقبل عليه صلوات الله وسلامه بعضها و يكف عن دعوته إلى عبادة الله وحده . عرض عليه المال وعرض عليه الجاه والسؤدد وعرض عليه الملك وعرض عليه النساء وقد عرض عليه في الحقيقة رصيد نفسه ومطمح أمله وغاية ما يرجو في الحياة ومن كان هذا رصيده النفسي صعب عليه جدا

أن يفقه مثل دعوة محمد عليه صلوات الله وسلامه ولعله لم يستطع أن يتصور بشراً يدعو إلى مثل ما يدعو إليه محمد عليه الصلاة والسلام .

وأكثر المسلمين اليوم لا يختلف رصيدهم النفسي عن الرصيد الذي لدى عتبة بن ربيعة يضاف إليه معان إسلامية موروثة ليست في صميم النفس ولكنها على هامش الحياة وفي قشرتها والمسئول عن ذلك التربية في المنازل وفي المدرسة ، تلك التربية التي لا تؤدي إلى غرس المعاني الإسلامية ولا تكون رصيدا نفسيا إسلاميا ووسيلة ذلك أن يعيش الطفل في جو متطلع تطلعاً حقيقيا إلى المعاني الاسلامية جو تشيع في جنباته ذكريات أبطال الاسلام وشهداء الاسلام ورجالات الاسلام وتغلب عليها معاني الايمان والتضحية في سبيل الاسلام .

قال تعالى « ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون » وصف الله تباركت أسماؤه الذين سكرت أبصارهم وعميت قلوبهم عن الحق بأنهم صم بكم ووصفهم جل شأنه بقوله « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » ووصفهم بقوله « صم بكم عمي فهم لا يعقلون »

والذي فعله هؤلاء بأنفسهم وفعله بهم مُرَبُّوهم أنهم غمسوهم في شهواتهم وأسلموهم إلى أهوائهم ففسدت فطرتهم واعتلت قلوبهم واختلت موازينهم ونكست المعاني والقيم لديهم ، ولا يحمي ضلال هؤلاء إلا الباطل والزيغ والانحراف أما الحق الواضح الأبلج فلا يريدون أن يروه أو يسمعوه وانه لعسير على هؤلاء أن يدركوا حقيقة أو ينكشف لهم هدى لأن بصائرهم قد طمست وفطرهم قد غشيت .

وتقترن دعوة هؤلاء بالظلم والكبر والطغيان كما تقترن بالاستسلام للشهوات فإذا دعي هؤلاء إلى الحق والعدل والإنصاف والكف عن الاسترسال في الشهوات وجدوا أنهم يدعون إلى ما لا قبل لهم به .

لم يبق في نفوس هؤلاء مقدار ذرة من خير ولو وجدت لكانت سبيلا إلى هدايتهم إلى الحق ولكنهم عدموا كل خير وكانوا في ظلمة مطبقة . قال تعالى « ولو علم الله فيهم خيرا » أي خير ولو خيرا يسيراً لأسمعهم والآية نص صريح بأن هؤلاء فقدوا دواعي الخير كلها .

فإذا لاحت لأنفسهم بارقة من بوارق الأدلة الناصعة وإذا مرت في خواطرهم ومضة من ومضات الحق المشرقة أعرضوا عنها و باعدوا بينهم و بينها ، فإذا ذكر أحد هؤلاء أو ذكر أن حياته ستنقضي ، ما في ذلك ريب ، وسيصل إلى نهايته وفي الموت عبرة مهما قست القلوب وله هزة مهما غلظ حجاب النفوس ولكن المعاند يضيق صدره قليلاً لخاطر الموت و يشعر بحيرة وظلمة ثم لا يلبث أن يطرح كل هذا ليعود إلى غيه .

يقول تعالى لم يبق في قلوبهم مثقال ذرة من خير ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم جل شأنه ولو جاءهم ما يصدم قلوبهم و يزلزل أفئدتهم لما تنازلوا عن عنادهم قال تعالى : « وإن يروا آية يعرضوا و يقولوا سحر مستمر » ولو أسمعهم جل شأنه لتولوا وحالهم أن الإعراض مستقر في نفوسهم راسخ في طباعهم .

يقول ابن جرير في تفسير الآية الكريمة ولو علم الله في هؤلاء القائلين خيرا لأسمعهم- مواعظ القرآن وعبره حتى يعقلوا عن الله عز وجل حججه منه ولكنه قد علم أنه لا خير فيهم وأنهم ممن كتب لهم الشقاء فهم لا يؤمنون ولو أفهمهم ذلك حتى يعلموا و يفهموا لتولوا عن الله وعن رسوله وهم معرضون عن الإيمان معاندون للحق بعد العلم به .

وقال سيد قطب عليه رحمة الله « لو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم أي لأسمع ولكنه سبحانه لم يعلم فيهم خيرا ولا رغبة في الهدى فقد أفسدوا استعداداتهم الفطرية للتلقي والاستجابة فلم يفتح الله عليهم ما أغلقوا هم من قلوبهم له ولا استجابوا لما فهموا : ولو أسمعهم الله سماع الفهم لتولوا هم عن الاستجابة والاستجابة هي السماع الصحيح وكم من ناس تفهم عقولهم ولكن قلوبهم مطموسة لا تستجيب ».

وفي الآية الكريمة في نظرنا تنبيه إلى أمر خطير جدا هو التربية ، إن تربية كثيرين من الناس تؤدي بهم إلى انعدام الخير في نفوسهم فيكون حالهم كما وصفت الآية الكريمة ، أما تربيتنا الحالية في منازلنا ومدارسنا ففيها تعهد يسير لبذور الخير التي أودعها الله قلوب أبنائنا تعهد يسير دون ما يجب ولذا لا تجد هذه البذور العناية الكافية ولا تجد الأجواء الصالحة لتنمو وترعرع وتزدهر وتثمر وحق على الآباء أن يرعوا بذور الخير هذه في أبنائهم وأن يقدموا لهم من الجهد والوقت والخبرة ما ينمي هذه المعاني و يصل بها إلى غاياتها الطيبة ، و يتصل بالموضوع أن الذي عاش في الديار الغربية على شرورها ومآسيها

وسيئاتها يجد لدى عدد من الأفراد من الفطر المستعدة لقبول الحق ما يجعله يعود باللوم على المسلمين في تقصيرهم في تبليغ الدعوة التي وضعت في أعناقهم.ولو يسر لهؤلاء الغربيين دعاة مخلصون يدعون بالحكمة والموعظة الحسنة لكان للاسلام أنصار كثيرون في تلك الديار التي ما يزال أهلها يجهلون الاسلام على حقيقته جهلا مطبقا .

« يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وإنه إليه تحشرون » .

الخطاب للمؤمنين المصدقين ، والاستجابة الاجابة ، هكذا قال في لسان العرب . يقال دعاه فأجابه واستجابه واستجاب له . ونقل صاحب تفسير المنار عن الراغب أن أصل الاستجابة التهيؤ والاستعداد للإجابة فحل محلها . يقول صاحب المنار « والأقرب إلى الفهم قلب هذا وعكسه وهو أن الاستجابة هي الإجابة بعناية واستعداد فتكون ز يادة السين والتاء للمبالغة » .

والمعنى على هذا « فأجيبوا الدعوة بعناية وهمة وعزيمة وقوة فهو كقوله تعالى : « خذوا ما آتيناكم بقوة » . أقول وحبذا هذا الفهم إن أيدته كتب اللغة .

وقال صاحب الكشاف المراد بالاستجابة الطاعة والامتثال و بالدعوة البعث والتحر يض .

ولقد ذكرت الطاعة في الآية التي سبقت فالأرجح أن تكون الاستجابة أمرا زائدا عليها وأن تكون ثمرة الطاعة وأن يراد بها الإجابة الفعلية المقترنة بالمبادرة إلى امتثال الأمر واجتناب النهي بجد واهتمام .

وأما قوله تعالى لما يحييكم فقال فيه ابن كثير قال مجاهد « للحق » وقال السدّي هو الاسلام فيه إحياؤهم بعد موتهم بالكفر وقال محمد بن اسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة الزبير أي للحرب التي أعزكم الله تعالى بها بعد الذل وقواكم بها بعد الضعف ومنعكم من عدوكم بعد القهر منهم لكم . وقال القرطبي المراد بقوله لما يحييكم الجهاد فإنه سبب الحياة في الظاهر لأن العدو اذا لم يُغز غزا وفي غزوه الموت والموت في الجهاد الحياة الأبدية . قال الله عز وجل « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون »

فهذه أقوال أربعة أما الثلاثة فهي متقاربة فالإسلام هو الحق والقرآن هم كتاب الاسلام وزاد بعض المفسرين التوحيد ففيه حياة القلوب والعلم بالله تعالى وسننه في خلقه وأحكام شرعه يقول الزمخشري:لأن العلم حياة كما أن الجهل موت . قال القرطبي: والصحيح العموم كما قال الجمهور يعني الاستجابة لكل ما تضمنه القرآن والاسلام من أوامر ونواهي .

وليس من شك في أن قوله « استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » يفيد العموم والاستجابة لأوامره جل شأنه كلها ولكن الحديث في الآيات يدور حول موضوع معين و يرمي إلى غرض واضح قد أعطي من العناية قسطا كبيرا وهو الجهاد ومن العناية الكبيرة به أن الأوامر جعلت نداءات يعقب بعضها بعضا وكان النداء الأول في عدم الفرار من الزحف والنداء الثاني بضرورة طاعة الله ورسوله والنداء الثالث في الاستجابة لدعوة الله ورسوله . فطلب الطاعة والاستجابة كل ذلك سبق في موضوع الجهاد ولذا فنحن نؤثر قول القائلين بأن المراد بقوله تعالى (لما يحييكم) الجهاد لما له من أثر كبير في حياة الأمة ولما لتركه من أثر في موت الأمة واستذلالها وكون الجهاد فيه الحياة شأنه في ذلك شأن كل ما أمر الله به فالآية تفيد أن كل ما دعا إليه الرسول عليه صلوات الله وسلامه فيه الحياة وقد دعا إلى الجهاد فالجهاد فيه الحياة .

كل ما دعا الرسول إليه فيه الحياة ، والاسلام هو متكامل لا يمكن أخذ بعضه وترك بعضه الآخر ، وأكثر المسلمين اليوم نسوا فرض الجهاد وتركوه ، فانتهى الحال بالمسلمين إلى ما انتهى إليه وما تركوا الجهاد إلا لخلل في العبادات التي يقومون بها ونقص في الإيمان ذلك أن الجهاد ثمرة الايمان وثمرة التقوى فإذا لم يؤديا إلى ثمرتهما وهي بذل النفس والمال دل ذلك على أن فيهما خللا ونقصا .

وقد وحد الضمير في قوله دعاكم (أي الرسول) لأنه هو المباشر للدعوة إلى الله تعالى وقال الزمخشري لأن استجابته صلى الله عليه وسلم كاستجابته تعالى وإنما يذكر أحدهما مع الآخر للتوكيد .

وقال سيد قطب عليه رحمة الله (إن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما يدعوهم إلى ما يحييهم ...) إنها دعوة إلى الحياة و بكل معاني الحياة .

إنه يدعوهم إلى عقيدة تحيي القلوب والعقول وتطلقها من إسار الجهل وسلطان الأوهام ومن العبودية لغير الله .

و يدعوهم إلى شريعة من عند الله تعلن تحرر الانسان وتكريمه يقف فيها البشر كلهم صفا واحدا متساو ين في مواجهتها لا يتحكم فرد في شعب ولا طبقة في أمة ولا جنس في جنس ولا قوم في قوم ولكنهم ينطلقون أحرارا متساو ين في ظل شر يعة صاحبها رب العباد .

و يدعوهم إلى القوة والعزة والاستعلاء بعقيدتهم ومنهجهم والثقة بدينهم و بربهم والانطلاق في الأرض كلها لتحر ير الانسان وإخراجه من عبودية العباد إلى عبودية الله وحده وتحقيق انسانيته التي وهبه إياها الله فاستلبها منه الطغاة .

و يدعوهم إلى الجهاد في سبيل الله لتقرير ألوهية الله سبحانه في الأرض وفي حياة الناس وتحطيم ألوهية العبيد المدعاة ومطاردة هؤلاء المعتدين على ألوهية الله سبحانه وحاكميته وسلطانه ، حتى يفيئوا إلى حاكمية الله وحده وعندئذ يكون الدين كله لله حتى إذا أصابهم الموت في هذا الجهاد كان لهم في الشهادة حياة .

ذلك مجمل ما يدعوهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم وهو دعوة إلى الحياة بكل معاني الحياة .

والتعبير القرآني هذا كله في كلمات قليلة موحية :

« يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم »

يتصل بالآية الكريمة حديث رواه البخارى في الصحيح عن سعيد بن المعلى قال (كنت اصلي في المسجد فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه ، أو قال فلم آته حتى صليت ثم أتيته فقلت يارسول الله إني كنت أصلي فقال : الم يقل الله استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم) الحديث وروى الترمذى والحاكم من حديث ابي هر يرة انه دعا أبي بن كعب وهو في الصلاة وذكر نحوا مما رواه البخارى عن أبي سعيد وصححه . وقال الحافظ بن حجر فى باب فضائل الفاتحة من الفتح عند ذكر فقه الحديث وفيه أن إجابة دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لا تفسد الصلاة هكذا صرح به جماعة من الشافعية وغيرهم وفيه بحث ... الى آخر ما يقوله .

يقول السيد رشيد رضا : وفي متن الحديث شيء من الاضطراب على أنه لا يتعلق به بعده صلى الله عليه وسلم عمل .

وأحق من هذا بالبيان ان طاعته صلى الله عليه وسلم واجبة في حياته و بعد مماته فيما علم أنه دعا إليه من أمر الدين كبيانه لصفة الصلوات وعددها والمناسك ولو كان البيان بالفعل في قوله « صلوا كما رأيتموني أصلي » وقوله « خذوا عني مناسككم » ومقادير الزكاة وغير ذلك من السنن العملية الدينية المتواترة وكذا أقواله المتواترة التي أمر بتبليغها فيما تدل عليه دلالة قطعية وأما غير القطعي رواية ودلالة من سننه فهو محل الاجتهاد فكل من ثبت عنده شيء منها ببحثه أو بحث العلماء الذين يثق بهم على أنه من أمر الدين فينبغي له الاهتداء به ولكن لا يملك أحد من المسلمين أن يجعل اجتهاده تشر يعا عاما يلزمه غيره أو ينكر عليه مخالفته أو مخالفة من قلده هو فيه ، إلا الائمة أولي الأمر فتجب طاعتهم في اجتهادهم في أحكام المعاملات القضائية والسياسية إذا حكموا بها لإقامة الشرع وصيانة النظام العام وعلى هذا كله جرى السلف الصالح وجميع أئمة الأمصار من كلامهم أن المجتهد لا يقلد مجتهدا وأنه لا يجب على أحد أن يقلد أحداً معينا في دينه ولكن من عرض له أمر يستفتي فيه من يطمئن قلبه لعمله بالكتاب والسنة و يأخذ بفتواه إذا اطمأن لها وقد امتنع الإمام مالك عن إجابة المنصور ثم الرشيد إلى ما عرضاه عليه من إلزام الناس العمل بكتبه حتى الموطأ الذي هو سنن واطأه جل علماء المدينة عليها .

أما من يقولون إن النبي صلى الله عليه وسلم إنما كانت تجب طاعته في عهده ولا يجب العمل بعده إلا بالقرآن وحده فهم زنادقة مضلون يريدون هدم الإسلام بدعوى الاسلام بل تجب طاعة الرسول كما أطلقها الله تعالى ويجب التأسي به في كل زمان إلى يوم القيامة بل نقول إننا نهتدي بخلفائه الراشدين وأئمة الأمصار من أهل البيت والفقهاء والمحدثين ، نهتدي بهم في آدابهم واجتهاداتهم القضائية والسياسية مع مراعاة القواعد الشرعية والمصالح العامة ولا نسمى شيئا منها دينا ندين الله به إلا ما ثبت فى كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم على الوجه المتقدم ، وأما السنن والإرشادات النبو ية فى أمور العادات كاللباس والطعام والشراب والنوم فلم يعدها أحد من السلف ولا علماء الخلف من أمور الدين فتسمية شيء منها ديناً بدعة منكرة لأنه تشر يع لم يأذن به تعالى . انتهى قول السيد رشيد رضا .

وهذه العبارة الأخيرة جديرة بأن نقف عندها يسيرا ولعل الشيخ عليه رحمة الله تأثر بشيخه فيها وبما كان في عصره من دعوة إلى التجديد في كل شيء في اللباس والمطعم والمشرب والعادات ونحن نحسب أن الموضوع خطر وأنه من صميم الدين ذلك لأن العادات والأعراف في المطعم والمشرب والملبس تتصل بحضارة الأمة وتتصل بمثلها ومفاهيمها وأخلاقها ومن عادة الأمم الغالبة أنها تريد أن تفرض عاداتها ومناهجها في الحياة وكل مظاهر حضارتها على الأمم المغلوبة ومن طبيعة الأمم المغلوبة أنها تأخذ في تقليد الأمم الغالبة وما تزال تسير في هذه الطريق حتى تضيع مميزاتها وتفقد شخصيتها وتذوب في أمة أخرى ومعنى ذلك ترك الأمة لمثلها ومعانيها السامية والإعجاب بمثل الأمة الغالبة ، واللباس مثال واضح في الموضوع ولقد أخذت الأمم الإسلامية بارتداء اللباس الغربي وأصبح زي الآباء والأجداد الذي يتصل بعادات الأمة ومفاهيم الأمة وما ألفت من حياء وحشمة أصبح محتقرا في أكثر البلاد وأصبح الزي الغربي الذي لا يراعي حياء ولايقدر للحشمة وزنا هو الزي المحبوب المحترم ولم تقتصر الفتنة على الرجل ولكنها بلغت النساء وكانت شرا مستطيرا . روى احمد وابو داود والطبراني عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من تشبه بقوم فهو منهم » (١)

قال تعالى :

« اعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه »

قال ابن جريراختلف أهل التأويل في قوله تعالى يحول بين المرء وقلبه فقال بعضهم معناه يحول بين الكافر والايمان و بين المؤمن والكفر وروى بسنده عن سعيد بن جبير قال بين الكافر أن يؤمن و بين المؤمن أن يكفر . وروى ابن كثير هذا القول عن ابن عباس

(١) : قال صاحب كشف الخفاء في سنده ضعف كما في اللآلئ والمقاصد لكن قال العراقي سنده صحيح وله شاهد عند البزار عن حذيفة وابى هريرة وعند ابي نعيم في تأريخ اصبهان عن أنس وعند القضاعي عن طاوس مرسلا وصححه ابن حبان .

اقول وقال ابن حجر في الفتح سنده حسن وقال ابن تيمية سنده جيد وقال ابن تيمية هذا الحديث أقل أحواله أنه يقتضي تحريم التشبه بأهل الكتاب وإن كان ظاهره يقتضي كفر المتشبه بهم كما في قوله تعالى « ومن يتولهم منكم فإنه منهم » وهو نظير قول ابن عمرومن بنى بأرض المشركين وصنع نيروزهم ومهرجانهم وتشبه بهم حتى يموت حشر يوم القيامة معهم فقد حمل هذا على التشبه المطلق فانه يوجب الكفر و يقتضي تحريم أبعاض ذلك .

وقال : رواه الحاكم في مستدركه موقوفا وقال صحيح ولم يخرجاه ورواه ابن مردويه من وجه آخر مرفوعا . يقول ابن كثير ولايصح لضعف إسناده والموقوف اصح .

وقال آخرون بل معنى ذلك يحول بين المرء وعقله فلا يدري مايعمل . وروى بسنده عن مجاهد قال يحول بين المرء وعقله . وفي رواية أخرى عن مجاهد يحول بين المرء وقلبه قال إذا حال بينك و بين قلبك كيف تعمل ؟

وعن السدي قال يحول بين الانسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن ولايكفر إلا بإذنه .

وقال آخرون معنى ذلك أنه قر يب من قلبه لا يخفى عليه شيء أظهره أو أسره وروي بسنده عن قتاده أنه قال هي كقوله « أقرب إليه من حبل الور يد »

قال ابو جعفر وأولى الأقوال بالصواب عندي في ذلك أن يقال أن ذلك خبر من الله عز وجل أنه أملك لقلوب عباده منهم ، وأنه يحول بينهم و بينها إذا شاء حتى لايقدر ذو قلب أن يدرك به شيئا من إيمان أوكفر أو أن يعي به شيئا أو أن يفهم إلا بإذنه ومشيئته وذلك أن الحول بين الشيء إنما هو الحجز بينهما وإذا حجز جل ثناؤه بين عبد وقلبه في شيء أن يدركه أو يفهمه لم يكن للعبد إلى إدراك ماقد منع الله قلبه إدراكه سبيل .

وإذا كان ذلك معناه دخل في ذلك قول من قال يحول بين المؤمن والكفر و بين الكافر والايمان وقول من قال يحول بينه و بين عقله وقول من قال يحول بينه و بين قلبه حتى لا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه لأن الله عز وجل إذا حال بين عبد وقلبه لم يفهم العبد بقلبه الذي قد حيل بينه و بينه ما منع إدراكه به على ما بينت .

غير أنه ينبغي أن يقال : إن الله عم بقوله « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » الخبر عن أنه يحول بين العبد وقلبه ، ولم يخصص من المعاني التي ذكرنا شيئا دون شيء والكلام محتمل كل هذه المعاني فالخبر على العموم حتى يخصه ما يجب التسليم له .

يقول ابن كثير: وقد وردت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يناسب هذه الآية روى الامام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول : يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك « قال فقلنا يارسول الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا ؟ قال نعم إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله

تعالى يقلبها وهكذا رواه الترمذي في كتاب القدر ثم قال حسن وروى الإمام أحمد عن ابي ادريس الخولاني يقول سمعت النواس بن سمعان الكلابي رضي الله عنه يقول: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول:« ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن رب العالمين إذا شاء أن يقيمه أقامه وإذا شاء أن يزيغه أزاغه » وكان يقول « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » قال « والميزان بيد الرحمن يخفضه و يرفعه » وهكذا رواه النسائي وابن ماجة من حديث عبد الرحمن بن يزيد بن جابر فذكر مثله وروى الإمام أحمد عن الحسن أن عائشة قالت : دعوات كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوبها « يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » قالت فقلت يارسول الله إنك تكثر أن تدعوبهذا الدعاء فقال « إن قلب الآدمي بين إصبعين من أصابع الله فإذا شاء أزاغة وإذا شاء أقامه »

وروى الامام أحمد أيضا عن أم سلمة تحدث أن رسول الله صلى الله علية وسلم كان يكثر في دعائه يقول : « اللهم مقلب القلب ثبت قلبي على دينك » قالت فقلت يارسول الله أو أن القلوب لتقلب ؟قال نعم ما خلق اللهمن بشر من بني آدم إلا أن قلبه بين إصبعين من أصابع الله عز وجل فإن شاء أقامه وإن شاء أزاغه فنسأل الله ربنا ألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب قالت فقلت يارسول الله ألا تعلمني دعوة أدعوبها لنفسي ؟ قال « بلى قولى اللهم رب النبي محمد اغفر لي ذنبي واذهب غيظ قلبي وأجرني من مضلات الفتن ما أحييتني» .

وروى الإمام أحمد أيضاً عن عبد الله بن عمر أنه سمع صلى الله عليه وسلم يقول : إن قلوب بني آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفها كيف شاء ثم قال صلى الله عليه وسلم اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك . انفرد بإخراجه مسلم عن البخاري ورواه النسائي من حديث حيوة بن شريح المصري به .

ذكر المفسرون في الآية الكريمة أقوالاً أوصلها ابن الجوزي إلى عشرة أحدها يحول بين المؤمن و بين الكفر و بين الكافر و بين الايمان» رواه ابن طلحة عن ابن عباس و به قال سعيد بن جبير.الثاني يحول بين المؤمن و بين معصيته و بين الكافر و بين طاعته . رواه العوفي عن ابن عباس و به قال الضحاك والفراء. والثالث يحول بين المرء وقلبه حتى لا

يتركه يعقل قاله مجاهد قال ابن الأنبارى المعنى يحول بين المرء وعقله فبادروا الأعمال فإنكم لا تأمنون زوال العقول . والرابع هو قريب من المرء لا يخفى عليه شيء من سره كقوله « ونحن أقرب اليه من حبل الوريد » وهذا معنى قول قتادة . والخامس يحول بين المرء وقلبه فلا يستطيع إيمانا ولا كفرا إلا بإذنه قاله السدى . والسادس: يحول بين المرء وبين هواه . والسابع : يحول بين المرء وبين ما يتمنى بقلبه من طول العمر والنصر وغيره . والثامن : يحول بين المرء وقلبه بالموت فبادروا الأعمال قبل وقوعه . والتاسع : يحول بين المرء وقلبه بعمله فلا يضمر العبد شيئا في نفسه إلا والله عالم به لا يقدر على تغييبه عنه .
والعاشر: يحول بين ما يوقعه في قلبه من خوف أو أمن فيأمن بعد خوفه ويخاف بعد أمنه وحكى الزجاج أنهم لما فكروا في كثرة عدوهم فدخل الخوف قلوبهم أعلمهم الله تعالى أنه يحول بين المرء وقلبه بأن يبدله الخوف الأمن و يبدل عدوهم بالقوة الضعف . قال ابن الجوزى وقد أعلمت هذه الآية أن الله تعالى هو مقلب القلوب المتصرف فيها .
وقد حكى أبو حيان التوحيدي القول العاشر بعبارة أوضح قال : وقيل معناه أن الله قد يملك على العبد قلبه فيفسح عزائمه و يغير نياته ومقاصده و يبدله بالخوف أمناً و بالأمن خوفاً و بالذكر نسياناً و بالنسيان ذكراً وماأشبه ذلك مما هو جائز على الله تعالى .

ونسب القول الثامن إلى علي بن عيسى قال وقال علي بن عيسى هو أن يتوفاه لأن الأجل يحول بينه و بين أمل قلبه وهذا حث على انتهاز الفرصة قبل الوفاة التي هو واجدها وهي التمكن من إخلاص القلب ومخالجة أدوائه وعلله ورده سليما كما يريده الله فاغتنموا هذه الفرصة وأخلصوا قلوبكم لطاعة الله ورسوله . أ هـ قال ابو حيان وهو على طريقة المعتزلة وعلي بن عيسي هو الرماني وهو معتزلي قال ابو حيان وقاله الزمخشري ايضا .

والمعنى الذي نختاره هو الذي اختاره ابن جرير الطبري أن الله أملك لقلوب العباد أنفسهم وأنه يحول بينهم و بينها إذا شاء حتى لايدرك الإنسان شيئا إلا بمشيئته تعالى .

وكل الأقوال العشرة تتدرج تحت هذا ولاتخرج عنه ومؤداه أن الله جل شأنه مالك قلوب العباد يتصرف بها كما يشاء ومن تصرفاته ماذكر في الاقوال السابقة ومنها أنه يحول بين المرء وقلبه حتى لايتركه يعقل (وهذا هو القول الثالث من الأقوال السابقة) وهذا المعنى هو الأنسب بسياق الآيات وعرضها في نظرنا وهو الذي يتفق وما تعطيه اللغة أيضا ذلك أن القلب هو أداة الوعي والإدراك والتميز بين الخطأ والصواب والخير والشر فإذا حيل

بين المرء وعقله أو بين المرء وقلبه كان كمن عطل قلبه فلا يستطيع إدراكا ولا تمييزا وقولنا حيل بينه و بين قلبه كقولنا حيل بينه و بين سمعه أو بصره أو ماله إذا إفتقد سمعه أو بصره أو ماله أو كانت هذه الأدوات موجودة ولكنه غير قادر على استعمالها ومن ذلك قوله تعالى (وحال بينهم الموج فكان من المغرقين) لقد حال الموج بين نوح وابنه فلم يعد هنالك إمكان لعود التلاقي بينهما وهكذا يحال بين المرء وعقله فيتعذر إمكان التلاقي بينهما .

وهذه الحال تتحقق بالموت والإغماء و بالجنون المطبق في حالة السكر ولكن حالاً شبيهة بالسكر أو الجنون تعتري المرء وهو في حالة الإفاقة فلا يستطيع التميز بين الخير والشر ولا الخطأ والصواب ولا يستطيع بحال أن يرى الحق حقا ولا الباطل باطلا وقد وصف الله جل شأنه الناس يوم القيامة بأنهم سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد والموقف الذي أسكر الناس هو يوم الزلزلة حين يعم الهلع و يستولي الفزع وتذهب الدهشة بالقلوب .

وهذا المعنى كما أسلفنا هو الذي يناسب سياق الآيات إذ الغرض تربية المؤمنين أن يمتثلوا أمر الله و يستجيبوا لندائه ، ولقد أمرت الآية الأولى المؤمنين بالطاعة لله ورسوله وحذرتهم أن يكونوا كالذين سكرت أسماعهم الذين قالوا سمعنا وهم لايسمعون وهؤلاء هم الصم البكم الذين لايعقلون ثم أمرت الآية الثانية بالاستجابة لله ورسوله وحذرت المؤمنين من الوقوع في حال يفقدون معها الانتفاع بقلوبهم كمن قال تعالى في شأنهم « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور» ومن ذلك السكر بالدنيا بزخارفها ومفاتنها والتنافس في جمعها والتكاثر فيها وما يصرف المرء عن امتثال أمر الله ورؤية الحق كحب الدنيا والانغماس فيها ولذلك قال الله تعالى « أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل » مخاطبا المؤمنين على أثر إنكاره جل شأنه عليهم التباطؤ في الاستجابة إلى دعوة الرسول حين دعاهم إلى النفرة في غزوة تبوك قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض »

حب الدنيا والانغماس في ملذاتها يحول بين الانسان وقلبه فلا يرى الحق حقا ولا ينهض في مثل هذه الحال للقيام بأمر ربه و يصبح حاله حال من حيل بينه و بين قلبه .

والآيـة الـكـريمـة من آيات الإعجاز بما تضمنته من معان تتصل بصفة من صفات الله وهـي تـفـرده جـل شأنه بالخلق والتدبير واستقلاله بتصريف الأمور وتقديرها فليس له في ملكه منازع وليس في الأرض ولا في السماء سلطان غير سلطانه ولا مشيئة غير مشيئته .

ولـكـن الـسـلـطـان الـذي تـتـحدث عنه الآية الكريمة سلطانه جل شأنه على القلوب وملكـه لهـا يـصـرفـهـا كـيـف يشاء و يقلبها كما يشاء ، ولما كانت القلوب مركز الوعي والإدراك والتمييز والحكم للتمييز بين الخير والشر والحكم على الخطأ والصواب والفصل بين الحـق والـبـاطـل إلـى جانب الشعور والوجدان والتصميم والإرادة كان مجال الآية الكريمة الـنـفـس الـبشر ية في ما انطوت عليه من نوازع ودوافع وغرائز وعواطف وعادات مكتسبة واسـتـعـدادات مـتـبانية مكتسبة واستعدادات متباينة مختلفة في تقلباتها وتغيراتها وهو مجال فـسـيـح وعـالم مـتـبـاعـد الأرجاء وإذا كان القادر الحكيم جل شأنه هو مالك النفوس وهو المـتـصرف بها وهو الذي يسيرها فأين تقع مسئولية هذه النفوس وما هو مجال عملها وما هو مـدى إرادتهـا واخـتـيـارهـا ؟ كـل هذه المعاني قد انطوت في ثنايا الآية الكريمة التي تعد حروفها و يتعذر على القارئ أن يحيط بمعانيها ويجد المتأمل في ما كتب المفسرون أن كلاً منهم قد بذل الوسع في تبيين جانب من جوانب الآية الكريمة .

وأضاف كل لاحق جزءاً يسيراً إلى ذكره السابق وظلت الآية الكريمة عالية مـشـمـرخـة كـأمواج البحر الزاخر تتوالى الأجيال وما أدرك المدركون من معانيها إلا الجزء اليسير .

« قـل لـو كـان الـبحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا » .

الحـقـيـقـة التي تقررها الآية الكريمة أن الله تباركت أسماؤه يحول بين المرء وقلبه أي يـفـصـل ويحـجـز بـينهما وهذا الحجز بين المرء وقلبه إنما يكون في ساعة حاجة المرء إلى قلبه والـقـلـب هـو الأداة الـتـي يـكون بها الإنسان إنساناً وحاجته إلى قلبه لا تنقطع ولكنه في بعض أحيانه يكون أشد احتياجاً إلى قلبه منه في أحيان أخرى ، فاذا بحث المرء عن أداته الـوحـيـدة و وسـيـلته التي لا وسيلة غيرها في ساعة من ساعات الشدة فاذا هو قد افتقدها وأضاعها وهو لا يستطيع الوصول اليها بحال فأي حرج أكبر من ذلك الحرج وأي شدة أعظم

منه وإنه لوصف رهيب توجل له القلوب وما مثله إلا الجندي في ساحة القتال عند مقابلة العدو في الساحة التي لاينجيه فيها إلا سلاحه يفتقد سلاحه ويحال بينه و بينه فلا يصل إليه بحال .

والآية الكريمة ومعها شروح المفسرين توحي بالأسئلة التالية :

السؤال الأول : الآية الكريمة أهي مساو ية في معناها لقوله عليه الصلاة والسلام انه جل شأنه مقلب القلوب أم هي اخص منها ؟

السؤال الثاني : ما هي ثمرة الإيمان بأن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن وأنه جل شأنه قد يحول بين العبد وقلبه فلا يستطيع العبد أن يصل إلى قلبه أو يثوب إلى رشده ؟

السؤال الثالث : هل معنى كونه جل شأنه يحول بين العبد وقلبه أنه ليس للعبد كسب في ذلك وليس له فيه جناية ؟

الاجابة عن السؤال الأول :

فسر ابن جرير الآية الكريمة بأنه جل شأنه أملك لقلوب عباده منهم أنفسهم وأنه يحول بينهم و بينها إذا شاء حتى لايقدر ذو قلب أن يدرك به شيئا من إيمان أو كفر أو أن يعي به شيئا أو أن يفهم إلا بأذنه ومشيئته وأنزل ابن جرير على هذا المعنى مانقل من أقوال التابعين جميعا ، وهذا المعنى يتضمن جانبين أولهماأنه جل شأنه مالك للقلوب متصرف بها والثاني أنه يحول في بعض الأحيان بين العبد وقلبه والجانب الأول هو الأصل في المسألة والثاني فرع لها فالله جل شأنه يتصرف في القلوب ومن جملة تصرفاته فيها ومن أنواع تسييرها أنه في بعض الأحيان ولدى بعض الأفراد يحول بينهم و بين قلوبهم ، وقول الرسول عليه الصلاة والسلام يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك نداء له جل شأنه بصفته وهي قدرته على القلوب وملكه لها ودعاء بطلب التثبيت على الحق فكونه مقلب القلوب صفة عامة لله جل شأنه ينشأ عنها كل الحالات التي تطرأ على القلوب ومن هذه الأحوال حالة خاصة وهي حين يحال بين المرء وقلبه فلا يدرك به شيئا ولا يعي به أمراً والآية الكريمة إنما جاءت محذرة المؤمنين من وقوع هذه الحالة الخاصة التي يسلب المرء فيها رأيه و يضيع رشده و يذهب عنه تدبيره .

وقد جاء تفسيرات المفسر ين ملاحظة الجانب الأول مرة والجانب الثاني مرة أخرى

وقد جمع ابن جرير بينهما كما رأينا والسؤال الذى يرد ما هي الأمثلة التي توضح وقوع الفرد في حالة يضيع فيها رشده و يفقد وعيه ؟ الموت ، غلبة الهوى ، غلبة العصبية ، إدمان الشر ، حيرة الفتن .

المثال الأول :

يفقد المرء رشده حين تشل إرادته و يعقد لسانه و يشخص بصره وتبرد أطرافه هنالك لا رأي ولاعقل ولا تفكير ولا إرادة وقد فسر الآية بعض المفسرين بهذا قال صديق حسن خان قبل معنى الآية : « بادروا إلى الاستجابة قبل ألا تتمكنوا منها بزوال القلوب التي تعقلون بها بالموت الذي كتبه الله عليكم »

المثال الثاني :

غلبة الهوى على قلب المرء أي هوى من الأهواء ذلك أن الهوى يعمي عن رؤية الحق و يصم عن سماعه قال تعالى « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله ؟ أفلا تذكرون »

هؤلاء الراسخون في الكفر ختم على سمعهم وعلى قلبهم وجعل على أبصارهم غشاوة وحيل بين قلوبهم و بين الحق فلا يستطيعون أن يروه أو يسمعوه أو يعوه وكان سبب ذلك أن أهواءهم غلبت على قلوبهم وكانت آلهة معبودة لهم وحالت حيلولة تامة بينهم و بين قلوبهم ، هذه القلوب التي ترى الحق بفطرتها وتدرك الخير قد عطلت عن إدراكها حتى كأنهم فقدوها وكأنها معدومة بالنسبة لهم .

غلبة العصبية على قلب العبد والعصبية هي ما ألف المرءاعتقاده عن أبيه وأمه وعشيرته و بيئته ونشئ عليه حتى خالط لحمه ودمه وعظامه وهذا الذي ذكر في قوله تعالى : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » وهو الذي عناه عليه الصلاة والسلام بقوله « فأبواه يهودانه أويمجسانه أو ينصرانه » وأنه لمن العسير جدا على الإنسان أن ينزع ما غرس في قلبه على مدى الأزمان ونما في فؤاده مع الأيام ذلك أن هذا الذي ألفه واعتاده واعتقده قد أصبح جزءا من نفسه فكيف يستطيع المرء أن ينزع جزءا من نفسه فإذا أضيف إلى هذا الإلف الهوى والكبر والعناد والإصرار انتهى إلى ما وصف الله تعالى : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة »

وهكذا كانت العصبية للمعنى الذي نشئ عليه المرء والعقيدة التي ربي عليها حجابا عن رؤية الحق تحول بينه و بينها .

المثال الرابع :

إدمان الشر، لقد أودع الله في قلب كل إنسان ضميرا ينزع بفطرته إلى الخير يرغب فيه و ينزع عن الشر و يأباه ولكن الإنسان قد يدمن الشر نعوذ بالله و يقع فيه المرة بعد المرة حتى يقسو قلبه ويموت وجدانه و يتبلد إحساسه فلا يعود يحس بكراهية للشر ولا نفرة منه بل يألفه و يستمرئه . قال تعالى « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » . والرين الطبع والدنس والرين الصدأ الذي يعلو السيف والمرآة ، والرين كالصدأ يغشي القلب ، وران الذنب على قلبه غلب عليه وغطاه وقوله تعالى بل ران على قلوبهم أي غلب وطبع وختم وقال الحسن البصري : هو الذنب على الذنب حتى يسوادّ القلب .

المثال الخامس :

الفتنة حين تصم وتطم في مجتمع من المجتمعات و يستشري أمرها و يشمل و باؤها الناس جميعا حين ذلك يخرج الأمر من أيدي العقلاء ويجدون أنفسهم قد غلبوا على أمرهم وأصبح الأمر فوق طاقتهم وهنالك تكون الفتنة في شدتها وضراوتها حائلا يحول بين عقلاء الأمة وحسن التدبير وإيجاد المخرج وهنا كأنما يحال بين المجتمع وعقله أمام أمواج الفتنة العارمة وقد جاء بعد هذه الآية قوله تعالى « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة »

فالفتنة في أول نشأتها أمرها يسير والقضاء عليها في مهدها قد يكون قريب المتناول فإذا استفحل أمرها واستشرت شرتها غلبت على ذوي العقول حكمتهم وأضاعت تدبيرهم ولم يُجْدِ في شأنها علاج .

ما هي ثمرة الإيمان بالآية الكريمة

الآية الكريمة ذات جانبين كما أسلفنا أولهما أن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء والثاني أنه جل شأنه قد يحول بين العبد وقلبه فلا يستطيع العبد أن يصل إلى قلبه أو أن يثوب إلى رشده .

ومن ثمرات الإيمان بهذا كله ما ذكره السيد رشيد رضا في تفسيره قال : « إن من سنة الله في البشر الحيلولة بين المرء و بين قلبه الذي هو مركز الوجدان والادراك ذي السلطان على إرادته وعمله وهذا أخوف ما يخافه المتقي على نفسه إذا غفل عنها وفرط في جنب ربه كما أنه أرجى مايرجوه المسرف على نفسه إذا لم ييئس من روح الله فهذه الجملة أعجب جمل القرآن ولعلها أبغاها في التعبير، وأجمعها لحقائق علم النفس البشرية وعلم الصفات الربانية وعلم التربية الدينية التي تعرف دقائقها بما تثمرة من الخوف والرجاء .

فبينا زيد يسير على سبيل الهدى و يتقي بنيات طرق الضلالة الموصلة إلى مهاوي الردى إذا بقلبه قد تقلب بعصوف هوى جديد يميل به عن الصراط المستقيم من شبهة تزعزع الاعتقاد أو شهوة يغلب بها الغي على الرشاد ، فيطيع هواه و يتخذه إلهه من دون الله (أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا) على أنه فيه مختار، فلا جبر ولا اضطرار.

و يقابل هذا من الحيلولة ما حكيَ بعضهم عن نفسه أنه كان منهمكا في شهواته ولهوه تاركا لهداه وطاعة ربه فنزل يوماً في زورق في نهر دجلة للتنزه مع رفاق له ومعهم النبيذ والمعازف فبينا هم يعزفون و يشربون إذ التقوا بزورق آخر فيه تال للقرآن يرتل سورة (إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت وإذا الجبال سيرت وإذا العشار عطلت وإذا الوحوش حشرت وإذا البحار سجّرت وإذا النفوس زوجت وإذا المؤدة سئلت بأي ذنب قتلت وإذا الصحف نشرت وإذا السماء كشطت وإذا الجحيم سعرت وإذا الجنة أزلفت علمت نفس ما أحضرت) فوقعت تلاوته من نفسه موقع التأثير والعظة فاستمع له وأنصت حتى إذا بلغ قوله تعالى « وإذا الصحف نشرت » امتلأ قلبه خشية من الله لاطلاعه على صحيفة عمله يوم يلقاه فأخذ العود من العازف فكسره وألقاه في دجلة وثنى بنبذ قناني النبيذ وكؤوسه فيها وصار يردد الآية وعاد إلى منزله تائباً من كل معصية مجتهداً في كل ما يستطيع من طاعة .

فتذكير الله إيانا بهذا الشأن من شئون الإنسان وهذه السنة القلبية من سنن الله تعالى في الإرادات والأعمال وأمره إيانا بأن نعلمها علم إيقان وإذعان يفيدنا فائدتين لا يكمل بدونها الإيمان وهما أن لا يأمن الطائع المشمر من مكر الله فيغتر بطاعته و يعجب بنفسه

وأن لا ييئس العاصي والمقصر في الطاعة من روح الله فيسترسل في اتباع هواه حتى تحيط به خطاياه ومن لم يأمن عقاب الله ولم ييئس من رحمة الله يكون جديرا بأن يراقب قلبه ويحاسب نفسه على خواطره و يعاقب نفسه على هفواته لتظل على صراط العدل المستقيم متجنبة الإفراط والتفريط ، و يتحرى أن يكون دائما بين خوف يحجزه عن المعاصي ورجاء يحمله على الطاعات » .

وهكذا يظل المؤمن خاشعاً لله متواضعاً مهما آتاه الله من قوة وحباه من سلطان ومهما عظم جهاده و بذّل نفسه وماله يخاف أن ينزع الله منه نعمته ويخشى أن يحول قلبه فهو لا يملك من الأمر شيئا ولا يملك من أمر نفسه وأمر قلبه شيئا وهكذا يفعل المؤمن الخير وقلبه خائف وجل فلا تبطره النعمة ولا يملكه الغرور ولا يأخذ بلبه الكبر والعجب والاستعلاء في الأرض ذلك أنه يعلم أن الساعة التي يأخذ الكبر بلبه و يستولي الغرور على فؤاده يهوي عن مكانته و يستلب نعمته و يعمى عن الحق و يصرفه عنه قلبه .

وهكذا كان بين المؤمن وعمى البصيرة لفتة يسيرة جدا أن يشعر أنه هو الذي أحسن وهو الذي أعطى وأنه هو الذي فعل الخير وأن يقول في نفسه كلمة بسيطة جداً « إنما أوتيته على علم عندي » هنالك يكون قد نسي الله جل شأنه الذي أعطاه و يسر له الخير وهنالك يعمى عن الحق ويحال بينه و بين هذا النور الذي أودعه الله في قلبه ، النور الذي يرى الحق و يكشف الظلمة لقد نسي هذا رحمة الله به ولطفه به وإحسانه إليه فكان جديرا أن يوكل إلى نفسه وشيطانه وكان جديرا ألّا يبصر هدى .

و بين الكافر الضال والجاحد المعاند ورؤية الحق لفتة يسيرة أيضاً أن يشعر برحمة الله ولطفه به منذ كان في عالم الأجنة هنالك ينشرح صدره للايمان و ينفتح قلبه للحق .

وهنالك ثمرة تربوية أخرى تؤخذ من الآية الكريمة ، إذا كان الكبر والعجب والغرور كل هذه تطمس على بصيرة العبد وتبعد به عن رؤية الحق فالدنيا والانغماس في شهواتها ليست بأقل خطرا من ذلك فهي عامل كبير في الحيلوله بين المرء وقلبه وهذا الذي وقع فيه أكثر المسلمين اليوم .

والثمرة الثالثة:الآية الكريمة تحذر المؤمن مخالفة أمر الله ذلك لأن امتثال أمر الله فيه الحياة (استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) وامتثال أمر الله دليل على الحياة وعدم

الامتثال يؤدي إلى الموت وما يقدم عليه إلا من مات قلبه فليحذر المؤمن من مخالفة واحدة لأنها تؤدي إلى موت جزئي والمخالفة الأولى تسول للنفس الأمارة الوقوع بالمخالفة الثانية فإذا انغمس العبد فى المخالفات مات قلبه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية عليه رحمة الله (فتاوى ٨ : ١١٧) ومما ينبغي أن يعلم أن مذهب سلف الأمة مع قولهم : الله خالق كل شيء وربه ومليكه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه على كل شيء قدير وأنه هو الذي خلق العبد هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا ونحو ذلك ـ إن العبد فاعل حقيقة وله مشيئة وقدرة قال تعالى : « لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين » وقال تعالى « إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا وما تشاؤون إلا أن يشاء الله » وقال تعالى « كلا انه تذكرة فمن شاء ذكره وما يذكرون الا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة » .

وروى الترمذي في جامعه عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء ، فإذا هو نزع واستغفر الله وتاب صقل قلبه ، فإن عاد زيد فيها ، حتى تعلو على قلبه وهو (الران) الذي ذكر الله في كتابه « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون »

قال : هذا حديث حسن صحيح ، وكذا قال المفسرون هو الذنب على الذنب حتى يسود القلب .

قال مجاهد : هو الرجل يذنب الذنب فيحيط الذنب بقلبه ثم يذنب فيحيط الذنب بقلبه حتى تغشى الذنوب قلبه .

قال مجاهد هي مثل الآية التي في سورة البقرة : « بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » وأحاطت به خطيئته أي غمرته من جميع جوانبه فلا تبقى له حسنة وسدت عليه مسالك النجاة .

ونحوه عن الفراء قال : يقول كثرت المعاصي منهم والذنوب فأحاطت بقلوبهم فذلك الرين عليها .

أقول والآية الكريمة نص صريح بأن قلوب هؤلاء قد غشيت وطبع عليها وأصبحت لا تدرك حقا ولا تعرف معروفا ولا تنكر منكراً وكان ذلك بسبب الذنوب والآثام التي أحاطت بها فطمستها طمساً ومن هنا يعلم أن الذنوب إذا توالت على قلب العبد طمست نوره وأفسدت فطرته فلقد روي عن مجاهد أيضا قال:القلب مثل الكهف ورفع كفه فإذا أذنب العبد الذنب انقبض وضم إصبعه ، فإذا أذنب الذنب انقبض وضم أخرى ، حتى ضم أصابعها كلها حتى يطبع على قلبه قال وكانوا يرون أن ذلك هو الرين ثم قرأ « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » .

يقول رشيد رضا في تفسيره وجملة:القول أن من سننه تعالى في البشر أن من يتبع هواه في أعماله و يستمر على ذلك و يدمنه الزمن الطويل تضعف ارادته في سواه حتى تذوب وتفنى فيه فلا تعود تؤثر فيه المواعظ القولية ، ولا العبر المبصرة ولا المعقولة وهذه الحالة يعبر عنها بالختم والرين والطبع على القلوب والصم والعمى والبكم كما جاء في سورة البقرة .

و يقول أيضا : « ومما يؤيد ما فهمناه في هذا المقام مقام حرمان الراسخين في الكفر من سماع الفقه والهدى قوله تعالى : « افرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه بعد الله ؟ أفلا تذكرون ؟ » فهي صريحة في أن من هذا حاله ليس مجبورا عليه وأن الله لم يحرمه الهدى بإعجازه عنه وهو يؤثره و يفضله أو بإكراهه على اتباع الهوى وهو كاره له فإنه أسند إليه اتخاذ هواه إلهه وقد قال لنبيه داود عليه السلام (ياداود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » .

وهذا نص في أن اتباع الهوى سبب لضلال عن سبيل الله ، وقوله تعالى فى آية الجاثية (وأضله الله على علم) ليس معناه أنه تعالى خلق فيه الضلال استقلالاً بل هو داخل في سننه تعالى في الأسباب والمسببات و يؤيده كون ضلاله على علم وهو أنه متعمد الاتباع الهوى مؤثر له على الهدى والله تعالى يسند الأمور إلى أسبابها تارة وإليه تعالى تارة من حيث أنه خالق كل شيء وواضع سنن الأسباب والمسببات ... كقوله تعالى في الحرث (افرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) فهل يقول عاقل أن الفلاح لا فعل له ولا اختيار في زرعه وأن الله يخلقه له بدون إرادته ولا فعله ، أو أن فعله وتركه في أرضه سواء ، وتلقيحه نخله وعدمه سيان ؟

أقول ومن هذا الباب قوله تعالى « ختم الله على قلوبهم » وقوله تعالى :
« واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » لم يقع الختم على قلوبهم ولا الحيلولة بينهم و بينها ، لم يقع شيء من ذلك إلا نتيجة لأسباب أوقعوها وآثام ارتكبوها وذنوب جنوها ولذلك ذيلت الآية الكريمة بقوله تعالى وإنه إليه تحشرون وفيه محاسبة العبد على أعماله ومجازاته عليه إما بالعذاب الأليم وإما بالنعيم المقيم .

قال تعالى:
« واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب » .

قال ابن كثير: قال علي بن ابي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية:أمر المؤمنين ألا يقروا المنكر بين ظهرانيهم فيعمهم الله بالعذاب رهذا تفسيرحسن جدا ، ولهذا قال مجاهد في قوله تعالى « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » هي ايضا لكم وكذا قال الضحاك و يز يد بن أبي حبيب وغير واحد وقال ابن مسعود ما منكم من أحد إلا وهو مشتمل على فتنة إن الله تعالى يقول « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » فأيكم استعاذ فليستعذ بالله من مضلات الفتن رواه ابن جرير والقول بأن هذا التحذير يعم الصحابة وغيرهم وإن كان الخطاب معهم هو الصحيح و يدل عليه الأحاديث الواردة في التحذير من الفتن .

يقول القرطبي :
وكذلك تأول فيها الزبير بن العوام فانه قاتل يوم الجمل وكان سنة ست وثلاثين ما علمت أنا أردنا بهذه الآية إلا اليوم ، وما كنت أظنها إلا فيمن خوطب ذلك الوقت .
روى أحمد والبزار وابن المنذر وابن مردويه عن مطرف قال قلنا للزبير « يا أبا عبد الله ضيعتم الخليفة حتى قتل ثم جئتم تطلبون بدمه ؟ فقال إنا قرأنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) ولم نكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت فينا حيث وقعت وروى عنه جمهور مخرجي التفسير المأثور: لقد قرأناها زمانا وما نرى أنّا من أهلها فإذا نحن المعنيون بها .

وقد روى أبو الشيخ عن مجاهد قال « اتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منهم خاصة » هي (يحول بين المرء وقلبه) حتى يتركه لا يعقل والذي افهمه من هذا أن الفتنة إذا

عمت في مجتمع وطغت ثم استيقظ الناس للقضاء عليها وجدوا الأمر قد خرج من أيديهم وألفوا الخرق قد اتسع على الرتق وهنا تضيع حكمة الحكماء و يذهب تدبير العقلاء وتغلب على العقول الحيرة وتستولي عليها الدهشة و يصبح ذوو العقول وكأنما عطلت عقولهم ، وإنا لنجد هذه المعاني في كثير من المجتمعات الاسلامية الحاضرة .

« فهـرس »

كتـاب : من هدي سـورة الأنفال

الموضـوع	الصفحـة
مقدمة بقلم الأستاذ محمّد العبدة	٣
تقدمة للسورة الكريمة	٧
نظرة إجمالية في أغراض السورة الكريمة	٨
النـداءات الخمسـة	٩
موضع السورة من كتاب الله	١٧
قـول الألوسـي	١٧
قول ابن كثير في النقل	٢٤
قول أبي عبيد في الانفال	٢٥
قـول الـراغـب	٢٥
خلاصـة الأقـوال	٢٦
الرواية الراجحة في نظرنـا	٣٣
خلاصة القـول في الروايـات	٣٧
هل الآية منسـوخـة	٤٠
قـول ابن جرير الطبري	٤٥
الخـلاصـة	٤٦
متى شرع الخمس ؟ أخمست غنائم بدر	٤٦
هل النقل من أصل الغنيمة	٤٨

في تربية الآيات الكريمة ٥٦
قيمة التجـارب في حياة الأمّة ٥٩
قاعدة عـامة في التربية القرآنية ....
الحـرص على سلامـة الجماعة ٦١
التربية عمليّة ميدانيّـة ٦٣
غوائل النّصـــر ٦٤
ثناء عن طريق الاشارة ٦٦
التقوى جماع الخير كله ٧٠
شأن المؤمن أن يتّقي الله حق تقاته ٧١
من صفات المتّقين الايمان بالغيب ٧٥
ثمرة التقـوى ٧٨
لا نسخ في الايتين ٨٠
الخوف والرجاء مقترنان ٩١
زيـادة الايمان ٩٦
قول القرطبي في زيادة الايمان ١٠٠
قول السيد رشيد رضا في زيادة الايمان ١٠٣
أبو حنيفة رحمه الله وزيادة الايمان ١٠٤
حقيقة الانسان مجهولة ١١١
دراسة الاعتقاد دراسة نفسية ١١٢
المصطلحات الشرعية يحكم في معناها الشرع ١١٣
قولهم إن التصديق لا يكون إلّا بالقلب مردود ١١٥
الانحراف عن المعنى الصحيح للتوكّل ١٢٩
الصفات الخمس لتربية المؤمنين ١٣١
ما هي العبـادة ١٤٤
الانفــاق ١٤٧

القصـد في الانفـاق ١٥٦
في الانفـاق حياة المجتمع ١٥٩
كلمة في الانفاق للغزالي ١٦٤
الصلة بين الصفات الخمس والسؤال عن الانفال ١٦٥
معالجة الموقـف ١٨١
مغـامرة في سبيل الله منظمة ١٨١
وحدة صـف المؤمنين بعد المؤتمر ١٨٦
روحهم المعنوية عالية ١٨٩
الانفعال المتزن يستشير الطاقات الكامنة ١٩٩
اعطاء كل مقام حقّه ٢٠٠
أقاتلت الملائكة يوم بدر ؟ ٢٠٣
دعـوة بـاطلـة ٢٠٥
الهدوء في ساعات الشدّة ٢٠٨
لا فـرار يوم الزّحـف ٢١٥
قـول ابن العربـي ٢١٩
الارتبـاط بالقيـادة ٢٢٤
تربية بيع النفس لدى أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم....... ٢٢٩
الاية ذات غرضين ٢٤٦
ما هي ثمرة الايمان بالاية الكريمة ٢٧٥

تـم
بعون الله
وتـوفـيـقـه

طبع هذا الكتاب
بشركة العبيكان للطباعة والنشر
الرياض/المملكـة العربيـة السعوديـة
ص ب . ٦٦٧٢ ــ ت . ٤٥٧٢٥٣٧